النصرانية

من التوحيد إلى التثليث

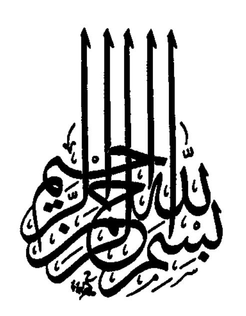
الدكتور
محمد أحمد الحاج



دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت


النصرانية
من التوحيد إلى التثليث





الدكتور
محمد أحمد الحاج

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

● هذا الكتاب رسالة قدمها المؤلف لنيل درجة الماجستير إلى كلية أصول الدين بالرياض بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد العسال وناقشها الأستاذ الدكتور صالح الفوزان والأستاذ الدكتور صابر طعيمة.

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الطبعة الأولى

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مُضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، وعلى آله، وأصحابه، ومن اهتدى بهديه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد...

فإن خير ما أستهل به هذه المقدمة، قول الله تبارك وتعالى: ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفُواً أحد﴾[1].

إن دين الله هو التوحيد، ولقد توالى رسل الله جميعاً يدعون الناس إلى هذه الحقيقة الخالدة، شعارهم واحد ﴿اعبدوا اللَّهَ ما لكم من إلـه غيرُه﴾[2].

ورسالة المسيح عليه السلام شأن غيرها من رسالات السماء، دعت إلى هذه الحقيقة، والله تعالى يقول على لسان عيسى بن مريم: ﴿ما قلتُ لهم إلاَّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربَّكم﴾[3].

لكن دعوته عليه السلام سرعان ما تبدلت لتقوم على أنقاضها المسيحية

---

(١) سورة الإخلاص.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٩.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١٧.

الحاضرة التي تنكرت لحقيقة التوحيد، وجاءت بعقيدة التثليث المقتبسة من الفلسفة الوثنية التي كانت سائدة آنذاك.

إن المرء لتأخذه الدهشة من هذا الانحراف، ويتساءل عن نشأته وعوامله، ويرغب في معرفة حقيقة الأمر وملابسات المسألة، ولقد كان هذا هو السبب الأول الذي دفعني لاختيار هذا الموضوع لأتقدم به لنيل شهادة الماجستير.

لقد بدأت فكرة هذا الموضوع تداعبني منذ سنوات، وكنت كلما درست شيئاً عن النصرانية أجد نفسي أمام قضيتين:

القضية الأولى: هذه الخرافات والعقائد الفاسدة التي تؤمن بها اليوم.

القضية الثانية: أن هذه الدعوة ـ في أصلها ـ سماوية جاء بها أحد رسل الله عيسى بن مريم عليه السلام.

وكنت كثيراً ما أحاول الربط بين القضيتين فلا أستطيع. فقررت أن أبحث وأدرس المسألة من أساسها.

ويدرك أهمية هذا البحث من يطلع على أساليب النصارى في التبشير، حيث تخوض أمتنا الإسلامية معارك ضارية مع التبشير المسيحي الذي تدعمه دول الغرب الكبرى.

ولقد شهد هذا القرن نشاطاً كبيراً للمبشرين من النصارى في أجزاء كثيرة من العالم وبخاصة في قارة إفريقيا البكر، التي يخططون لها أن تكون قارة صليبية، هذا إلى جانب نشاطهم في آسيا وبخاصة في العالم الإسلامي.

وجهل عامة المسلمين بعقائد غيرهم من الأمراض التي تعاني منها أمتنا، ومن هنا يأتي نجاح المؤسسات التبشيرية العاملة في بلاد المسلمين.

إن على دعاة المسلمين ـ لمواجهة حملات التبشير النصرانية ـ أن يفهموا صلب عقيدة النصارى ويتعرفوا على أساس انحراف هذه العقيدة عن الدعوة الحقيقية التي دعا إليها عيسى عليه السلام.

ومن المؤسف أن نجد المبشرين من النصارى يدرسون عن الإسلام قبل أن يبدأوا بالتبشير في ديار المسلمين، وكلنا يعلم اهتمام المستشرقين بالتراث الإسلامي ودراستهم العميقة للإسلام، وما كان الاستشراق إلَّا تمهيداً للتبشير والاستعمار.

كل ذلك دفعني إلى القيام بهذه الرحلة مع النصرانية منذ بدايتها، عشت معها في مهدها مع عيسى عليه السلام وحوارييه فكانت دعوة صافية نقية تدعو إلى توحيد الله تعالى، وتنشر التعاليم السامية بين الناس. وانتقلت إلى مرحلة أخرى حيث ابتدأ الانحراف، وتقبلت النصرانية الأفكار الوثنية الغريبة، وانتهيت من البحث، وأنا أدرك أن التنصير الحديث الذي تدعمه قوى الاستعمار اليوم، ويجد له أتباعاً في كثير من بقاع الأرض، إنما يعتمد النصرانية المحرفة، فهو لا يمت للنصرانية الأولى بصلة.

ولست أدعي أنني أول من كتب في عقائد النصارى، فقد كتب من قبلي علماؤنا السابقون، وردّوا على النصرانية، وبينوا زيف عقائدها الدخيلة. ولكن الكتابات السابقة اهتمت ببيان مخالفة هذه العقائد للنقل والعقل، وبيان الفرق النصرانية التي كانت معروفة في زمنهم، وبقيت الحاجة قائمة لبيان تاريخ الانحراف ونشأته ومصادره.

كما ينقص الكتب السابقة أنها لم تطلع على كتب النصارى أنفسهم، فكانت بحاجة إلى أدلة من كلام القوم واعترافاتهم.

هذا وقد جعلت عنوان موضوعي هذا (التوحيد في النصرانية وما أصابه من تحريف) ثم اختصرته إلى (النصرانية من التوحيد إلى التثليث).

وقد اشتمل على مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة.

أشرت في المقدمة إلى أهمية الموضوع وسبب اختياري له. ثم كانت الخطة كالآتي:

الفصل التمهيدي:

ويشمل ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: معنى الدين ونشأته.

بينت فيه معنى الدين في اللغة وفي الاصطلاح القرآني، ثم بحثت في نشأة الدين عند الإنسان وعرضت أفكار القائلين بتطور العقيدة الدينية، وقمت بالرد عليهم مشيراً لآراء الباحثين الذين أثبتوا فطرية التوحيد وأصالته.

المبحث الثاني: البيئة التي نشأ بها المسيح عليه السلام.

فألقيت نظرة على البيئة الخاصة للسيد المسيح عليه السلام، وهي البيئة اليهودية. بينت فيها الأفكار الدينية السائدة في المجتمع اليهودي آنذاك.

المبحث الثالث: الأصول اليهودية للمسيحية، وكيف نشأ الافتراق بينهما.

الفصل الأول: (دين الله واحد).

ويشمل ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تاريخ عقيدة التوحيد في القرآن الكريم.

بينت فيه أن القرآن الكريم أشار إلى أن البشرية قد بدأت موحدة، وجئت بالأحاديث الشريفة المؤيدة لذلك.

المبحث الثاني: التوحيد عقيدة الرسالات السماوية.

ذكرت فيه نصوصاً من القرآن الكريم، بينت أن رسل الله جميعاً جاءوا بالتوحيد ثم ذكرت نصوصاً من الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث تؤكد صراحةً هذه الحقيقة.

المبحث الثالث: دعوة المسيح الحقيقية.

وقد جعلت القرآن الكريم، المصدر الأساسي لبيان تلك الدعوة، وقدمت لذلك أدلة تؤكد ثبوت القرآن الكريم، واتصال سنده وهذا لم يتهيأ لغيره من الكتب المقدسة.

كما بينت في هذا المبحث أسس دعوة المسيح عليه السلام وميزاتها، وأتيت لكل ميزة بأدلة من القرآن الكريم ومن الأناجيل.

الفصل الثاني: (مصادر الانحراف عن التوحيد في النصرانية).

واشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العوامل العقلية الدينية السياسية.

وأعني بذلك بيان أثر الفلسفة الوثنية التي كانت تسود المجتمع الروماني في تلك الفترة. بينت فيه أثر الفلسفة الإغريقية، وغيرها من الفلسفات، على النصرانية حيث كانت هذه الفلسفات قد عرفت عقيدة التثليث من قبل، واقتبستها من الوثنيات السابقة، وقد ساعد هذين العاملين (الفلسفة والوثنية) عامل سياسي أقام عقيدة التثليث بقوة سلطانه، ذلك هو الدولة الرومانية التي اعتنقت النصرانية، وأدى ذلك إلى تسرب الأفكار الوثنية الفلسفية السائدة فيها إلى صلب العقيدة النصرانية.

المبحث الثاني: أثر اليهود في الانحراف.

وبينت في هذا المبحث قصة اليهود مع النصرانية منذ نشأتها، وكيف حاول اليهود تحريف النصرانية من البداية، فظهر منهم القديس (بولس)، الذي أعلن تنصره، واستطاع أن ينفذ إلى أعماق النصرانية، ليصبح المؤسس الحقيقي لها، وواضع لاهوتها وأركانها.

كما بينت أن اليهود ما زالوا يحاولون تحريف العقائد النصرانية، وكانت آخر محاولاتهم في الستينات من هذا القرن، في قضية الصلب، محاولين تبرئة اليهود منها.

المبحث الثالث: أثر رجال الكنيسة في الانحراف.

ذكرت فيه أن المسيح عليه السلام لم ينشىء كنيسة، ولم يأمر بإنشائها، وأن نظام الكنيسة، وسلطة رجل الدين، لم يظهر واضحاً إلاّ من بداية القرن الرابع الميلادي.

وانتقلت بعد ذلك للحديث عن المجامع التي كان لها أكبر الأثر في وضع العقائد المسيحية الحاضرة، وقد ظهر من خلال هذه المجامع أثر رجال الدين في إقرار الانحراف وشيوعه وفرضه على النصارى.

وقادني الحديث عن هذه المجامع إلى الحديث عن الحركة الأريوسية بصفتها أكبر حركة معارضة في تاريخ المسيحية؛ حيث رفضت الانقياد لقرارات المجامع المنحرفة.

الفصل الثالث: (التثليث وألوهية المسيح عند النصارى).

ويتألف هذا الفصل من ثمانية مباحث:

المبحث الأول: نشأة التثليث عند النصارى.

بينت فيه متى اكتملت عقيدة التثليث وفرضت على النصارى ثم ذكرت قانون الأمانة الذي وضع في مجمعي نيقية سنة ٣٢٥م والقسطنطينية سنة ٣٨١م.

المبحث الثاني: اختلاف النصارى وآراؤهم حول طبيعة المسيح عليه السلام.

تعرضت فيه للحديث عن الفرق النصرانية القديمة، وأهم الاختلافات بينها، ثم إلى الفرق الحديثة التي نشأت عنها.

المبحث الثالث: معنى الأقانيم والثالوث عند النصارى.

وقدمت لهذا المبحث اعترافات بعض النصارى بمصادمة هذه العقائد للعقل السليم، ثم بينت معنى الأقانيم، والثالوث، والمراد بهما في عقيدة النصارى، كل ذلك بسطته من كتب النصارى ورسائلهم.

المبحث الرابع: التثليث في الكتاب المقدس.

بينت فيه أن الكتاب المقدس يخلو من لفظ الثالوث أو الأقانيم، وقمت بالرد على بعض النصوص التي يعتبرها النصارى أدلة من الكتاب المقدس على الثالوث.

المبحث الخامس: فكرة ألوهية المسيح ومنشؤها.

ذكرت فيه بعض أدلتهم على ألوهية المسيح عليه السلام، وقمت بالرد عليها.

المبحث السادس: ألوهية الروح القدس.

ذكرت أدلتهم على ألوهية الروح القدس، والرد على ذلك، وبينت المعنى الحقيقي للروح القدس الذي بشر به المسيح عليه السلام.

المبحث السابع: بطلان عقيدة التثليث.

بعد أن ثبت أن عقيدة التثليث لا أساس لها في الكتب المقدسة، أوضحت أن العقل أيضاً لا يستسيغ هذه العقيدة، وبينت بطلانها من الوجهة العقلية.

المبحث الثامن: الرد على أزلية المسيح وبُنُوَّته.

بينت فيه معنى الكلمة، ومعنى البنوة اللذين استدل بهما النصارى على أزلية السيد المسيح وبنوته.

الفصل الرابع: (الأدلة الإنجيلية على أن عيسى عبد الله ورسوله) وفيه مبحثان:

المبحث الأول: رسالة عيسى عليه السلام، وعبوديته في أسفار العهد الجديد.

ذكرت فيه بعض النصوص الدالة على ذلك من الأناجيل الأربعة، ورسائل الرسل.

المبحث الثاني: إنجيل برنابا، وأدلته على بشرية المسيح، ورسالته.

ويتكون هذا المبحث من قسمين:

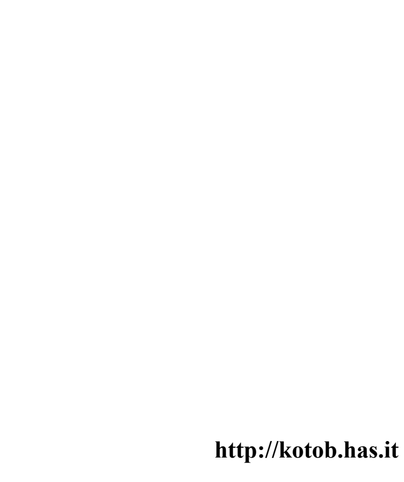
القسم الأول: ترجمة لحياة برنابا، وإثبات نسبة هذا الإنجيل إليه.

القسم الثاني: أدلة هذا الإنجيل على بشرية المسيح، ورسالته.

ثم وضعت **خاتمة البحث**، وضمنتها نتيجة هذه الرحلة، وتأييد بعض الباحثين الغربيين لهذه النتيجة.

هذا وإنني في نهاية المطاف أحمد الله تعالى الذي أعانني على إتمام هذا البحث، وأستغفره من أي تقصير أو خطأ وقعت به، وأسأله تعالى: أن يجعل جهدنا هذا لوجهه الكريم.

د. محمد أحمد الحاج



الفَصْلُ التَّمْهِيدِيّ

المبحث الأول : معنى الدين ونشأته.

المبحث الثاني : البيئة التي نشأ بها المسيح عليه السلام (الخاصة والعامة).

المبحث الثالث : الأصول اليهودية للمسيحية.

المبحث الأوّل

معنى الدّين ونشأته

معنى الدين في اللغة:

للدين في اللغة معان شتّى، ذكرها اللغويون. قال (ابن منظور): الديّان: من أسماء الله عز وجل، معناه الحكم القاضي.

والديّان: القهار، ومنه قول ذي الإصبع العدواني:

لاه ابن عمِّك لا أفضلت في حسب   فينا ولا أنت ديّاني فتخزوني

أي: لست بقاهر لي فتسوس أمري.

والديّان فعّال من دان الناس، أي: قهرهم على الطاعة، يقال: دنتهم فدانوا أي قهرتهم فأطاعوا، ومنه شعر الأعشى الحرمازي، يخاطب سيدنا رسول الله ﷺ: يا سيِّد الناس وديّان العرب. وتداين القوم وادّاينوا: أخذوا بالدين، وأدنت الرجل إذا أقرضته. ويوم الدين يوم الجزاء، وفي المثل: (كما تدين تدان)، أي: كما تجازي تجازى بفعلك.

والدين الطاعة، وقد دنت له، أي: أطعته، والجمع الأديان.

والدين العادة والشأن، تقول العرب: ما زال ذلك ديني ودَيْدني، أي: عادتي.

قال (ابن الأعرابي): دان الرجل إذا عزَّ ودان إذا ذلَّ، ودان إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا اعتاد خيراً أو شراً، ودان إذا أصابه الدين، ودنت الرجل خدمته، وأحسنت إليه، والدين الذل، والمدين العبد، والمدينة الأمَة المملوكة كأنهما أذلهما العمل.

ودنته أدينه ديناً: سِسْتُه، ودنته ملكته. والدين: الحال، ومنه قول النضر بن شميل: سألت أعرابياً عن شيء فقال: لو لقيتني على دين غير هذا لأخبرتك[1].

قال (أحمد بن فارس): الدال والياء والنون أصل واحد إليه يرجع مرجوعه كلها، وهو جنس من الانقياد والذل، فالدين الطاعة، يقال: دان له يدين ديناً: إذا أصحب وانقاد وطاع، وقوم دين أي مطيعون... قال أبو زيد: إن الرجل يدان: إذا حمل عليه ما يكره. ومن هذا الباب الدّين[2].

فالعرب استعملوا هذه الكلمة بهذه المعاني كلها، ولعل هذه اللفظة في اللغة العربية من أعمق الكلمات وأثراها بالمعاني المتعددة التي تشتمل كثيراً من جوانب الحياة، ومما مضى نرى أنها ذات صلة وثيقة بالمعاني الآتية: الحكم والقهر، والطاعة والمعصية، والعزة والذل، والحساب والسلطان، والملك والعادة، والملة والورع، والحال والقضاء، والجزاء والانقياد، والقرض والسياسة.

وبتصفح هذه المعاني الجمَّة يبدو لنا: أن بعضها يحمل عَلاقةَ التضاد مع البعض الآخر. لكن الدكتور (محمد عبد الله دراز) قال بأن لهذه الكلمة ثلاث حالات، فهي تارة تؤخذ من فعل متعد بنفسه (دانه يدينه)، وتارة من فعل متعد باللام (دان له)، وتارة من فعل متعد بالباء (دان به)، وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة التي تعطيها الصيغة[3].

ثم ذكر الدكتور (دراز) هذه الحالات الثلاث مع المعنى الذي تعطيه الكلمة في كل حالة:

١ ــ إذا قلنا: (دانه ديناً)، عنينا بذلك أنه ملكه، وحكمه، وساسه، ودبَّره، وقهره واغتصبه وقضى في شأنه وجازاه، فالدين في هذا الاستعمال يدور في معنى الملك بالتصرف بما هو من شأن الملوك.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ١٧/ ٢٤ ــ ٢٨.

(٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس. تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

(٣) الدين، دراز: ص ٢٦.

٢ ــ وإذا قلنا: (دان له)، أردنا أنه أطاعه وخضع له، فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة والورع.

والمعنى الثاني ملازم للأول (دانه فدان له)، أي: قهره على الطاعة فخضع له.

٣ ــ إذا قلنا: (دان بالشيء) كان معناه أنه اتخذه ديناً ومذهباً، أي: اعتقده أو اعتاده أو تخلق به، فالدين هنا: هو المذهب والطريقة، وهذا الاستعمال خاضع للاستعمالين لأن العادة أو العقيدة التي يدان بها، لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ويلتزم اتباعها[١].

معنى الدين في الاصطلاح القرآني:

إن المتتبع للآيات القرآنية التي استعملت كلمة (دين) يرى أن القرآن الكريم قد استعمل الكلمة بكل معانيها السابقة.

وقد لخص الأستاذ (المودودي) ــ رحمه الله ــ المعاني اللغوية لهذه الكلمة بأربعة معان هي:

١ ــ القهر والسلطة والحكم والإكراه على الطاعة.

٢ ــ الإطاعة والعَبَدِيَّة والخدمة وقبول الذلة والخضوع.

٣ ــ الشرع والقانون والطريقة والمذهب والملَّة والعادة والتقليد.

٤ ــ الجزاء والمكافأة والقضاء والحساب[٢].

ثم بين استعمال القرآن الكريم لهذه المعاني فقال:

---

(١) الدين، دراز: ص ٢٦.

(٢) المصطلحات الأربعة في القرآن، أبو الأعلى المودودي: ص ١١٦ ــ ١١٨، تعريب: محمد كاظم سبّاق، دار القلم ــ الكويت، الطبعة السادسة، ١٣٩٧هـ.

(أ) الدين بالمعنيين الأول والثاني:

قوله تعالى: ﴿هو الحي لا إله إلَّا هو فادعوه مخلصين له الدين﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص﴾[2].

(ب) بالمعنى الثالث:

قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تدعون من دون الله، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونَنَّ من المشركين﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إنِ الحكمُ إلَّا لله أمر أن لا تعبدوا إلَّا إياه ذلك الدين القيِّم ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾[5].

(ج) بالمعنى الرابع:

قوله تعالى: ﴿إنَّ ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين، ثم ما أدراك ما يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾[7].

ثم ذكر الأستاذ (المودودي): أن القرآن الكريم استعمل كلمة (الدين) بمعنى جامع شامل، يراد به نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها الاعتقادية والفكرية والخلقية والعملية. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٥.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣.

(٣) سورة يونس: الآيتان ١٠٤، ١٠٥.

(٤) سورة يوسف: الآية ٤٠.

(٥) سورة الكافرون: الآية ٦.

(٦) سورة الذاريات: الآيتان ٥، ٦.

(٧) سورة الانفطار: الآيات ١٧ ــ ١٩.

الآخر ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(٢).

وقوله: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه﴾(٣).

هذا ما ذكره الأستاذ المودودي حول استعمال القرآن الكريم لكلمة (الدين).

ولعل هذا المعنى الجامع الشامل لمفهوم الدين، تستطيع أن تعبِّر عنه هذه اللفظة العربية الغنية بالمعاني الجمَّة، ولا تستطيع الكلمة المقابلة لها في اللغات الأخرى أن تعطي هذه المعاني الكثيرة، فكلمة الدين العربية يستعملها القرآن الكريم لتكون بمعنى النظام الذي يشمل نواحي الحياة كلها، ولا أرى كلمة (Religion) الإنجليزية تستطيع أن تعطي هذا المفهوم، فإن الكلمة الإنجليزية إذا أطلقت انصرف الذهن إلى العبادة فقط.



(١) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

نشـأة الدِّيـن

لقد فطر الله النفس البشـرية على معـرفة الله والإيمـان به، وجـاء الدين يلبـي هذه الفطرة. والشعور الداخلي عند الإنسان بحـاجته لتلبيـة هذه الفـطرة أمر يُجمـع عليـه النـاس كلهم من بـدايـة خلق الإنسـان إلى يـومنـا هـذا، ولكن الفـطرة كثيـراً مـا انحرفت، فنشـأت أفكار وتصـورات وعبادات كثيـرة لا حصر لهـا، وكانت مهمـة الرسل عليهم السلام تصحيح الانحراف والرجوع بالفطرة إلى سلامتها وأصلها.

فالتدين أمر فطري في النفس البشـرية (ولقـد أجمع مؤرخـو الأديان على أنـه ليست هناك جماعة إنسانية أو أمة كبيـرة ظهرت وعـاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثـه ودون أن يكون لهـا فيه رأي سواء أكان يقيناً أم ظناً)(١).

لكن القضية التي دار حولها الخلاف في هذا الموضوع بين الباحثين هي نشأة الـدين، كيف نشأت هـذه الفكـرة؟ ومتى نشـأت؟ وهـل اهتـدى الإنسـان إلى هـذه العقيدة من يومه الأول أم أنه توصل إليها في مرحلة متأخرة؟

وهل كانت بداية التدين أوهاماً وخرافات، ثم بدأت بالتطور حتى اهتـدت إلى عقيدة التوحيد الصحيحة؟ أو أن التوحيد كان منبعَها وأساسَها منذ البداية؟

حـول هذا المـوضـوع ظهـرت أفكـار ونـظريـات سنحـاول في هـذا الفصـل التمهيدي أن نكشف الستار عنها بشيء من الإيجاز.

وقبل بيان هـذه المذاهب لا بـد من الإشارة إلى أن معـظم الباحثين في هـذا الموضوع قد أخطأوا في طريقة البحث التي سلكـوها (وجمهـور الباحثين لا يـطلبون

---

(١) الدين، محمد عبد الله دراز: ص ١١١.

من بحثهم الوقوف على الأسباب العامة التي تتيسَّر دراستها ويمكن التحقق منها في كل عصر، بل يفهمون من كلمة ــ نشأة الدين ــ الصورة التي ظهرت فيها الأديان أوَّل ما ظهرت في الوجود، فالأوَّليَّة التي يريدون تقريرها زمانيَّة مطلقة تقترن بظهور الإنسان على هذا الكوكب، والمنهج الذي يسلكونه للوصول إلى هذا المطلب هو: التنقيب عن أديان الأمم القديمة أو المعاصرة غير المتحضرة حتى إذا ما انتهى بهم السير في تلك العصور المظلمة إلى أقدم مظهر معروف من مظاهر التفكير الديني اعتبروه صورة مطابقة لما كان عليه الإنسان الأول)[1].

فهؤلاء الباحثون أرادوا أن يتوصلوا إلى الزمن الذي بدأ به الإنسان يفكر بقضيَّة التدين، وذلك عن طريق البحث في أديان الأمم البدائية غير المتحضرة، القديمة منها والحديثة.

(والإنسانية الأولى استطاعت أن تحفظ لنا صوراً من حياتها في قبائل متعددة منتشرة في أوستراليا وأمريكا وإفريقيا وآسيا، ونفر العلماء من مختلف الدوائر إلى دراسة تلك الوثائق وتمحيصها، وإلى بحث حياة أطفال الأرض الأوَّلين هؤلاء، لتحديد الدين الأول في نقائه وروعته، فظهرت نظريات ومذاهب منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى الآن تحاول تحديد تلك الصورة)[2].

وظهرت في الموضوع فكرتان رئيستان متناقضتان هما:

١ ــ فكرة فطرية التوحيد وأصالته.

٢ ــ فكرة التطوُّر.

١ ــ فكرة فطريَّة التوحيد:

أصحاب الفكرة الأولى توصلوا إلى أن عقيدة الإلَه الأعلى هي أقدم ديانة ظهرت عند البشر، وسمّوا نظريتهم (فطرية التوحيد وأصالته)، وانتصر لهذا الرأي جمهور من علماء الأجناس وعلماء النفس، ومن أشهر مشاهيرهم (لانج) الذي أثبت

---

(١) الدين، دراز: ص ١١١.

(٢) نشأة الدين، علي سامي النشار: ص ١، دار نشر الثقافة، الإسكندرية ١٩٤٩م.

وجود عقيدة الإِلَه الأعلى عند القبائل الهمجية في أوستراليا وإفريقيا وأمريكا[1].

لقد توصل (لانج) إلى فكرة أصالة التوحيد عند الإنسان، وأنه العقيدة الأولى عن طريق بحوثه واكتشافاته، وهو يقول: (إن الإنسانية عاشت فترة في حياة دينية مليئة بأسمى المعاني، ولكن تحلُّلاً قد حدث بعد ذلك في عهد من العهود البدائية)[2].

وكأن (لانج) بهذا القول يرد على القائلين بفكرة التطور، وأن التوحيد جاء مرحلة متأخرة، وقد توصلوا إلى ذلك أيضاً عن طريق اكتشاف بعض القبائل البدائية التي عبدت الأسلاف وبعض الظواهر الطبيعية، يرد عليهم بأن اكتشافاتهم تلك إنما كانت لأمم قد تحللت وانحرفت عن عقيدتها الأصلية عقيدة التوحيد.

(ووافق (لانج) كثير من الباحثين الذين قدَّموا أبحاثاً متعددة عن أقدم القبائل في أمريكا الشمالية وأواسط إفريقيا، وأثبتوا وجود فكرة الإِلَه الأسمى عندهم)[3]. (كما وافقه بروكلمان الذي أثبت الفكرة عند الساميين قبل الإسلام)[4].

لقد وجد هؤلاء الباحثون فكرة (الله) لدى كافة المجتمعات البدائية وأنكروا نظرية التطور مستندين على بحث واقعي من أدق الأبحاث، دعموه بوثائق ممتازة عن الحياة البدائية الأولى، وقام بحثهم على الواقع من ناحية، وعلى ما ندركه في نفوسنا من ناحية أخرى نحو الفكرة النبيلة (الله)[5].

٢ ـ المذهب التطوري:

وملخص الفكرة الأولى التي نشأ عنها المذهب التطوري، أن الدين بدأ بصورة ساذجة هي صورة الخرافة والوثنية، وأخذ الإنسان يترقى في دينه على مدى

---

(١) الدين، دراز: ص ١١٣.

(٢) نشأة الدين، النشار: ص ١٨٨.

(٣) نفس المرجع: ص ١٩٧.

(٤) الدين، دراز: ص ١١٣.

(٥) نشأة الدين، النشار: ص ٣. وقوله: «فكرة الله» اصطلاح للنشار والصواب: «حقيقة».

الأجيال، حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد، كما تدرَّج نحو الكمال في علومه وصناعاته.

وهذه النظرية نادى بها أنصار مذهب (التطور التقدمي) الذي ساد أوروبا في القرن التاسع عشر في أكثر من فرع من فروع العلوم، وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من الباحثين منهم: (سبنسر) و (تايلور) و (فريزر) و (دوركهايم)[1].

والتطوريون حلّوا المشكلة في ضوء تحليلهم لتطور الحياة الإنسانية نفسها من الأدنى إلى الأسمى.

وينقسم التطوريون كما يقول الدكتور (النشار)[2] إلى قسمين مختلفين: الأول: القائلون بفردية الدين. والثاني: القائلون بجميعة الدين. وأهم نظريات الفريق الأول (نظرية الحيوية، والنظرية الطبيعية). وكل نظرية نشأ عنها مذهب خاص.

١ ـ المذهب الحيوي:

وينسب إلى (تايلور) و (سبنسر) وقد ذهبا إلى أن أقدم دين في الوجود هو الاعتقاد في الأرواح وعبادتها، وأولى الآلهة عندهم الأسلاف. ونشأت هذه الفكرة على رأي (تايلور) عن اعتقاد الإنسان البدائي في الحياة المزدوجة بين يقظته ونومه، ومن ذلك ثبت للبدائي أن فيه كائناً آخر غير الجسم يستطيع في ظروف معينة، أن يترك الجسم ويبتعد عنه، فاعتقدوا للنفس قوة عجيبة، تستطيع الاتصال بأجسامها وتؤثر عليها بالضرر والنفع، ولا يستطيع الإنسان أن يتصل بها إلَّا بمراعاته لطقوس خاصة، ولما كان الموت هو بداية تحويل هذه النفس إلى روح مقدسة فإن أول عبادة إنسانية إنما اتجهت إلى الموتى، إلى نفوس الأسلاف[3].

هذا المذهب الذي قال بأن عبادة الأسلاف هي العقيدة الأولى التي ظهرت

---

(١) الدين، دراز: ص ١١٣.

(٢) نشأة الدين، النشار: ص ٢، ٣.

(٣) نشأة الدين، النشار: ص ٣٣، ٣٨.

في الوجود، ردَّ عليه كثير من الباحثين، (وقد رد عليه (دوركهايم) بأن اعتقاد الإنسان الأول ببقاء الأرواح لا يكفي لنشوء عقيدة دينية، لأن عبادة الأسلاف وجدت عند الأمم البدائية بجانب عبادة أشياء أخرى، بل بعض الأمم لم تعبد الأسلاف فلم يكف هذا لتفسير نشأة العقيدة)[1].

٢ ـ المذهب الطبيعي:

قام بعرض هذا المذهب عالمان هما: (ماكس موللر ١٨٥٦م) و(كوهن ١٨٥٩م) ويمثل (موللر) على الخصوص المذهب الطبيعي في كماله وأوجه.

ويتلخص هذا المذهب: (في أن الدين قام على تجربة استمد منها سلطانه فلا شيء يتكوَّن في عقيدة الإنسان لما لم يكن قد أتى من قبل حواسّه وأن الظواهر الطبيعية المتغيرة التي تحيط بالإنسان وتثير فيه مختلف المشاعر كافية لأن تثير الفكرة الدينية فكانت الطبيعة عندهم الدهشة العظمى والفزع الأكبر)[2]. فالإنسان البدائي عندما نشأ وجد نفسه ضعيفاً بين الظواهر الكونية المختلفة، كالشمس والقمر والنجوم والريح والصواعق والبحار والأنهار وغيرها، فاعتقد أن باستطاعتها أن تنفعه أو تضره فأخذ يتقرب إليها ويقدِّم لها سائر أنواع العبادات دفعاً لشرِّها.

وبذلك يكون الدين على رأي هؤلاء قد نشأ عن تأملات للطبيعة أثارت مشاعر وإحساسات معينة.

(وقد رد (دوركهايم) على هذا المذهب بأن الخوف لا يصلح سبباً لنشوء العقيدة، لأنه مع الزمن يألف الإنسان هذه الأشياء بتكررها على نسق واحد ويذهب خوفه منها ويترك التقرب إليها)[3].

٣ ـ المذهب التوتمي:

(وأصحابه هم القائلون بجمعية الدين، الذين تمثلهم المدرسة الفرنسية الاجتماعية في أوائل القرن العشرين، وقد راعتهم فكرة العقل الجمعي ورأوا فيها

---

(١) الدين، دراز: ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) نشأة الدين، النشار: ص ٦٩ ـ ٧٣.

(٣) الدين، دراز: ص ١١٩ ـ ١٣٢.

رمز الدين أو بمعنى أدق ذهبوا إلى أن الدين رمز لها وعلم على وحدتها)[1].

وأبرزُ أصحاب هذا المذهب (دوركهايم) الذي اعتبر التوتمية أقدم ديانة على الإطلاق.

والتوتم عبارة عن رمز تتخذه العشيرة شعاراً لوحدتها وقوتها، وتعتقد أنه جدها الأعلى ومنه تناسلت، فتقدس العشيرة هذا التوتم، وقد يكون هذا التوتم جماداً أو نباتاً أو حيواناً.

(ولم تظهر كلمة توتم كمصطلح في علم الأجناس إلَّا في أواخر القرن الثامن عشر. . وأخيراً اكتشف (جلين) و (سبنسر) خلال أبحاثهما في وسط أوستراليا عدداً من القبائل يدينون بالتوتمية)[2].

(وقد رد كل من (لانج) و (فريزر) و (شميث) و (تايلور) على هذا المذهب بأن هذا التوتم لا يصلح كمبدأ للعقيدة، لأنه من خلال الأبحاث الكثيرة تبيَّن أن هناك أُمماً بدائية كانت تعبد مع التوتم آلهة أخرى وربما لم تعبد التوتم إطلاقاً وإن كان رمزاً لها)[3].

والملاحظ أن: (التوتمية عقائد خاصة ضيِّقة، لا تتناول سوى الرمز التوتمي من النبات أو الحيوان الذي تشير إليه الرموز، ثم أفراد العشيرة، وهذه لا يمكن أن تشكل ديناً، لأن الدين الحقيقي هو ما حاول الإحاطة بالكون كله. . وتلك هي المحاولة التي أرادها (دوركهايم) حين أراد أن يجعل من التوتمية مذهباً في الوجود، وهو بهذا يشبِّه التوتمية بأي دين آخر من الأديان التي قامت بهذا العمل)[4].

(والغريب الذي نلاحظه أن (دوركهايم) الذي أنكر على المذهب الحيوي اعتباره فكرة عبادة النفوس فلسفة البدائي الأول، وحاول أن يسلب عن البدائي

---

(١) نشأة الدين، النشار: ص ٣.
(٢) المرجع السابق: ص ٩٢، ٩٤.
(٣) الدين، دراز: ص ١٥٩ ـ ١٦٥.
(٤) نشأة الدين، النشار: ص ١٢٦.

القدرة على التأمُّل النظري، نراه هو نفسه يعود إلى اعتبار التوتمية فلسفة وجودية ينبثق عنها أعظم تفكير)[1].

هذه خلاصة مذاهب نظرية التطوُّر، أوردناها بإيجاز كما أوردنا الرد عليها موجزاً من كلامهم أنفسهم كما ردَّ بعضهم على بعض.

وقبل أن نبدأ بالرد على هذه النظرية، وتفنيد مزاعم القائلين بها، لا بد لنا من الإشارة إلى أن كثيراً من المسلمين قد تأثروا بها، ووضعوا كتباً يؤيدون فيها فكرة التطوُّر هذه، ومن هؤلاء عباس محمود العقّاد، ويظهر ذلك واضحاً في كتابه الذي سمّاه (الله) فقد افتتح الكتاب بالعبارة التالية:

(ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلوم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات)[2].

وتحت عنوان (أطوار العقيدة الإلَهية) بحث الأستاذ العقاد موضوع نشأة الدين، وأورد ما قاله أصحاب المذهب التطوري من أن البشرية مرت في اعتقادها بثلاثة أطوار هي: التعدد، والتمييز والترجيح، والوحدانية)[3].

فاعتبر التوحيد نهاية هذه الأدوار، متأخراً عنها، وهو يقول: (أما التوحيد فهو نهاية تلك الأطوار كافة في جميع الحضارات الكبرى)[4].

والأستاذ العقاد بعد سرده لرأي التطوريين من علماء مقابلة الأديان يثبت هذا الرأي فيقول: (فالتطور في الديانات محقق لا شك فيه، ولكن لم يكن على سلّم واحد متعاقب الدرجات)[5].

---

(١) نشأة الدين، النشار: ص ١٢٧.
(٢) الله، عباس محمود العقاد: ص ١٣، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة، ١٩٧٦م.
(٣) الله، العقاد: ص ٢٨.
(٤) نفس المرجع: ص ٣٢.
(٥) نفس المرجع: ص ٣٢.

كما قرر في نهاية الأمر رأي التطوريين، فأثبت: أن عبادة الظواهر الطبيعية كانت سابقة لعبادة الإلَه الأعلى، فقال: بأن عبادة الشمس كانت الخطوة السابقة لعباة الإلَه الأعلى، فقال: (ولنا أن نقول: إن ديانة الشمس كانت هي القنطرة الكبرى بين عُدْوة التعديد وعُدْوة التوحيد)[1].

ويحاول العقاد: أن يستدل لصحة ما ذهب إليه من القرآن الكريم، فبعد أن يذكر: أن ديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد يقول: (وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فلما جَنَّ عليه اللّيلُ رأى كوكباً قال: هذا ربي!! فلما أفلَ قال: لا أحبُّ الآفلين، فلما رأى القمرَ بازِغاً، قال: هذا ربي، فلما أفل، قال لئن لم يهدِني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين، فلما رأى الشمسَ بازغَةً، قال: هذا ربي، هذا أكبر فلما أفلت، قال: يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[2].

واستدلال العقاد لهذه الآية في هذا الموضع مخالف للمعنى الصحيح لها، فليس صحيحاً أن إبراهيم كان محتاراً منذ البداية في الاهتداء إلى الحق، وأنه كان يريد أن يصل إلى حقيقة يجهلها ففكر ونظر، وعبد الكوكب، ثم القمر، ثم الشمس، واهتدى أخيراً إلى عبادة الإلَه الواحد الأحد، ذلك لأن إبراهيم عليه السلام نبي من أنبياء الله، معصوم عن أن يشرك بالله (وغير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلَّا وهو لله تعالى موحِّد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله! وآتاه رشده من قبل! وأراه ملكوته ليكون من الموقنين! ولا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عَرَفَ الرب أول النظر)[3].

---

(١) الله، العقاد: ص ٣٩.

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٧٦ ــ ٧٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٧/٢٥، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ــ القاهرة، ١٣٨٧هـ.

ثم يبين القرطبي: أن هذا المعنى قد رد عليه علماء اللغة، (قال الزجاج: هذا الجواب عندي خطأ، وغلط ممن قاله، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿واجْنُبني وبَنيّ أن نعبد الأصنام﴾[1]، وقال جل وعزّ: ﴿إذ جاء ربَّه بقلب سليم﴾[2]، أي لم يشرك به قط)[3].

وسياق الآيات يدل على أن إبراهيم عليه السلام، كان يريد أن يقدم الدليل المحسّ لقومه على بطلان عقيدة الشرك التي كانوا يمارسونها، فاتبع أسلوب الاستدراج هذا كوسيلة من وسائل الإقناع.

يقول القرطبي: قال الزجاج: (والجواب عندي أنه قال: «هذا ربي» على قولكم، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أين شركائي﴾ وهو جلّ وعَلا واحد لا شريك له، والمعنى أين شركائي على قولكم)[4].

والمفسرون ذكروا لهذه الآية معاني كثيرة غير هذا المعنى منها: أن قوله: ﴿هذا ربي﴾ (على معنى الاستفهام والتوبيخ منكراً لفعلهم، والمعنى: أهذا ربي؟ ومثل هذا يكون رباً؟ فحذف الهمزة، وفي التنزيل: ﴿أفإن متّ فهم الخالدون﴾[5] أي أفهَمُ الخالدون)[6].

وبذلك يظهر لنا جلياً: أن استدلال العقاد بهذه الآية باطل من أساسه، لأنه حاول أن يستدل على أمر باطل أصلاً، ومخالف لمفهوم الإسلام في تاريخ الدين، فدين الله الذي نادى بعقيدة التوحيد، عرفته البشرية منذ بدايتها على يد أبيها الأول آدم عليه السلام.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

(٢) سورة الصافات: الآية ٨٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي: ٧/ ٢٠ ــ ٢٦.

(٤) نفس المصدر: ص ٢٦.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

(٦) تفسير القرطبي: ٧/ ٢٦.

نقد المذهب التطوري:

بالإضافة إلى بطلان هذا المذهب من الناحية الدينية ومخالفته لما أجمعت عليه الرسالات السماوية، فإننا نستطيع مناقشته من عِدَّة وجوه هي:

* الوجه الأول:

(إن وضع المسألة على هذا الوجه، ومحاولة حلّها عن هذا الطريق، ينطوي على خطأ مزدوج: خطأ في الغاية، وخطأ في الوسيلة، فالغاية التي يهدف إليها هذا البحث، وهي تحديد أصل العقيدة ومظهرها في أول الأزمنة خاطئة، لأن هذه المنطقة البدائية قد اعتبرها العلم شقة حراماً، حظرها على نفسه.. ومؤرخو الديانات على الخصوص يعترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري، وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تاماً، فلا سبيل للخوض فيها إلاَّ بضرب من التكهن والرجم بالغيب)[1].

وكذلك الحال بالنسبة للوسيلة، والمنهج الذي اعتبروه طريقاً للاستدلال، فقد استدلوا على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة، وهذا أيضاً منهج خاطىء لأنه مبني على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التي وصل إليها بحثهم، وأنها لم تمر بأدوار متقلبة، وهو افتراض لم يقم عليه دليل، بل الذي أثبته التاريخ، واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية، هو أن فترات الركود التي سبقت مدنياتها الحاضرة، كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة، قامت على أنقاض مدنيات بائدة في أدوار تتعاقب على البشرية، كتعاقب العصور، بحيث لا نستطيع أن نقطع بأيهما بدأت دورة الزمان، وعلى ذلك يمكن أن تكون الخرافات القديمة نتيجة تحلل وتحريفٍ لديانة صحيحة سابقة، ولقد أنصف العلامة (هوفدنج) حين قال: (إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل مشكلة

---

(١) الدين، دراز: ص ١١٣.

بـزوغ الـدين في النـوع الإنسـاني، فـإن التـاريـخ لا يصـوِّر لنـا هـذه البـدايـة في موضع ما)[2].

*** الوجـه الثـاني:**

المذهب التطوري يذهب إلى قياس الأديـان على الفنون والصنـاعات، وكمـا أن الإنسان ينتقل في نموّه البدني من الضعف إلى القـوَّة.. فقد يلوح أيضـاً أنه بـدأ حياته الروحية بـالسخف والخرافـة، ولم يصل إلى العقيـدة الصحيحة إلاَّ بعـد جهد وعنـاء. وهذا قيـاس بعيد لأنـه ليس من المسلم به أن حيـاة النـاس الـروحيـة تسيـر ملازمة دائماً لحياتهم المادية، وكما يقول الدكتور دراز: (بـل من الممكن أن تكون قنـاعة الإنسـان في بدايتـه بكهفٍ يأويـه، وجلد حيوانٍ يستـره، وشيءٍ من الأعشاب يدفع مَخْمَصَتَه، وقلة مشاغله الدنيويـة من الممكن أن تكون هـذه كلها، قـد تركت في نفسه فراغاً عميقاً للتأملات التي تـرهف حاستـه الدينيـة)[1]. هذا ولم يقـل أحد من علماء النفس: إن الأفكار السامية لا تنمو إلاَّ في ظل الترف والرخاء.

*** الوجـه الثـالث:**

إن التاريخ نفسـه يفند هـذه النظريـة، إذ كان إبـراهيم عليه السـلام وهو قبـل المسيح بألفين وخمسمائة سنة على عقيدة التوحيد الخالص، وأكبر دعاتها، ولا يزال يـوجد اليـوم بعد ألفي سنـة من المسيح عشـرات الملايين من بني آدم على عقيـدة الشرك، فهل هذا دليل على الارتقاء التاريخي وتطور عقيدة التوحيد[2]؟

---

(١) نفس المرجع: ص ١١٤.

(٢) الدين، دراز: ص ١١٥.

(٣) مفاهيم إسلامية، أبو الأعلى المودودي: ص ٢٣، دار القلم ــ الكويت، ١٣٩٤هـ.

ولدى مناقشة التطوريين بهذه الوجوه يظهر لنا: أن نظريتهم في بيان عقيدة الإنسان الأولى لا تستطيع مواجهة النصوص التي وردت في الكتب السماوية تؤيد فكرة القائلين بأصالة التوحيد، وفطريته، وأنه عقيدة الإنسان الأولى.

كما أنه لا يفوتنا أن نذكر مصادمة نظرة التطوريين للفطرة التي فطر الله الناس عليها، تلك الفطرة التي تتجه إلى الخضوع لله عز وجل.

(والكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها بغير مرشد، بل تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم، فكان أبو البشر أول المؤمنين الموحدين)[1].

والواقع أن هذه القضية التي خاض بها علماء الأديان، حتى وقع كثير منهم في متاهات صعب عليه الخروج منها، هي قضية ليست من شأن العلوم الاستنتاجية أو الاستقرائية، وإنما هي من شأن الوحي وإخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام، ذلك لأنها قضية داخلة في إطار الغيب، خاضت في حقبة من الزمن لا نعلم عنها إلَّا ما أخبرتنا به الكتب السماوية، فهي فترة سابقة للتاريخ، وخارجة عن نطاق المعرفة البشرية اليوم، كما أن نظرياتهم مرتكزة على فرضيات في عصور غامضة. ومع كل هذا فقد وجدنا من الباحثين في هذا المضمار من توصلوا إلى نتائج توافق ما ذهبت إليه الرسالات السماوية.

أثر الخلاف وموقع المسيحية منه:

والقضية التي تنشأ عن الاختلاف حول نشأة الدين وبدايته، قضية أساسية مهمة هي: هل هنالك أديان سماوية إلَهية أم أن الأديان كلها وضعها الإنسان، فهي من بنات أفكاره تطورت معه وفقاً لتطور حياته المادية؟.

---

(١) الدين، دراز: ص ١١٨، ١١٩.

والتطوريون ينقسمون حول هذه القضية إلى فريقين:

فريق أنكر فكرة الوحي من أساسها، واعتبرها خرافة أسطورية صاغها العقل البشري البدائي الساذج. ثم تطورت هذه الديانات مع تطور هذا العقل واتساع مداركه. ولا شك أن أدياناً كثيرة مارستها البشرية في تاريخها. ولا زالت تمارسها ما هي إلّا خرافات، ولا نعتبرها ديانات سماوية أصلاً، ولكننا نعتقد أنها انحرافات لديانات سماوية الأصل وتحريف لتعاليم إلّهية.

أما الفريق الآخر فإنه يؤمن بالرسالات السماوية، ويؤمن بفكرة الوحي، ولكنه يعتقد أنها جاءت متأخرة، فلقد قضت البشرية أحقاباً طويلة تدين بالخرافة والأوهام، حتى إذا ما اكتمل العقل البشري ونضج، أذن الله برسالات سماوية، وبوحي إلّهي بدأ يتنزل.

السؤال الآن: ما موقع المسيحية من هذه القضية؟ وهل المسيحية دين سماوي، ثم تداعت عليه التحريفات، أو أنه دين وضعي أصلاً لا علاقة له بالوحي؟

فالفريق الأول الذين أنكروا فكرة الوحي أصلاً، إذا بحثوا في المسيحية كان بحثهم لها على اعتبار أنها ديانة وضعية صاغها العقل البشري، فظهر من هؤلاء من شكك بحقيقة المسيح عليه السلام ووجوده. ويسوق لنا صاحب قصة الحضارة أسماء مجموعة من الفلاسفة والمفكرين الذين قالوا بهذا التشكيك. ومن هؤلاء:

١ ــ (بولنجيروك) وجماعة ــ وهم جماعة ارتاح لأفكارهم ڤولتير نفسه ــ وقالوا: إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق.

٢ ــ سنة ١٨٤٣ كتب (برنوبور) ليثبت أن يسوع لا يعدو أسطورة.

٣ ــ المدرسة الهولندية (بيرسن، أنابر، متشاس) أنكروا بعد بحوث مضنية حقيقة المسيح التاريخية.

٤ ـ في إنجلترا أدلى (سمث) و (برتسون) بحجج من هذا النوع أنكروا فيها وجود المسيح[(١)].

ويثبت (ول ديورانت) بعد ذلك وجود المسيح مستدلاً بإشارات في كتب اليهود القديمة تثبت وجوده، كما يذكر إشارات إلى المسيح في الأدب الوثني[(٢)].

ويقول: (وقصارى القول: إن نكران ذلك الوجود لا يخطر على ما يظهر لأشد المخالفين لليهودية، أو اليهود المعارضين للمسيحية الناشئة في ذلك الوقت)[(٣)].

ونحن المسلمين نؤمن بوجود المسيح، ونؤمن بالمسيحية على أنها رسالة سماوية سامية، ولكنها حرّفت وبدّلت أصولها وفروعها. وأن التحريف الذي نشهده في النصرانية اليوم عن عقيدة التوحيد الأصلية، لا يدفعنا إلى القول بإنكار وجود المسيح عليه السلام، لأن الإيمان به جزء من عقيدتنا ﴿قل آمنا بالله وما أُنْزِلَ علينا وما أُنزِل على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوب والأسباطِ وما أوتيَ موسى وعيسى والنبيونَ من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[(٤)].



---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٢٠٤/١١، ترجمة د. زكي نجيب محمود ومحمود بدران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م.

(٢) المرجع السابق: ٢٠٤/١١ ـ ٢٠٦.

(٣) المرجع السابق: ٢٠٦/١١.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٤.



المبحث الثاني

البيئة التي نشأ فيها السيد المسيح عليه السلام

يدرس كثير من الباحثين البيئة التي ظهر فيها عيسى عليه السلام، ونشأ بها لكي يثبتوا أن عيسى عليه السلام تأثر بهذه البيئة، وبالأفكار المتداولة فيها، فكانت تعاليمه نتاجاً لمجموعة هذه الأفكار والمعتقدات السائدة في زمنه.

وهذه النظرة توحي إلى بشرية رسالة عيسى عليه السلام، وأنه لم يتلَقَّ هذه التعاليم من وحي إلٰهي.

ونحن المسلمين نؤمن بأن التعاليم التي جاء بها عيسى عليه السلام، تعاليم سماوية أوحى الله عز وجل إليه بها، لا وليدة بيئة معينة. لكنني أشير إلى نقطتين هما:

الأولى: أن التعاليم الإلٰهية التي جاء بها عيسى عليه السلام، كانت مناسبة مع هذه البيئة، وجاءت علاجاً لمشكلات، فبينما كانت تسيطر الأجواء المادية في ذلك المجتمع جاءت تعاليم عيسى عليه السلام روحية سامية تعالج ذلك الاستغراق المادي.

الثانية: أنه ما من شك أن الأفكار والمعتقدات السائدة في تلك البيئة وما حولها كان لها أثر كبير على العقيدة المسيحية بعد عيسى عليه السلام.

ومن هنا كانت ضرورة دراسة البيئة التي نشأ فيها السيد المسيح عليه السلام، لأن دراستها تعطي الضوء على نشأة هذه الديانة وبدايتها.

والبيئة الخاصة التي عاش بها المسيح عليه السلام: هي البيئة اليهودية، وهناك بيئات أخرى عامة تحيط بهذه البيئة كان لها أثر كبير على المسيحية فيما بعد.

(فالمسيح ولد يهودياً، ثم نشأ في بيئة يهودية، وأخذ منها وحدها ــ حسب ما نعلم ــ عناصر ثقافته الفكرية والدينية[1]. بيد أن أمة إسرائيل لم تكن قد واصلت الانعزال عن العالم الخارجي فقد تأثرت بصلاتها المستمرة بالفاتحين الإغريق، يضاف إلى هذا تأثير وفود الحجيج المتفاوتة العدد إلى القدس في المواسم والأعياد من أبناء الجالية اليونانية التي هاجرت إلى بلاد اليونان، واستقرت بها. كل ذلك أدى إلى تشرب بني إسرائيل بالكثير من الأفكار الخارجية خلال القرون الثلاثة السابقة للتاريخ المسيحي)[2].

فبيئة المسيح الخاصة إذن يهودية، وبدأ دعوته بين اليهود، وانتشرت المسيحية أول ما انتشرت خارج فلسطين على أيدي اليهود، ولا بد لنا أن نعطي لمحة سريعة عن البيئة اليهودية في تلك الفترة من الناحيتين السياسية والفكرية العقائدية.

ويصف لنا (جيمس هاستنكز) البيئة اليهودية فيقول: (إن هذا المجتمع بدأ يتفلت من تطبيق القوانين والتشريعات التي جاءت بها التوراة، وإن طقوس المعبد قد قوطعت بواسطة الوثنيين غير اليهود المسيطرين، وإن المدينة المقدسة قد وقعت تحت حكم الأجنبي، وانقطع الإحساس بالانتماء إلى (يهوه)، هذا بالإضافة إلى أن الكثيرين لا زالوا يتطلعون إلى تلك الساعة التي تتحقق فيها الأحلام والرؤى القديمة، ويعود إسرائيل، ليأخذوا الإنصاف كشعب الله المختار، وقيام مملكة الله المنتظرة)، ثم تتابع دائرة المعارف هذه فتقول: ــ ما ترجمته ــ (في هذه الظروف المختلطة من الإيمان العنيد، والمرارة الروحية، والسحق الاجتماعي، والعمى الديني والخلقي، والهزيمة السياسية، والآمال المعتمدة على الأحلام والرؤى، نشأ المسيح وترعرع)[3].

---

(١) هذا بالطبع قبل أن يوحَى إليه من الله.

(٢) المسيحية: نشأتها وتطورها، شارل جيني بير. ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود: ص ٣٠، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت.

(٣) Encyclopaedia Of religion and Ethics/ James Hastings Vo 117 p. 508.

وهـذا في الواقـع وصف دقيق للمجتمع اليهـودي الذي انحـرف عن شـريعـة التوراة، وابتعد عن تعاليمها السامية التي وصفها القرآن الكـريم بقولـه: ﴿إنا أنـزلنا التوراة فيها هُدىً ونور﴾[1].

عندئذ أذِن الله تعالى برسالة جديدة، لمعالجة انحـراف هذا المجتمـع، وردِّه إلى تعاليم ربه. ويصف لنا الأستاذ (شارل جيني بير) البيئة اليهودية فيقول:

(ومن الجدير بالذكر أن البيئة اليهـودية في عصـر (هيرودوس الأكبـر) المتوفى عـام ٤ ق.م، كانت غـاية في التعقيـد، ظاهـرها وحـدة الجنس والعادات والتقـاليد والـدين، وباطنهـا فرقـة أصليـة في صفـوف أهـل فلسـطين الـذين انقسمـوا شعبين مختلفين فكرياً وعقائدياً.

وسبب هـذا الانقسام: (سبـي بـابل ٥٨٦ ق.م)، فقـد كان سبيـاً للعـائـلات المعروفة، وظل أهل الـريف وعامـة الشعب يمارسـون دين إسرائيـل القديم، فـظهر فـرق واضح بينهم، وبين أهـل المهجر الـذين تطوروا بسـرعة، وعنـدما عـادوا إلى فلسطين جلبوا معهم هذه الروح الجديدة، وظلوا على اتصال وثيق بإخـوانهم الذين استقروا بمملكة بابل)[2].

وبعد هذا الوصف الموجز للشعب اليهودي في تلك الفترة، نريد أن نخصص الحـديث عن إقليم (الجليل) الـذي ابتدأت فيـه دعوة المسيـح عليه السـلام، هـذا الإقليم الذي يشكل الجزء الشمالي من أرض فلسطين.

في هذا الإقليم كانت غـالبية الشعب من السُـذَّج إلاَّ أنهم كانـوا قد احتفـظوا فيمـا يبدو بنـوع من التقوى التلقـائية المتحمسـة في عمق يـدل على قـوة الحيـويـة الدينية[3].

وكان هذا الإقليم كما وصفه الأستاذ (جيني بير) يمتاز بأمرين:

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٢) المسيحية، شارل جيني بير: ص ٣٢، ٣٣.

(٣) نفس المرجع: ص ٣٦.

الأول: اهتمام أهله بالمسائل الدينية.

الثاني: الأمل لدى شعبه بظهور المعجزة الباهرة التي سوف يثاب بها اليهود على تقواهم، وتجعلهم ملوكاً في الأرض[1].

ثم يتابع الأستاذ (جيني بير) وصفه للمجتمع اليهودي هذا، ويظهر من خلال هذا الوصف: تهيئة الجو في هذا الإقليم لظهور نبي جديد، وأن هذا الشعب في ذلك الإقليم كان ينتظر ذلك المخلص فيقول: (وبما أن هذا الشعب لا يجد لدى حكامه من القساوسة مشاركة في أمله، بل حتى العلماء الذين كانوا يسوسون الشعب، لم يرحبوا كثيراً بأية حركة نابعة من أعماق الجماهير، فإننا نجده يتجه إلى أي شخص يقوي عنده هذا الأمل... ولم يكن للأنبياء في إقليم الجليل في ذلك العصر سوى التبشير بقرب تحقيق الآمال، ويبدو في الواقع أن هذا الوضع كان مبدءاً لقيام عيسى بالدعوة[2].

ويخلص هذا الباحث بعد ذلك إلى تلخيص جيد لدعوة المسيح عليه السلام فيقول: (إن عيسى ــ عليه السلام ــ بدعوته إنما كان يجدد تلك السلسلة من أنبياء بني إسرائيل التي انقطعت بعد العودة من المنفى، والتي حاول أن يصل حلقاتها من قبله أنبياء آخرون منهم (المعمدان)[3]، فقيامه بالدعوة مهما بدا أول الأمر أصيلاً مبتكراً ليس في الواقع ظاهرة استثنائية أو غريبة من ناحية الشكل)[4].

وإذا أردنا التعرف على مجتمع رجال الدين في تلك الفترة في المجتمع اليهودي فإننا نجد أنفسنا أمام طبقتين من رجال الدين:

الأولى: طبقة (الإكليروس)[5] هذه الطبقة تنشأ من جديد حول المعبد الأعظم، وتعمل على انتظام العبادة فيه، ولكنها لا تختص بدراسة أو تعليم شرع.

---

(١) نفس المرجع: ص ٣٧.

(٢) المسيحية، جيني بير: ص ٣٦.

(٣) يوحنا المعمدان، هو النبي يحيى ابن النبي زكريا عليهما السلام.

(٤) المسيحية، جيني بير: ص ٣٧.

(٥) الإكليروس: خدمة المعبد القائمون عليه.

الثانية: طبقة الكتبة (فقهاء الشرع) يتنافس أعضاؤها على تحليل أوجه الكتاب المقدس المختلفة، ويكثر بينهم الجدل، حتى في البيضة التي تضعها الدجاجة في يوم سبت هل تعد بيضة طاهرة أو لا . . و نشك في أن بعض هؤلاء تأثروا ـــ دون أن يشعروا ـــ بالنظريات اليونانية في الإله والكون والإنسان، ومن هنا بدأت الديانة القومية لبني إسرائيل تتخذ صبغة عالمية وإنسانية على عكس ما خطه لها التشدد الديني فيما سبق من اتجاهات[1].

من هاتين الطبقتين تألف مجتمع رجال الدين اليهودي في تلك الفترة، ويلاحظ أن الطبقة الأولى ليس من شأنها التدخل في التشريعات، بل هي تعمل في المعبد لانتظام العبادة وفق القواعد والتشريعات التي يضعها أفراد طبقة (الكتبة)، وهذه الطبقة المشرعة تأثرت بأفكار خارجية وفلسفات أخرى. أما بقية أفراد المجتمع فليس من شأنه إلاَّ طاعة مرشديه من رجال الدين.

على أننا نجد هناك فرقة أخرى لم تكن تعترف بالمعبد اليهودي، ورفضت الشريعة اليهودية ولم تعترف بأنها شريعة إلٓهية، وعرفت هذه الفرقة باسم (الناظوريين)[2]، وانتشرت هذه الفرقة على ضفاف الأردن قبل مولد المسيح، وكانوا يعتبرون أنفسهم قديسين بالنسبة لبقية البشر، وكان هؤلاء (الناظوريون) في أغلب الظن شديدي التحمس لفكرة حلول مملكة الله، ولعلهم كانوا السابقين إلى فكرة المسيح المنتظر[3].

بالإضافة إلى أثر هذه الفرق على الشعب اليهودي، فلا يجوز بأية حال إهمال أثر المِحَن التي مرَّ بها اليهود من ظلم الرومان لهم خلال القرون الأربع التي سبقت مولد عيسى عليه السلام (وكان الشعب يستقي من هذه المحن تأييداً لأمل قديم، إنه يترقب ويأمل بكل جوارحه مجيء المسيح الموعود الذي سوف تسترجع به أمَّة

---

(١) المسيحية، جيني بير: ص ٣٣، ٣٤.

(٢) لفظ (ناظر) العبري الذي ترجمه اليونان بكلمة (هاجيوس) أي قديس، انظر: المسيحية، جيني بير: ص ٦٣.

(٣) المرجع السابق: ص ٦٣.

إسرائيل ما عرفته من مجد أيام داود. . واقتنعوا في يُسر بأن تلك الثورة التي يأملونها، لا بد أن تقوم متى شاء (يهوه) فظلوا يترقبونها في قلق يزداد عاماً بعد عام)[1].

هذا الأمل الذي عاش مع اليهود نابع من عقيدة أساسية من عقائدهم؛ هي فكرة المسيح المنقذ أو المخلص، ولهذه العقيدة أثر بارز في انتشار دعوة المسيح عليه السلام بين أوساط اليهود، وإن كان أكثرهم قد تصدوا لدعوته وقاوموه. (وإنا لنلمح من خلال الوثائق الغامضة ــ ولشد ما نأسف لعدم وضوحها ــ فرقاً من أنصاف اليهود، تشارك جميعها في أمل واحد، هو النجاة في عالم الآخرة والحياة السعيدة إلى ما لا نهاية، بعد الموت بواسطة شفاعة منقذ إلّهي)[2].

ولدى مراجعة العهد القديم من الكتاب المقدس نجد أن بعض أسفاره تشير إلى المسيح المنقذ وتبشِّر به، فقد ورد في سفر أشعيا: (ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدع اسمه عمانوئيل)[3]، وكلمة (عمانوئيل) يفسِّرها إنجيل متّى بمعنى: الله معنا[4].

كما ورد في أشعيا (لأنه يولد لنا ولد، ونعطي ابناً وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلّهاً قديراً أباً أبدياً، رئيس السلام لنمو رياسته وللسلام، لا نهاية على كرسي داود، وعلى مملكته ليثبتها، ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد، غيرة رب الجنود تصنع هذا)[5].

ويصف سفر أشعيا الحياة عند ظهور هذا المنقذ، فيعتبرها حياة مليئة بالسعادة والطمأنينة، ولا تقتصر هذه الطمأنينة على الحياة البشرية، بل تتجاوزها إلى

---

(١) المسيحية، جيني بير: ص ٣٥.
(٢) نفس المرجع: ص ٦٢، نقلاً عن كتاب «الديانات الشرقية في العبادات الرومانية».
(٣) أشعيا: ١٤/٧.
(٤) متّى: ١/١.
(٥) أشعيا: ٦/٩ ــ ٧.

الحيوانات الأليفة وغير الأليفة فيقول: (فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل المسمَّن معاً، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبَّة ترعيان، تربض أولادهما معاً، والأسد كالبقر يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سرب الصل، ويمد الفطيم يده على جحر الأفعى، لا يسوُّون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلىء من معرفة الرب، كما تغطي المياه البحر، ويكون في ذلك اليوم أن أصل (يسس) القائم راية للشعوب إيّاه تطلب الأمم، ويكون محله مجداً، ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعود ثانية، ليقتني بقية شعبه التي بقيت.. ويرفع راية الأمم، ويجمع منفيّي إسرائيل، ويضم مشتّتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض)[1].

هذه بعض إشارات أسفار العهد القديم للمسيح الموعود (وهذه الأسفار هي منشأ العقيدة اليهودية الأولى التي تقول بمجيء المسيح يقبض على زمام الحكم ويعيد إلى اليهود سلطانهم الدنيوي)[2].

مع أن أكثر الباحثين يعتبرون فكرة المسيح المنتظر عند اليهود وليدة ظروف وأحداث ومحن مرَّ بها اليهود، إلَّا أنني لست أميل مع هذا الرأي، وأتساءل لِم لا تكون هذه الفكرة قد استوحاها الشعب اليهودي من أنبيائه الذين بشروا عن الله بمجيء المسيح ـ عليه السلام ـ نبياً لهم؟ لأنه من المعروف أن كل الأنبياء كانوا يبشرون أقوامهم بمن يأتي بعدهم من الرسل، ويدعونهم للإيمان بهم إذا جاءوا في زمنهم.

ولكن المحن التي مرَّ بها اليهود كانت دافعاً لهم، ليترقبوا هذا الحدث الذي يأملون أن يخرجوا به من هذه البلايا، ويتحقق لهم على يديه النصر على أعدائهم.

(ولقد كانوا في مبدأ الأمر يرون المسيح ملكاً فاتحاً مظفراً من نسل داود

---

(١) أشعيا: ١١/٦ ـ ١٢.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٣٥٥.

يسمونه (ابن الله)، ويعتقدون أنه سيجيء ليعيد مجد إسرائيل، ويجمع شتات اليهود بفلسطين، ولكنهم أحياناً أطلقوا كلمة المسيح على من يعاقب أعداءهم، وإن لم يكن من نسل داود، كما أطلقها أشعيا على (قورش) ولما طال انتظارهم للمسيح الفاتح الغازي فكروا أحياناً بأن يجيء المسيح مصلحاً اجتماعياً وديعاً)[1].

أما عن تاريخ هذه الفكرة عند اليهود: (فبعض الباحثين يعتبرها قد برزت في الفكر اليهودي في وقت متأخر بعد الأسر البابلي وخضوع اليهود للفرس، ويظهر هذا من خلال مراجعة الكتاب المقدس وهذا التوقيت دفع الكثير من الباحثين إلى الاعتقاد بأن هذه الفكرة مستعارة من الزرادشتية). والبعض الآخر يعتبرها سابقة لهذا التاريخ، ومنهم من توقع ذلك منذ عهد موسى، وأن بعض الشعراء وصفوا داود بأنه المسيح المنتظر، وهذا دليل على وجود الفكرة قبل الأسر البابلي، ولا يستبعد أن يكون (مسيا = المسيح) يمثل المنقذ الذي هتف به اليهود كلما ألمت بهم النوائب[2].

وظل اليهود ينتظرون هذا المسيح، وظهر المسيح حقيقة، ومع أنه ظهر في أوساطهم إلاَّ أن قليلاً منهم من آمن به، فقاومه أكثر اليهود وألقوا القبض عليه، وحكموا عليه بالإعدام.

ولا شك أن مثل هذه الاعتقادات التي كانت تسود المجتمع اليهودي قبل ظهور المسيح عليه السلام، كان لها أثر كبير في ترعرع دعوته في تلك الأوساط.

أضف إلى ذلك ما ذكرناه من المحن التي عاشها اليهود في ظل الرومان، ومن الداخل ذلك الجو المشحون بعوامل التفكك السياسي والحرب الاقتصادية

---

(١) اليهودية، أحمد شلبي: ص ٢١٩، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٧٨م.

(٢) اليهودية، أحمد شلبي: ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

التي أثارتها الضرائب الباهظة التي كانت تفرض على هذا الشعب. ويعتبر صاحب قصة الحضارة: (أن مثل هذا الجو المشحون، هو الذي يظهر فيه الأنبياء، ويعتبرهم ثُواراً على الاستغلال الصناعي والخداع الكهنوتي، ولكنه في هذا الموضع يهاجم الأنبياء، ويصف معظمهم بأنهم كانوا مزيجاً من العرافين، والاشتراكيين الذين خرجوا من أحضان الريف الساذج، يصبّون اللعنة على ثراء الحواضر الفاسدة)[1].

ثم يذكر (ول ديورانت) أن هذه الأوضاع قد هيَّأت النفوس لقبول دعوة المسيح وأنها كانت سابقة لها بل قبلها مباشرة فيقول: (تعقدت الحياة في المجتمع اليهودي وظهرت الفروق الواسعة بين الثروات والمنافسة المريرة القاتلة والقسوة قي استغلال الناس ولما رأى النبي (عاموس) ذلك هاله ما شاهده وأخذ يصب غضبه على ذوي الثراء المنغمسين في الترف)[2].

هذا موجز يصف البيئة الخاصة للمنطقة التي ظهر فيها السيد المسيح عليه السلام، وإذا أردنا أن نتحدث عن البيئة العامة لتلك الفترة فلا بد لنا أن نتجاوز حدود فلسطين لنرى ما يحيط بها من أفكار. يقول الأستاذ (جيني بير): (وحول العالم الفلسطيني اليهودي بيئة ثانية مشتركة، وهذه البيئة وإن لم تؤثر مباشرة على عيسى ـ عليه السلام ـ إلاَّ أنها جذبت إليها أتباعه عقب موته، تلك هي البيئة السورية الفينيقية، التي كانت مصباً لروافد كثيرة من التيارات الفكرية والعقائدية والخرافات والأساطير. وهناك بيئة ما بين النهرين في الشرق تتفاعل فيها تيارات دينية نابعة من الهند وفارس، وكانت البيئة الإغريقية من ناحية الشمال أكثر تعقيداً واختلاطاً في الفكر، لكنها كانت أكثر خصوبة وإثماراً بسبب وضعها كمركز هام للديانات، وبما فيها من عبادات قومية وأساطير وتأملات الفلاسفة اليونانيين وعقائدهم، فكانت هناك مادة دينية ضخمة قابلة لأن تتشكل وتتطور بسهولة حسب

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٢/٣٤٩.
(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٢/٣٥٠.

رغبات من يريـد استغلالهـا فكانت بـالتالي مصـدراً يكاد لا يغني بـالنسبة لمستقبـل المسيحية)[1].

وسنتحـدث في فصـل قـادم ـ إن شـاء الله ـ عن أثـر هـذه الفلسفـات على انحراف المسيحية فيما بعد عن عقيدتها الأصيلة.



---

(1) المسيحية، جيني بير: ص ٣١ ـ ٣٢.

المبحث الثالث
الأصول اليهودية للمسيحية

ذكرنا أن المسيح عليه السلام ولد يهودياً، وعاش في بيئة يهودية، وبدأ دعوته بينهم في إقليم الجليل. (ولقد ظل المسيح زمناً طويلاً لا يرى في نفسه إلاَّ أنه أحد اليهود يؤمن بأفكار الأنبياء، ويواصل عملهم، ويجري على سنتهم، فلا يخطب إلاَّ في اليهود)(١).

ويذكر إنجيل (متّى) أن المسيح عندما أرسل تلاميذه للتبشير بدعوته أمرهم أن يقتصروا في دعوتهم على مدن اليهود، هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: (إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا (بالحرى)(٢) إلى أطراف بيت إسرائيل الضالة)(٣).

كما أورد إنجيل متى قصة المرأة الكنعانية التي طلبت من السيد المسيح أن يشفي ابنتها المجنونة، فلم يجبها بكلمة، وعندما طلب إليه تلاميذه أن يصرفها لأنها تصيح خلفهم قال: (لم أرسل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، وعندما ألحت عليه وسجدت له قائلة: يا سيّد أعنّي، قال: ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب، لكنها قالت: والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها، حينئذٍ أجاب لها، فشفيت ابنتها من تلك الساعة)(٤).

(فالمسيحية إذن تنبع أساساً من حركة يهودية وهي أولاً وعلى وجه الخصوص

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٢٢٨.

(٢) كناية عن الأشياء الثمينة.

(٣) متى: ١٠/٥ ـ ٦.

(٤) متى: ١٥/٢٢ ـ ٢٨.

كظاهرة تهم الحياة الدينية لليهود، وتتميّز بها البيئة الفلسطينية، ولا يمكن تصوّر قيامها خارج نطاق العالم اليهودي)[1].

وما جاء به عيسى عليه السلام ليس إلّا تعاليم سامية، جاءت للشعب اليهودي الذي استغرق في المادية وانحرف عن شريعة موسى عليه السلام. ولم يأتِ المسيح عليه السلام بشريعة جديدة، بل كان يعتبر التوراة شريعته، اللهم إلّا بعض التشريعات المعدلة التي جاءت تخفيفاً على بني إسرائيل.

بقي عيسى عليه السلام طيلة إقامته يبشر اليهود بدعوته ولم يحدث أن اجتاز بدعوته حدود الأقاليم اليهودية، وكما قلنا كانت رسالته تعاليم روحية لليهود لم تخرج عن نطاق شريعة موسى عليه السلام، ولكننا اليوم نجد أنفسنا أمام ديانة مسيحية منفصلة تماماً عن اليهودية، وبينما نجد اليهودية ديانة قومية لا تبشر ولا تقبل غير اليهود، نجد النصرانية ديانة تنتشر في شتى البقاع، فكيف انفصلت المسيحية عن اليهودية لتشكل ديناً مستقلاً، جديداً؟ وكيف خرجت عن النطاق الإقليمي لتدعو جميع الأمم؟

ولدى تتبع أسفار العهد نجد أن هذا الافتراق لم يحدث في زمن المسيح عليه السلام، وإنما جاء متأخراً، وقد أوردنا كيف أن المسيح كان يأمر أتباعه المبشرين بدعوته أن لا يدخلوا غير مدن اليهود.

هذا الافتراق والخروج عن الإقليمية اليهودية بدأ به (بطرس) و(بولس)، فقد ذكر سفر (أعمال الرسل) رؤيا بطرس التي رأى على أثرها أن يقبل المهتدين من الوثنيين واليهود على السواء (فتح بطرس فاه وقال: بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه، بل في كل أمة، الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده. . . فبينما بطرس يتكلم بهذه الأمور حلّ الروح من القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة، فاندهش المؤمنون الذين من أهل الختان ـ كل من جاء مع بطرس ـ لأن موهبة الروح القدس قد انسكبت على الأمم أيضاً)[2].

---

(١) المسيحية، جيني بير: ص ٢٥.

(٢) الأعمال: ١٠/٣٤ ـ ٣٥، ٤٤ ـ ٤٥.

أما بولس فيذكر (سفر الأعمال) جولاته على المدن وتبشيره اليونانيين وغيرهم بالمسيحية الجديدة التي جاء بها.

وبدأ المسيحيون يدعون غير اليهود، وهذه وإن كانت ممارسة جديدة تخرج عن نطاق اليهودية، إلاَّ أنها لم تحل بين الرسل وبين استمرارهم في التمسك بالدين اليهودي وشاهد ذلك ما جاء في أعمال الرسل (وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة)[1].

وهذا كله حدث بعد المسيح عليه السلام، حيث ظهرت هذه الدعوة على يد (بولس) كما سنبين فيما بعد.

ويصف لنا صاحب قصة الحضارة حال اليهود أمام الفرقة الجديدة التي سميت فيما بعد بالنصرانية فيقول: (وظل زعماء اليهود فترة لا يعارضون قيام هذه الشيعة لصغرها وانتفاء الأذى من وجودها، فلما تضاعف عدد الناصريين (النصارى) في بضع سنين، استولى الرعب على قلب الكهنة، فقبض على بطرس وغيره وجيء بهم أمام (السنهدرين)[2] لمحاكمتهم، ورُجم بطرس وبدأ الاضطهاد اليهودي للنصارى، فهاجر الكثير، وبقي الذين يراعون مجلس اليهود (السنهدرين))[3].

ويصف لنا ول ديورانت التصدي الذي أعلنه مجلس اليهود على أفراد هذه الطائفة، وما لاقته منهم من عناء التعذيب فيقول: (وفي سنة ٤١م قتل رجل يدعى (يعقوب بن زبيدي)، فقبض على بطرس ولكنه فرّ، ثم قتل (يعقوب العادل) نفسه سنة ٦٢م. وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على رومة، فخرج المسيحيون المقيمون بالقدس وأقاموا في بلاد الوثنية الضالعة مع روما، وذلك لاعتقادهم أن نهاية العالم قد اقتربت، وبعد هذه الهجرة افترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة، فاتهم اليهود المسيحيين بالخيانة والخور، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد (تيطس ٤٠ ـ ٨١م) تحقيقاً لنبوءة المسيح)[4].

---

(١) الأعمال: ٢/٤٦.

(٢) مجلس زعماء اليهود وكهنتهم.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٢٤٣.

(٤) نفس المرجع: ١١/٢٤٤.

ونشأت الكنيسة عند المسيحيين، (مع أن المسيح لم ينشىء كنيسة ولم يردها)[1] ونشأت هذه الفكرة ـ كما يقول الأستاذ (جيني بير) ـ عن انتقال الأمل المسيحي من فلسطين إلى ربوع العالم اليوناني وأيضاً ـ إذا شئنا ـ عن تطور هذا الأمل إلى العالمية[2].

ونشوء الكنيسة عند النصارى، ولجوؤهم لها لإقامة العبادة فيها، ولتكون رمزاً لهم إنما يعني في ذلك الوقت انفصالهم عن المعبد اليهودي ونشوء فرقة جديدة ذات ديانة جديدة مغايرة لليهودية التي انبثقت عنها، ولعل الكنيسة كانت عاملاً من عوامل اتساع هوّة الخلاف والافتراق، فلقد بدأت الكنيسة تمارس طقوسها مخالفة لليهودية، بل ومخالفة للمسيحية التي عرفها اليهود وبدأت أفكار (بولس) تتحكم بالكنيسة (وكان بولس سباقاً إلى قبول فكرة فصل المسيحية عن اليهودية ذلك الانفصال الذي مهَّد له بإنشاء العقيدة المناسبة)[3].

ولا شك أن مسألة الافتراق هذه لم تحدث دفعة واحدة، بل أخذت صفة التدرج، أما عن الفترة التي نشأ بها هذا الافتراق، فيقول الأستاذ جيني بير: (ومسألة الافتراق ابتدأت في مقتبل القرن الثاني، حيث ظهرت لنا في ثوب دين مستقل يدرك أصحابه تماماً انفصاله عن اليهودية. . وأصبحت تتجه إلى بني الإنسان جميعاً دون تفرقة بين الأجناس)[4].

وهكذا ابتدأ الافتراق ليشكل (بولس) وأتباعه ديانة مستقلة جديدة لها طابعها العَقدي المختلف عن البداية التي جاء بها، وكان من نتائج ذلك الافتراق تلك العداوة التي نشأت بين اليهود، وبين الذين سموا بالنصارى، أدى ذلك إلى انفصال العهد الجديد عن العهد القديم، وانفصال شريعتهم عن شريعة اليهود. وبذلك وجد النصارى أنفسهم بلا شريعة تحكمهم، لأن شريعتهم في الأصل هي التوراة وهذا ما خطط له بولس من أول الطريق فشرع يضع لأتباعه أحكاماً وشريعة من عنده، تلائم الوثنيين وغيرهم وتلائم مصلحته ومصلحة دعوته الجديدة.

***

(١) المسيحية، جيني بير: ص ١٣٠.
(٢) نفس المرجع: ص ١٣١.
(٣) المسيحية، جيني بير: ص ١١٢.
(٤) نفس المرجع: ص ١١٦.

الفَصْلُ الأوَّل

دِينُ اللهِ وَاحِدٌ

المبحث الأول : تاريخ عقيدة التوحيد في القرآن الكريم.

المبحث الثاني : التوحيد عقيدة الرسالات السماوية.

المبحث الثالث : دعوة المسيح الحقيقية.



المبحث الأول

تاريخ عقيدة التوحيد في القرآن الكريم

أشرنا عند حديثنا عن نشأة الدين إلى أن الباحثين في تاريخ الأديان كان لهم مذهبان في هذا الموضوع: مذهب التطور، ومذهب الإله الأعلى، وأثبتنا حقيقة الإله الواحد الأعلى التي ذهب إليها الفريق الثاني.

ونود الآن أن نتحدث عن تاريخ عقيدة التوحيد منذ بدأت مع آدم عليه السلام ومتى كان أول انحراف عن هذه العقيدة.

وإذا كان التاريخ لا يسعفنا في الحديث عن تلك الحقبة الزمنية الأولى فإن القرآن الكريم وهو كلام الله تعالى يحدثنا عن ذلك مبيناً أن التوحيد هو البداية وأن الشرك طارىء غير أصيل.

قال الله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلَّا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[1].

ولدى مراجعة أقوال المفسرين لهذه الآية نجد أنهم اختلفوا في هذه الأمة التي ذكرتها الآية، في زمنها وفي منهجها.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى (الأمة) في هذا الموضع، وفي الناس الذين وصفهم الله تعالى بأنهم كانوا أمة واحدة. فقال بعضهم: هم الذين

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

كانوا بين آدم ونوح، وهم عشرة قرون كلهم كانـوا على شريعـة من الحق فاختلفـوا بعد ذلك[1].

ويستدل الطبري على ذلك بما أورده عن ابن عباس قال: (كان بين نوح وآدم عشـرة قرون كلهم كـانوا على شـريعة من الحق فـاختلفوا فبعث الله النبيين مبشـرين ومنذرين). قال: وكذلك هي قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)[2].

فكان تأويل الآية على معنى قول هؤلاء: كان الناس أمة واحـدة مجتمعة على ملة واحدة ودين واحد فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[3].

وأورد الـطبري رحمـه الله التأويـلات الأخرى في معنى الآيـة ورجح أحـدهـا فقال: وأولى التأويلات في هذه الآية بالصواب أن يقال: إن الله عز وجل أخبر عباده أن الناس كانوا أمة واحدة على دين واحد وملة واحدة.. وأن الدين الذي كانوا عليه دين الحق[4].

ثم استـدل بالقـرآن على صحة مـا ذهب إليـه، وذلـك أن الله قـال في سـورة يونس: ﴿وما كان الناس إلاَّ أمة واحدة فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون﴾[5].

(فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا الاجتماع، ولا على كـونهم أمة واحـدة، ولـو كان اجتمـاعهم قبل الاختـلاف كان على الكفـر ثم كان الاختـلاف بعـد ذلـك لم يكن إلاَّ بـانتقال بعضهم إلى الإيمـان.. ومحال أن يتـوعد الله في حـال التـوبـة والإنابة ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك)[6].

---

(١) جامع البيان عن تأويـل القرآن، أبـو جعفر الـطبري، تحقيق محمـود شاكـر: ٤/٢٧٥، دار المعارف بمصر.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك وقـال: هذا حـديث صحيح على شـرط البخاري ولم يخـرجاه. ووافقه الذهبـي. المستدرك: ٢/٥٤٦ ـ ٥٤٧، مكتبة المطبوعات، حلب.

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري: ٤/٢٧٦.

(٤) نفس المرجع: ص ٢٧٩.

(٥) سورة يونس: الآية ١٩.

(٦) جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري: ٤/٢٨٠.

وهذا ما يؤيده الإمام (ابن كثير) رحمه الله، فبعد أن ذكر قول الطبري ورواية ابن عباس، وأورد قولاً آخر رواه العوفي عن ابن عباس «كان الناس أمة واحدة» يقول: كانوا كفاراً، لكنه يرجح القول الأول، على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[1].

وجمهور المفسرين على أن الأمة كانت واحدة على التوحيد والدين الحق، والخلاف في (الناس)، أهُم ذرية آدم قبل خلقه؟ أم آدم وحده؟ أم أنهم الناس بعد آدم ونوح؟ أم غيرهم؟

أمَّا إنهم أمة واحدة على الكفر والضلال فلم أجد من رجح ذلك، ولا من قال به إلاَّ رواية العوفي عن ابن عباس وقد ضعفها ابن كثير كما ذكرنا.

ولكن الشيخ (محمد عبده) يضعف ما ذهب إليه الجمهور، ويرجح عليه الرواية الضعيفة التي رواها ابن كثير عن ابن عباس، ولكنه لا يطمئن إليها كثيراً فيرجح رأياً ثالثاً، نقله عن (القرطبي). وإليك ما كتبه (الإمام محمد عبده) عند تفسير هذه الآية في تفسير المنار[2]: (وقد حمل جمهور من المفسرين لفظ (الأمة) في هذه الآية على (الملة) ثم اختلفوا فيما كانت الملة، فقال جمهورهم: إنها ملة الهدى والدين القويم، ولما وجدوا أن المعنى لا يكون قويماً لأنه لا معنى لإرسال الرسل إلى الأمم الصالحة المهتدية ليحكموا بينهم فيما يختلفون فيه، إذ لا يتأتى الاختلاف الذي يحتاج في رفعه إلى رسالة الرسل مع استقامة العمل، والوقوف عند حدود الشرائع، قالوا: لا بد من تقدير في العبارة فيكون الكلام: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا»، والقرينة على هذه القضية المقدرة قوله فيما بعد: «ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه»[3]).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤٤٣/١، الطبعة الأولى، دار الأندلس بيروت ١٣٨٥هـ.

(٢) يقول رشيد رضا: (كتب تفسير هذه الآية الأستاذ الإمام باقتراح مني، وأنا الذي وضعت الأرقام للسور والآيات في شواهد ما كتبه)، انظر: تفسير المنار: ٢٧٥/٣، الطبعة الثانية ١٣٥٠هـ، مطبعة المنار بمصر.

(٣) تفسير القرآن الحكيم (المنار)، محمد رشيد رضا: ٢٧٦/٣ ـ ٢٧٧.

وبعد أن ينقل الإمام رأي الجمهور يبدأ بتوجيه النقد إليه، فيقول: (وأنت ترى أن هذا بمنزلة قولك: كان زيد عالماً فبعثت إليه من يعلمه ما كان نسيه من معلوماته. وتقول: إن كلامي على تقدير: كان عالماً فنسي. وهو مما لا يقبله ذوق عربي، فإذا كنت لا تراه لائقاً بكلامك فكيف تراه لائقاً بكلام الله، أبلغ الكلام)[1].

وبعد ذلك يورد رأي الطائفة الثانية التي قالت بأن الأمة الواحدة أمة الضلال ويحاول ترجيحها على ما ذهب إليه الجمهور فيقول: (ولذلك ذهبت طائفة أخرى وفي مقدمتهم ابن عباس وعطاء والحسن إلى أن الأمة الواحدة أمة الضلال.. واحتجوا على قولهم بهذا التعقب في الآية. فإنه جعل بعثة الرسل تابعة لوحدة الأمة، ولا تكون كذلك حتى تكون الوحدة قاضية بالحاجة إلى إرسالهم ليحكموا بينهم في الاختلاف الذي يقع فيهم بسبب الفساد في العقائد.. فيجب أن تكون وحدة الأمة وحدةً في الباطل حتى يرد الحق عليه فيزهقه، وأما لو كانت الأمّة واحدة في الهدى واتباع الحق، فلا معنى لجعل بعثة الرسل مترتبة عليها كما هو ظاهر)[2].

ولم يكتف الشيخ (محمد عبده) بإيراد حجج القوم، بل راح يدفع الشبه الواردة عليهم، وأهم هذه الشبه التي تعتبر في الحقيقة حجة دامغة عليهم أن يقال إذا كانت الأمة على ضلال فيكون الضلال هو البداية، ثم جاء التوحيد والحق فما موقفنا من أبي البشر آدم عليه السلام وقد كان نبياً، وكان من أولاده من بقي على شريعته، فيجيب على ذلك بقوله: (بأن الحكم على الغالب، وقد يجاب بما تقدم من تخصيص النبيين بما بعد آدم ونوح)[3].

وهذا الرأي عار عن أي دليل صحيح يثبته، ولذلك فإن الشيخ قال في

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٧٧.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٧٧ ــ ٢٧٨.
(٣) المرجع السابق: ٢٧٨/٣.

النهـاية: (ولكن المعنى كمـا تراه ليس ممـا تطمئن إليـه النفس بعـد النـظر إلى آدم ورسالته ومن بقي من أولاده على ملته)[١].

وبذلك يكون الإمام قد ضعف ما ذهب إليـه جمهور المفسـرين وأيدتـه الآثار الصحيحـة، وأبرز لنـا الروايـة الضعيفة التي أوردهـا العوفي عن ابن عبـاس، لكنـه لم يتبنـاها كـرأي له في معنى الأمـة في الآية، فنـراه ينقـل لنـا رأيـاً آخـر نقـلاً عن القرطبـي ويتلخص هذا القول بأن (كان) ليست على الماضي، وإنما هي للإثبات، والمـراد الإخبار عن النـاس الذين هم الجنس كله أنهم أمـة واحـدة في خلوهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق، لولا أن الله منَّ عليهم بالرسل ليردوهم إلى الحق[٢].

ثم يقـول بأن الـرواية الثـانية (وهي أن الأمـة كانت على ضـلال)، أقرب إلى الصواب من الرواية الأولى (وهي أن الأمة كانت على هدى)، وقـال بأنـه هو الـذي كان يذهب الذهن إليه أول مرة[٣].

ويجيب (الشيخ) عن ترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة في الآية بأن الترتيب يكون على هذا المعنى (إن الناس أمة واحدة لا بد لهم أن يعيشوا تحت نظام واحـد يكفل إليهم ما يحتاجون إليه مدة بقائهم في هذه الحيـاة الدنيـا، ويضمن لهم ما بـه يسمون في الحياة الأخرى. ولا يمكنهم في هذه الوحدة أن يتفقوا على تحديد ذلك النظام مع اختلاف النظر وتفـاوت العقول وحـرمانهم من الإلهـام الهادي لكـل منهم إلى ما يجب عليه لصاحبه، فكان من لطف الله بهم أن يرسل إليهم الرسل مبشـرين ومنذرين)[٤].

هذا ما قاله الشيخ (محمد عبده) عند تفسيره لهذه الآيـة، وملخصه أنَّ (كـان) ليست للمضي بل هي للإثبات، فالأمة دائماً واحدة في حاجتهـا إلى نظام يحـدد لها الـطريق، وبذلـك فإن كـون الأمة التي ذكـرتها الآيـة كانت ضـالة، أقـرب إلى هذا

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٧٨.

(٢) تفسير المنار: ٣/٢٧٩.

(٣) نفس المصدر: ص ٢٨٠.

(٤) نفس المصدر: ص ٢٨٢.

المعنى من كـونها مهتـدية، وهـذا المعنى الذي أثبتـه لـ (كان) نقله عن القـرطبـي. ولدى مراجعة تفسير القرطبي رأيت: أن القرطبـي لم يأت بهذا المعنى راجحاً على غيره بل جـاء به بعـد أن ساق رأي الجمهـور وتأويـلات أخرى، وبعـد أن أورد رأي الفريقين (من قالوا بأن الأمة مهتديـة ومن قالـوا بأنهـا ضالـة). ثم جاء بهـذا المعنى الذي أثبته الإمـام على سبيل التضعيف، فقـال: (ويحتمل أن تكـون (كان) للثبـوت والمـراد الإخبار عن النـاس الذين هم الجنس كله أنهم أمـة واحـدة في خلوّهم عن الشـرائع وجهلهم بـالحقائق لـولا منُّ الله عليهم بإرسـال الرسـل إليهم، فلا تختص (كان) على هذا التـأويل بـالمضيّ فقط، بل معنـاها معنى قـوله تعـالى: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1]).

من خـلال ما نقلنـاه عن المفسرين، يتضـح لنا أن رأي الجمهـور هـو الـرأي الأصوب لأنه يتلاءم مع سياق الآية نفسها، والرسـل جاءوا يحملون المنهـاج الإلّهي الذي وضعه الله حكماً للناس فيما اختلفوا فيـه، فظاهـر النص يدل على أنهم كـانوا أمة واحدة على الحق فاختلفوا فيه، ومالوا إلى الهوى فبعث الله إليهم أولئك الرسـل ليذكروهم بمنهاج الله وحكمه.

كمـا أن رأي الجمهور يتفق مـع الـروايـات الصحيحـة المـأثـورة والقـراءات الصحيحـة الثابتـة عن بعض الصحابـة، كقـراءة عبـد الله (كـان النـاس أمـة واحـدة فاختلفوا).

أضف إلى ذلك أن هذا هو المعنى الذي يتفق مع التصور الإسلامي الصحيح لخط مسيرة الأديان والعقائد.

يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله عنـد هذه الآيـة: (فالقـرآن يقرر أن النـاس من أصل واحـد وهم أبناء الأسـرة الأولى، أسـرة آدم وحـواء وذراريهم قبـل اختلاف التصورات والاعتقادات)[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٣/٣١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ١/٢١٥.

ثم يقول: (كل نبي جاء بهذا الدين الواحد في أصله يقوم على القاعدة الأصلية قاعدة التوحيد المطلق، ثم يقع الانحراف عقب كل رسالة وتتراكم الخرافات والأساطير حتى يبعد الناس نهائياً عن ذلك الأصل الكبير، وهنا تجيء رسالة جديدة تجدد العقيدة الأصلية، وتنفي ما علق بها من انحرافات، وهذه النظرية أولى بالاتباع من نظريات الباحثين في تطور العقائد من غير المسلمين، والتي كثيراً ما يتأثر به باحثون مسلمون وهم لا يشعرون، فيقيمون بحوثهم على أساس التطور في أصل العقيدة، وقاعدة التطور كما يقول المستشرقون وأمثالهم من الباحثين الغربيين الجاهليين)[1].

والمعنى الذي اخترناه ورجحه جمهور المفسرين يتلاءم أيضاً مع اختلاف الأمة بعد اجتماعها على حقيقة التوحيد، وتفرقها بعد أن كانت تسير على الهدى والحق، فالآية التي ذكرناها من قبل التي وردت في سورة يونس تفسر آية البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وما كان الناس إلَّا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون﴾[2].

ومشيئة الله اقتضت أن يختلف الناس فيكون للحق أنصاره، وللباطل أنصاره، ويدوم الصراع في مرحلة الامتحان في الحياة الدنيا، ليعرض الجميع على ربهم يوم الحساب ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين؛ إلَّا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[3].

﴿ولولا أن يكون الناسُ أمةً واحدة لَجعلنا لِمنْ يكفرُ بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارجَ عليها يظهرون﴾[4].

وبعد الحديث عن قافلة الرسل وما واجهوه من أقوامهم يذكرنا النص القرآني

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ١/٢١٦.
(٢) سورة يونس: الآية ١٩.
(٣) سورة هود: الآيتان ١١٨ ــ ١١٩.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٣٣.

بالأصل الواحد لهذه الأمة فيقول: ﴿وإن هذه أمتُكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاتَّقون * فتَقطَّعوا أمرَهم بينهم زُبُراً كل حزب بما لديهم فَرِحون﴾(١).

والقرآن الكريم يقرر في كثير من آياته أصالة التوحيد وفطريته في النفس البشرية من أول يوم هبط فيه أبو البشر آدم عليه السلام إلى الأرض، لتهبط معه حقيقة التوحيد إلى الأرض، ويشاء الله لها أن تستقر فيها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكان لا بد أن يتوالى الرسل عليهم السلام، يبعثهم الله تعالى كلما انحرف الناس عن هذه الحقيقة.

والقرآن الكريم كانت له أساليب كثيرة في تثبيت هذه الحقيقة، وأشار في آيات كثيرة إلى أقدميتها ووجودها من أول يوم، وإنك لتلمس حقيقة التوحيد في قصة ابني آدم التي ذكرها القرآن الكريم بقوله: ﴿واتل عليهم نَبأَ ابنَيْ آدم بالحق إذ قرَّبا قُرباناً فتُقُبِّلَ من أحدِهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر، قال لأَقْتُلنَّك، قال إنما يَتقبَّل الله من المتقين، لئن بَسطْتَ إليَّ يدك لِتقتُلني ما أنا بباسط يديَ إليك لأقتُلك، إني أخاف الله رب العالمين﴾(٢).

فالقصة تروي موقف عبادة من ابني آدم، ومظهر هذه العبادة القربان يتقربان فيه إلى الله تعالى ويختلفان فيمن سيقبل الله منه عبادته وقربانه، فمعرفة الله والتقرب إليه بالعبادة وحده تلمسُها من خلال هذا النص القرآني، كما يخبرنا النص خوف أحدهما من الله تعالى فلا يريد أن يرتكب جريمة القتل خوفاً من الله رب العالمين. فالنص القرآني يدل على أن القربان (وهو مظهر من مظاهر العبادة) كان معروفاً عند ابني آدم، مما يدل على أن معرفة الله تعالى والتقرب إليه بالعبادة قد عرفهما آدم وأولاده. ولا يُلتفت لمن قال بأن ابني آدم في الآية ليسا لصلبه، وإنما كانا رجلين من بني إسرائيل ضرب الله بهما المثل في إبانة حسد اليهود، وكان بينهما خصومة فتقرَّبا بقُربانين، ولم تكن القرابين إلاَّ في بني إسرائيل، كما روى القرطبي عن الحسن البصري برواية ضعيفة ردَّ عليها في قوله: (قال ابن عطية: وهذا وهم،

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٢) سورة المائدة: الآيتان ٢٧، ٢٨.

وكيف يجهل صورة الدَّفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ والصحيح أنهما ابناه لصلبه، هذا قول الجمهور من المفسرين، وقال ابن عباس وابن عمر وغيرهما: هما قابيل وهابيل)[1].

وقد دلت الأحاديث والآثار على بداية التوحيد وأصالته ففي حديث أبي أمامة أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ قال: (يا رسول الله، أنبيّ آدم؟ قال: نعم، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون)[2].

وعن ابن عباس قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق[3].

فآدم كان نبياً موحداً، أنشأ الله من ذريته أمة كانت على التوحيد الخالص، وتوالت الأزمنة حتى بدأ الانحراف عند قوم نوح عليه السلام، وكانت بداية الانحراف غلواً في تعظيم الصالحين، ثم اتخاذهم آلهة من دون الله، فكان لا بد من إرسال رسول يصحح هذا التصور ويرفع راية التوحيد، فبعث الله نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول مبعوث لما ورد في حديث الشفاعة أن الناس يأتون نوحاً فيقولون له: (يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسمَّاك الله عبداً شكوراً)[4].

قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وقالوا: لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يغوثَ ويعوقَ ونسْراً﴾[5].

أخرج البخاري عند تفسير هذه الآية حديث ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٦/١٣٣.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٣) المستدرك: ٢/٥٤٦ ـ ٥٤٧، تقدم تخريجه.

(٤) صحيح مسلم (الإيمان ٣٢٧): ١/١٨٥، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٧٥هـ.

(٥) سورة نوح: الآية ٢٣.

الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسمّوها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العام عُبدت)[1].

وينتصر الحق وترتفع راية التوحيد من جديد ويُهلك الله الذين كذبوا نوحاً فيغرقهم بالطوفان، ولا يبقى في الأرض إلاَّ المؤمنون الموحدون، وتمر الأزمنة ليبدأ الانحراف من جديد ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أنِ اعبدوا اللَّهَ ما لكم من إلَه غيرُه أفلا تتقون﴾[2].

وتاريخ الرسل في القرآن الكريم يدل على أن الله تعالى شاء أن تبقى راية التوحيد مرفوعة في كل عصر، فهو يرسل الرسل كلما انحرف الناس عن هذه الحقيقة ويظهر من ذلك أنه لم تمر فترة على البشرية وهم يجمعون على الضلال والكفر.

يقول الأستاذ عمر الأشقر[3]: (وبالتأمل في دعوة الرسل التي عرضها القرآن الكريم تتبيَّن لنا الحقائق التالية:

الأولى: أن الله خلق الإنسان منذ البداية خلقاً سوياً مؤهلاً لعبادته.

الثانية: عرَّفه على نفسه منذ البداية فأرسل رسلاً للبشرية كلها ﴿وإن منْ أمةٍ إلاَّ خَلا فيها نذير﴾)[4].

الثالثة: دعوة الرسل واحدة أصلها ولُبّها التوحيد.

الرابعة: دين الرسل جميعاً الإسلام: ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[5].

---

(١) صحيح البخاري (التفسير): ٦/٧٧، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول.

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان ٣٠، ٣١.

(٣) انظر: العقيدة في الله، عمر الأشقر: ص ٢٣٣ ـ ٣٣٥، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ. دار الفلاح، الكويت.

(٤) سورة فاطر: الآية ٢٤.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

ونوح يقول: (﴿وأُمِرتُ أن أكون من المسلمين﴾[1]، وقال الله عن التوراة: ﴿يحكمُ بها النبيّون الذين أسلموا﴾)[2].

ووصية إبراهيم ويعقوب لبنيه: ﴿يا بَنيّ إن اللَّهَ اصطفى لكم الدينَ فلا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾[3].

وكان من دعاء يوسف عليه السلام: ﴿توفَّني مسلماً﴾[4].

وأخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»[5].

الخامسة: ليس السبب في الشرك واتخاذ المعبودات من دون الله الترقي في العقيدة خلال القرون ــ كما ذهب العقاد ومن تابعه من الغربيين الذين قالوا بالتطور ــ بل سببه انحراف أتباع الرسل عما جاءهم به الرسل، قال الله تعالى مبيناً انحراف النصارى عن التوحيد: ﴿اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا إلاَّ ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلاَّ هو سبحانه عما يشركون﴾[6].

وجملة القول فإن البشرية قد بدأت موحدة، ثم انتقلت إلى التعدد والشرك، وكانت رسالات السماء تردها مرة بعد أخرى إلى أن جاء الإسلام دعوة عالمية وخاتماً للأديان.

وبالإضافة إلى ما سبق من بيان القرآن الكريم أن عقيدة التوحيد قد ابتدأت مع آدم عليه السلام، وأن الرسل جميعهم جاءوا يحملون شعارها، ويعملون على

---

(١) سورة يونس: الآية ٧٢.
(٢) سورة المائدة: الآية ٤٤.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٢.
(٤) سورة يوسف: الآية ١٠١.
(٥) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء: ١٤٢/٤.
(٦) سورة التوبة: الآية ٣١.

استقرارها في الأرض، فإن القرآن الكريم يخبرنا أن هذه العقيدة قضية فطرية، وأن فطرة الله التي فطر الناس عليها هي فطرة الإسلام التي هي التوحيد الخالص، قال الله تعالى: ﴿فأقِم وجهَك للدين حنيفاً، فطرةَ الله التي فطرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلْق الله، ذلك الدينُ القيِّم ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمون﴾[1].

ويبين القرآن الكريم كذلك أن الله تعالى قد أخذ على الآدميين عهداً قبل أن يخرجوا إلى هذه الحياة، يتمثل ذلك العهد بالاعتراف لله تعالى بوحدانيته وأنه خالقهم وربهم، فيقول جل شأنه: ﴿وإذْ أخذَ ربُّك من بني آدمَ مِن ظُهورهم ذريَّتهم وأشهدَهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾[2].

فهاتان الآيتان بيَّنتا أن العباد كلهم مفطورون على التوحيد، وأنه الأصل في بني آدم، وقد فسر مجاهد الفطرة بأنها الإسلام[3].

قال الطبري: (يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد ربك، إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك وإقرارهم به)[4].

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجْتالَتهم الشياطين وحرَّمت عليهم ما أحللت، وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطاناً»[5].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: ما مِن مولود إلاَّ يولد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويمجِّسانه، كما تُنْتَج البهيمة جمعاء، هل

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢١/ ٤٠.

(٤) تفسير الطبري: ٩/ ١١٠ ـ ١١١.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الجنة: ٦٣، ٤/ ٢١٩٧.

تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هـريرة: اقـرأوا إن شئتم: فطرة الله التي فـطر الناس عليها)[1].

قـال ابن القيِّم رحمه الله: (فجمـع عليه الصـلاة والسلام بين الأمـرين، تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخلقة بالجـدع، وهما الأمـران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما، فغير فطرة الله بـالكفر، هـو تغيير الخلقـة التي خلقوا عليهـا، وغيَّر الصورة بالجدع والبتك، فغيّر الفطرة إلى الشرك والخلقـة إلى البتك والقـطع، فهذا تغيير خلقة الروح وهذا تغيير خلقة الصورة)[2].

ويقول كذلك: (فالقلوب مفطورة على حب إلَهها وفـاطرهـا وتأليهـه، فصرْفُ ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة)[3].

وبمـا أن معرفـة الله وتوحيـده فـطرة في النفـوس، لـذلـك لمـا شـك الأقـوام المكـذبون لـرسلهم في الدعـوة لتوحيـد الله استغرب الـرسل هـذا الشـك فقـالـوا: ﴿أفي الله شك﴾[4].



(١) رواه البخـاري في كتـاب الجنـائـز بلفظ (كـل مـولـود)، ورواه مسلم في كتـاب (القــدر): ٤/٢٠٤٧.

(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم: ٢/١٠٧، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

(٣) نفس المرجع: ٢/١٥٨.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ١٠.



المبحث الثاني

التوحيد عقيدة الرسالات السماوية

عندما نطلق تعبير الرسالات السماوية على الإسلام والنصرانية واليهودية، فإننا لا نعني أن النصرانية واليهودية ديانتان سماويتان فعلاً لا زالتا تلتزمان بمنهاج السماء، فالتحريف في كتبهم وعقيدتهم أمر محقق لا شك فيه، وكل ما نعنيه أنهما سماويتان في أصلهما.

أما الإسلام فإنه الدين الوحيد الذي سلِم كتابه من التحريف والتبديل وسنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله.

ونريد الآن أن نبين كيف أن القرآن الكريم قد دعا إلى التوحيد، بل اعتبر هذه الدعوة عنصراً أساسياً وبخاصة في القسم المكي منه. وبعد ذلك سنورد نصوصاً من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، تتضمن هذه النصوص دعوة صريحة إلى التوحيد رغم التحريف والتبديل اللذين أصابا هذه الكتب.

والهدف من ذلك أن نثبت أن التوحيد هو عقيدة هذه الكتب في الأصل، جاء به الرسل جميعاً، (ولكنه حرِّف ودخلت عليه الأساطير في شتى المعتقدات سواء في الديانات التي تنسب إلى السماء أو في الوثنيات التي اختلطت فيها بقايا الديانات السماوية بالأساطير في شتى الأزمان)[1].

يقرر القرآن الكريم حقيقة التوحيد ويؤكدها في كثير من آياته، وإذا كان لكل دين صفة رئيسية يمتاز بها، فإن الإسلام يوصف بأنه دين التوحيد. وللقرآن أسلوب

---

(١) خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب: ص ٣١٠ القسم الأول، طباعة دار القرآن الكريم ــ بيروت ــ دمشق، نشر الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ــ الكويت ١٣٩٨هـ.

فريد في الدعوة إلى التوحيد، فلقد دعا إلى أن وحدانية الله صريحة منزهة لا شائبة فيها، كما أن دعوته شملت التوحيد بأنواعه الثلاثة، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، ولم يلجأ في إثبات هذه الحقيقة إلى خوارق العادات أو القوارع التي تخرس الألسنة، وإنما احتكم إلى الفطرة والعقل، يخاطب الفطرة السليمة التي فطرت على الإيمان بإله واحد لهذا الكون، ويخاطب العقل يطلب منه النظر والتدبر في ملكوت الله ليدرك أن هذا الإبداع وهذا التناسق في الكون لا بدَّ له من مبدع.

ويذكر القرآن تاريخ التوحيد مشيراً إلى أن جميع الرسل والأنبياء كانوا على التوحيد، وعبادته تعالى وحده.. والقرآن من خلال قصصه عن الأمم الغابرة يؤكد هذه الحقيقة ويركزها في الأذهان.

وسنقدم بعض الآيات القرآنية التي دعت إلى التوحيد، وإن كنا لن نستطيع هنا أن نفصل في ذلك، فلن يفوتنا أن نشير إلى بعض الآيات القرآنية التي جاءت لإثبات حقيقة التوحيد الخالدة، ومن هذه الآيات قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إن الله ربّي وربُّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿واعبدوا اللَّهَ ولا تُشركوا به شيئاً﴾[٢]. وتختتم سورة المائدة بهذا الاستجواب الإلّهي لعيسى عليه السلام الذي تقوَّل الناس عليه وافتروا عليه، هذا الاستجواب في مسألة الألوهية التي ادعاها النصارى له ولأمّه: ﴿وإذ قال اللَّهُ يا عيسى بنَ مريمَ أأنتَ قُلتَ للناس اتخذوني وأمّيَ إلَهيْن من دون الله، قال سُبحانَك ما يكونُ لي أنْ أقولَ ما ليس لي بحق، إنْ كنْتُ قلتُه فقد علمته، تعلمُ ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علَّام الغيوب. ما قلتُ لهم إلَّا ما أمرتني به أنِ اعبدوا الله ربي وربّكم، وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفَّيْتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾[٣].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٥١.

(٢) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٣) سورة المائدة: الآيتان ١١٦ ــ ١١٧.

فالتوجه إلى الله وحده بالعبادة هو الأمر الذي وجهه عيسى عليه السلام لأتباعه وهو يبرأ يوم القيامة من كل الذين ادعوا فيه ما لا علم له به.

ويبيّن القرآن الكريم أن دعوة (نوح) عليه السلام، قامت على التوحيد فكان أول شيء خاطب قومه به عبادة الله وحده والإيمان بألوهيته سبحانه: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره، إني أخافُ عليكم عذاب يوم عظيم﴾[1].

وكذلك الحال مع (هود) عليه السلام: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره أفلا تتقون﴾[2].

والدعوة نفسها يرفع لواءها (صالح) عليه السلام: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره قد جاءتكم بينة من ربكم﴾[3].

وهذا (شعيب) عليه السلام يردد نفس الحقيقة: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره قد جاءتكم بينة من ربكم﴾[4].

ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة من خلال قصة موسى في سورة طه فيقول: ﴿وهل أتاك حديث موسى، إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً، لعلي آتيكم منها بقبس، أو أجدُ على النار هُدى. فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طُوى. وأنا اخترتُك فاستمع لما يوحى. إني أنا الله لا إلّه إلَّا أنا فاعبدْني وأقِمِ الصلاة لذكري، إن الساعة آتية أكادُ أُخفيها لِتُجزى كلُّ نفس بما تسعى﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٩.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٦٥.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٣.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٨٥.
(٥) سورة طَه: الآيات ٩ ـ ١٥.

أمـا في سورة الأنبيـاء فيلخص القرآن الكـريم دعوة الـرسـل جميعـاً بحقيقـة التوحيد فيقول: ﴿وما أرسلنـا من قبلك من رسول إلاَّ نـوحي إليه، أنـه لا إلّه إلاَّ أنـا فاعبدون﴾[1].

هذه هي دعوة الـرسل كمـا بينها القـرآن الكريم عنـد قصة كـل رسول منهم، وبقي أن نبيِّن أن دعوة نبينا محمد ﷺ ما كانت إلاَّ اكتمال العقـد، والحلقة الأخيـرة في سلسلة الأنبيـاء والمرسلين عليهم الصـلاة والسلام، فـلا عجب إذا رأينا التـركيز الواضح على التوحيد في رسالته صلوات الله وسلامه عليـه، ولا عجب إذا علمنا أن القرآن الكريم مكث ثـلاثة عشـر عامـاً يتنزل في مكـة يخاطب النـاس بهذا الأصـل الأصيل، ويأتي بأساليب كثيرة لتثبيته في النفوس، فكان القرآن مليئاً بهـذه النصوص والأدلة القاطعة.

يقـول الشيخ (محمـد العدوي) رحمـه الله: (لقد أفـاض القـرآن الكـريم في الحديث على وحدانية الله تعالى في خلقـه ورزقه وإحيـائه وإمـاتته، كمـا أفاض في الكلام على وحدته في العبادة، وأنه لا يصح أن نعبد غيره أو نلجأ لسواه، ولمـا كان العرب يعترفون بأن الله تعـالى هو الـذي خلق السموات والأرض ولم يشـأ أن نذكـر ذلـك النوع من التـوحيد إلاَّ على سبيـل التذكيـر بتلك الوحـدة، وحمل القـوم على الاعتراف بها لينقلهم من ذلك الاعتراف إلى توحيد الله تعالى في العبادة)[2].

والآيات القرآنية التي عالجت قضية الوحدانية وجاءت لإقرارها بوسائل الفطرة والعقل والنظر كثيرة شملت أنواع التوحيد الثلاثة، وإن كان التركيز فيها على تـوحيد الألوهية والعبادة لأن العرب لم تكن تعترف به.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٢) دعـوة الرسـل إلى الله تعالى، محمـد أحمد عـدوي: ص ٣٧١، مطبعـة مصـطفى البـابـي الحلبـي وأولاده ــ مصر ١٣٥٤هـ.

التوحيد في العهد القديم :

يشمل العهد القديم ثمانية وثلاثين سفراً، تقسم إلى ثلاثة أقسام، هي :

١ ــ **التوراة**: وتحتوي خمسة أسفار:

التكوين، الخروج، اللاويون (الأحبار)، العدد، التثنية.

٢ ــ **أسفار الأنبياء الأولين**: وهي ستة أسفار:

يشوع، القضاة، صموئيل الأول، صموئيل الثاني، الملوك الأول، الملوك الثاني.

والآخرين: وهي أربعة عشر سفراً:

أشعيا، أرميا، حزقيال، هوشع، يوئيل، عاموس، عوبديا، يونس (يونان)، ميخا، ناحوم، حبقوق، حجي، زكريا، ملاخي.

٣ ــ **المكتوبات**: وهي ثلاثة عشر سفراً:

(أ) **الكتب العظيمة**: وهي :

مزامير داود، أمثال سليمان (الأمثال)، تاريخ أيوب.

(ب) **المجلات الخمس**:

نشيد الإنشاد، راعوث، مراثي أرميا، الجامعة، أستير (وهو قصة امرأة يهودية جميلة اسمها أستير).

(ج) **الكتب**: وهي خمسة أسفار:

أخبار الأيام الأول، أخبار الأيام الثاني، نحميا، عزرا، دانيال. والكنيسة الكاثوليكية تضيف سبعة أسفار هي :

طوبيا، يهوديت، الحكمة، يسوع بن سيراح، ياروخ، المكابيّون الأول، المكابيون الثاني[1].

---

(١) هذا التقسيم من كتاب العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنّكة الميداني: ص ٥٥٩ ــ ٥٦٥، الطبعة الثانية، دار القلم ــ دمشق ــ بيروت ١٣٩٩هـ.

التوحيد في العهد القديم:

وقد وصف الله تعالى التوراة بقوله: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هُدىً ونور﴾[1] كما ورد في الحديث الشريف أن الله كتب التوراة قبل أن يخلق آدم بأربعين سنة[2].

يقول الشيخ (الهراس): (وقد ورد ذكر التوراة في القرآن الكريم في عدة مواضع، ووصفت بأنها هدى ونور وذكر، وأن الله أمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها، ويأخذوها بقوة ويقيموا أحكامها وأن يشترطوا بها ثمناً قليلاً، وأن لا يحرفوا كلمها عن مواضعه)[3].

غير أن اليهود لم يلتزموا بهذه الأوامر فلقد حرّفوا وبدلوا وأضافوا وحذفوا حسب أهوائهم.

ومع كل هذه التحريفات فلقد بقيت التوراة دعوة صريحة في كثير من نصوصها إلى التوحيد، والمتتبع لأسفارها يجد آيات كثيرة، تصرح بتوحيد الله تنفي عنه الشرك، كما أنها جاءت بتفاصيل العبادة التي لا تنبغي إلا لله، وفيها تحذير واضح من الشرك والوثنية، وكذلك بقية أسفار العهد القديم.

يروي سفر الخروج مجموعة وصايا أوصى الله بها نبيه موسى عليه السلام حينما كلمه على جبل سيناء، فيقول: (تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلاً: أنا الرب إلّهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض، ولا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلّهك، إلّه غيور)[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٢) انظر: صحيح مسلم (القدر: ١٥): ٤/٢٠٤٣.

(٣) دعوة التوحيد: أطوارها والأدوار التي مرت بها، محمد خليل الهراس: ص ٢٠٧، مطبعة الإمام ــ مصر.

(٤) الخروج: ٢٠/١ ــ ٥.

فأنت تلاحظ أن هذه الوصايا قد ابتدأت بتقرير حقيقة التوحيد (أنا الرب إلّهك . . لا يكن لك آلهة أخرى). بل إنها تنهى عن الشرك بكل مظاهره فتجد فيها النهي عن النحت والتصوير والتماثيل التي من شأنها أن تقود إلى عبادة غير الله تعالى بتعظيم هذه التماثيل والصور.

ويرد في الإصحاح الثالث والعشرين من نفس السفر التحذير من السجود لآلهة الوثنيين: (لا تسجد لآلهتهم ولا تعبدها ولا تعمل كأعمالهم بل تبيدهم وتكسر أنصابهم، وتعبدون الرب إلّهكم)[1].

هذا الإلّه الواحد في التوراة ليس له شبيه كما ورد في الإصحاح الثامن من سفر الخروج، (لكي تعرف أن ليس مثل الرب إلّهنا)[2].

وفي الإصحاح الثاني والعشرين تحذير من الذبح لآلهة من دون الله لأن ذلك مظهر من مظاهر الشرك: (من ذبح لآلهة غير الرب وحده يهلك)[3].

وفي سفر اللاويين تحذير من الأوثان وعبادتها فيقول: (لا تلتفتوا إلى الأوثان، وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم أنا الرب إلّهكم)[4].

وفي الإصحاح السادس من سفر التثنية نجد وصية جامعة لإسرائيل: (وهو يعقوب عليه السلام) يقرر الله له فيها وحدانيته، ويأمره أن يعلمها لأبنائه، ويجعلها شعاره فيقول: (اسمع يا إسرائيل الرب إلّهنا رب واحد، فتحب الرب إلّهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك، ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك، وقُصَّها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك، وحين تمشي في الطريق، وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة في يدك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك)[5].

---

(١) الخروج: ٢٣/٢٤ ـ ٢٥.
(٢) الخروج: ٨/١٠.
(٣) الخروج: ٢٢/١٠.
(٤) اللاويون: ١٩/٤.
(٥) التثنية: ٦/٤ ـ ٩.

وفي نفس هذا الإصحاح تذكير لإسرائيل وشعبه أن لا ينسى ربه (فاحترز لئلا تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، الرب إلّهك تتقي، وإياه تعبد وباسمه تحلف، لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم)[1].

وفي الإصحاح السابع من هذا السفر يأمر الله بني إسرائيل أن يعاملوا الأمم الوثنية بشدة، فلا يشفقوا عليهم ولا يقطعوا لهم عهداً ولا يصاهروهم: (لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم، بنتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك، لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى.. تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار)[2].

أما الإصحاح الثالث عشر فيشن حملة مشددة على المرتدين من بني إسرائيل الذين تستهويهم عبادة الأصنام، ويبين عقوبة هؤلاء المرتدين فيقول: (إذا أغواك سراً أخوك ابن أمك، أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلاً: نذهب ونعبد آلهة أخرى.. فلا ترضَ ولا تسمح له، ولا تشفق عينك عليه، ولا ترق له، ولا تستره بل قتلاً تقتله.. ترجمه بالحجارة حتى يموت، لأنه التمس أن يطرحك عن الرب إلّهك)[3].

وتحكم التوراة على المدينة إذا ارتدت أن تحرق بكاملها: (إن سمعت عن إحدى مدنك.. قد خرج أناس وطوّحوا سكان مدينتهم قائلين: نذهب ونعبد آلهة أخرى. وفصحت وفتشت وسألت الأمر جيداً وإذا الأمر صحيح وأكيد.. فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف.. تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة)[4].

واسمع إلى (نحميّا) في مناجاته إذ يقول: (أنت هو الرب وحدك)[5]، وفي

---

(١) التثنية: ٦/١٠ ـ ١٥.

(٢) التثنية: ٧/٢ ـ ٥.

(٣) التثنية: ١٣/٦ ـ ١٠.

(٤) التثنية: ١٣/١٢ ـ ١٦.

(٥) نحميا: ٩/٦.

سفر (أيوب): (أوليس صانعي في البطن صانعه، وقد صوَّرنا واحد في الرحم)[1].

ونجد تنزيه الله عن المثيل في المزمور الأول (يا الله من مثلك)[2]؟ وفي سفر (أشعيا) دعوة إلى الله الواحد بتخليصهم من (سنحاريب) ملك آشور: (والآن أيها الرب إلٓهنا خلصنا من يده فتعلم ممالك الأرض كلها أنّك أنت الرب وحدك)[3].

ونجد في سفر أشعيا كذلك: (أنا الرب وليس آخر لا إلٓه سواي)[4]. وفي (أرميا): (لا مثل لك يا رب، عظيم أنت، وعظيم اسمك في الجبروت)[5].

وفي سفر (ملاخي): (أليس أب واحد لكلنا، أليس إلٓه واحد خلقنا)[6].

وأسفار العهد القديم مليئة بأمثال هذه النصوص التي تدل صريحة على وحدانية الله تعالى وعدم جواز عبادة غيره.

والغريب أن النصارى يقرأون هذه النصوص في العهد القديم ويعتبرون ذلك جزءاً من الكتاب المقدس الذي بين أيديهم، ومع كل هذا تراهم يعطلون عقولهم عن التفكير ويسيرون وراء رجال الدين الذين شرعوا لهم ما لم يأذن به الله!!

التوحيد في العهد الجديد:

العهد الجديد عند النصارى يشمل الأناجيل الأربعة المتداولة بينهم وهي: إنجيل متّى، وإنجيل مُرقُص، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، كما يشمل مجموعة أعمال الرسل، ورسائل بولس، وهي أربع عشرة رسالة بعثها إلى أهل بلاد عديدة وأشخاص وإلى العبرانيين. ثم رسائل بطرس ويوحنا ويعقوب ورؤيا يوحنا، ومع التحريف الذي وقع على هذه الكتب، واستبدال عقيدة التثليث الدخيلة بعقيدة

---

(١) أيوب: ٣١/١٥.
(٢) المزمور الأول: ٧١/١٩.
(٣) أشعيا: ٣٧/٢٠.
(٤) أشعيا: ٤٥/٥.
(٥) أرميا: ١٠/٦.
(٦) ملاخي: ٢/١٠.

التوحيد الأصيلة، إلَّا أن هذه الكتب لا تخلو من النصوص التي تصرِّح بوحدانية الله تعالى.

ونظراً لأننا سنتحدث عن هذا الموضوع في أكثر من موضع من بحثنا، فإننا سنقتصر هنا على نص واحد من كل إنجيل من الأناجيل الأربعة، وعلى نصوص من بعض الرسائل.

فقد ورد في إنجيل (متى) أن إبليس طلب من المسيح عليه السلام أن يسجد له من دون الله حينئذٍ قال له يسوع: (اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب إلٰهك تسجد وإيّاه وحده تعبد)[١].

وفي إنجيل (مرقص) جاء أحد الكتبة يسأل يسوع عن أول وصيَّة في الناموس: فأجابه يسوع: (إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الرب إلٰهنا رب واحد)[٢].

وفي إنجيل (لوقا) يناجي المسيح ربه فيقول: (أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض)[٣].

وكذلك الحال في إنجيل يوحنا، فإن المسيح يرفع عينيه نحو السماء فيقول: (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإلٰه الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته)[٤].

وفي رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (لأن الله واحد)[٥].

وفي رسالته إلى أهل غلاطية: (وأما الوسيط فلا يكون لواحد، ولكن الله واحد)[٦].

وفي رسالة يعقوب: (أنت تؤمن أن الله واحد، حسناً تفعل)[٧].

***

(١) متّى: ٤/١٠.
(٢) مرقص: ١٢/٢٩.
(٣) لوقا: ١٠/٢١.
(٤) يوحنا: ١٧/٣.
(٥) رومية: ٣/٣٠.
(٦) غلاطية: ٣/٢٠.
(٧) يعقوب: ٢/١٩.

المبحث الثالث

دعـوة المسـيح الحقيقـيّة

أحببت أن أكتب عن دعـوة المسيـح الحقيقيـة، تلك الـدعـوة التي جـاء بهـا المسيح عليه السلام، وبشَّر بها في حياته، ورأيت أن أجعلها سـابقة في بحثي على المسيحيـة بمعتقداتهـا الحاضـرة، وذلك لكي تتضـح الحقيقة من البـداية، ويـظهـر الفـرق البعيد بين المسيحيـة التي جاء بهـا عيسى عليه السـلام وبين المسيحية التي يدين بها النصارى اليوم.

ولكنني في البـداية أقف أمـام هذا التسـاؤل: مـا المصـدر العلمي التـاريخي الصادق الذي يعطينا الحقيقة حول هذه القضية؟ أهي الروايات التاريخية المضطربة في رواياتها؟ أم أنها الأناجيل التي سردت حياة السيد المسيح؟ وهذه الأناجيل: هل نعتمد فقط على الأربعة التي تعترف بها الكنيسة؟ أم لا بد من الرجوع إلى الأناجيل الأخرى الكثيرة التي لا تعترف بها الكنيسة؟.

وحتى الأناجيل المعترف بها، هل نالت حـظها من الثقـة التاريخيـة، وتوثقت روايـاتها أو تـوافقت وخلت من الاختلاف والتبـاين حتى تنال احتـراماً علميـاً؟ وهـل سلمت هذه الأناجيل من النقد الشديد من علماء المسيحية أنفسهم، الذين منهم من أسلم واهتدى إلى الحق ومنهم من بقي على مسيحيته؟.

إن الروايات التاريخية لم تسعفنا بإعطاء الحقيقة، لأن العهد قد بعد وأحداث الاضطهاد في بداية المسيحية جعلت الأمور غامضة خفية ليس من السهل تقصيها.

إنه ليس من المسلم به أن الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم وحدها التي عرفت بل هناك أنـاجيل نقـرأ عنها مثـل إنجيل الـطفولـة، وإنجيل الـولادة، وأناجيـل مريم والسبعين، ومرقيون، والتذكرة، وغيرها مما لم نسمع بـه ولم نقرأ عنـه، وبين أيدي الباحثين أيضاً إنجيل (برنابا) الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

(ومن الجدير بالذكر أن الأناجيل الأربعة، التي يقال إنها كتبت بين سنتي ٣٧، ٩٨ لم يذكر خبرها أي أثر تاريخي قبل سنة ٢٠٠م ثم أخذت المصادر تذكرها، غير أنه ليس هناك ما يثبت علمياً أن النصوص المتداولة هي نفس النصوص التي كتبت لأول مرة بقطع النظر عما بينها من تناقض وتباين وما فيها من هنات وثغرات)[١].

القرآن الكريم هو المصدر:

نحن المسلمين نعتبر القرآن الكريم قطعياً وروده وثبوته، وأنّه من كلام الله تعالى: ﴿وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين، نزلَ به الروحُ الأمين، على قلبك لتكونَ من المنذِرين، بلسانٍ عربي مبين﴾[٢]. ونقله محمد ﷺ عن جبريل وأبلغه لأصحابه، فجاءنا مكتوباً ومحفوظاً في الصدور بطريق التواتر بنقل الكافة عن الكافة، وهكذا تناقلته الأجيال عبر القرون حتى بلغ إلينا كهيئته يوم أنزل، وقد تكفل الله بحفظه: ﴿إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[٣].

ويقرّ بذلك أي باحث نزيه يدرك إعجاز القرآن، ويدرك أنه لا يمكن لبشر أن يأتي بمثله، ويثبت ذلك الطريق العلمي الذي وصل به إلينا.

فهذا القرآن بكل ما فيه من أوجه الإعجاز المختلفة يحمل إلينا أكبر الشواهد على مصدره الإلَهي، إذ ليس بمقدور البشر مهما بلغوا أن يؤلفوا قرآناً مثله، وهو قد تحدى العرب قاطبة أن يأتوا بمثله في بلاغته وفصاحته، وعجزوا. ويتحدى البشرية كلها أن يأتوا بمثله أنظمة وتشريعاً، وعجزوا.

والقرآن الكريم فيه من الحقائق العلمية ما لم يكشفه الناس إلاَّ في هذا العصر إلى غير ذلك من أوجه الإعجاز التي لا مجال لتفصيلها هنا.

---

(١) القرآن والمبشرون، محمد عزة دروزة: ص ٥٩ الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي، دمشق ــ بيروت.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ ــ ١٩٥.

(٣) سورة الحجر: الآية ٩.

أمـا طريقـة نقله فقـد تمت بـطريقتين: (الـطريق الأول في أخـذ القـرآن عن صـاحب الوحي، ثم في انتشـاره بعـد بين النـاس، هـو التلقي على سبيـل التـواتـر والاستفاضة، فالنبـي ﷺ يقرأ ما يجيئه من عند ربه، والصحابة يسمعون ويحفظون، ويكـررون ذلك في صلواتهم أمـام بعضهم، وأمام رسـول الله ﷺ، فالـرسـول يقـرأ والصحابة يستمعون، هكذا لا في أعوام قليلة بل في قرابة ربـع قرن، ولا مـع رجل واحد أو قبيلة واحدة بل بين الألوف المؤلفة من الناس.. وبهذا التواتـر الرائـع ثبت القرآن ثبوتاً لا مجال فيه لظنون أو أوهام)[1]. (أما الطريق الثاني فهو الكتابة، كـانت الآيات تنزل فيبادر الكتبة إلى تسجيلهـا)[2]، (فلما انتقـل رسول الله ﷺ إلى الـرفيق الأعلى كان القرآن محفوظاً في الصدور وكذلك مثبتاً في السطور)[3].

وشبهـة وضـع محمـد ﷺ للقـرآن الكـريم أثـارهـا بعض الحـاقـدين الـذين لم يستطيعوا الصمود أمام عظمة القرآن، ولكنها شبهة متهاويـة، يرد عليهـا الدكتـور (دراز) رحمه الله فيذكر أن القرآن نفسه يذكر أنه ليس من عمـل محمد ﷺ، ويـذكر آيات تدل على مصدره الإلٓهي وأن محمداً ﷺ لم يكن إلاَّ واسطة: ﴿قل لو شاء اللَّهُ ما تلوته عليكم ولا أدراكم به﴾[4].

يقـول الدكتـور (دراز): (في الحق إن هذه القضيـة لو وجـدت قاضيـاً يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه ذلـك أنها ليست من جنس الدعاوى تحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع الإقرار الذي يؤخـذ به على صاحبه فأي مصلحة له أن ينسب بضاعته لغيره)[5].

---

(١) نظرات في القرآن، محمد الغزالي: ص ٢٨. دار الكتب الحديثة ــ القاهرة، الطبعة الثـانية ١٣٨٢هـ.

(٢) نفس المرجع: ص ٣٣.

(٣) نفس المرجع: ص ٣٥.

(٤) سورة يونس: الآية ١٦.

(٥) النبـأ العظيم، محمـد عبد الله دراز: ص ٢١ ــ ٢٢. دار القلم ــ الكـويت الطبعـة الثـانيـة ١٣٩٠هـ.

محمد ﷺ لم يَدَّعِ مطلقاً أن القرآن من عنده، ولو كان من عنده لافتخر بهذا الإنتاج الضخم ولَما نسبه لغيره.

ومن ناحية أخرى، فإن القرآن الكريم قد اشتمل على معارف لم يكن يعرفها محمد ﷺ من قبل: (بل إن جميع معارف عصر نزول القرآن ـ لا معارف النبي وبيئته ـ ومعارف عصور لاحقة لا تمثل شيئاً من شمول المعرفة القرآنية وتنوعها وعمقها، فإن لم يكن هذا وحياً فأي شيء يكون؟)[1].

أما عن شهادات الباحثين الغربيين لهذا القرآن فهي كثيرة جداً، فالقرآن قد اتخذ مكانة علمية مرموقة بين الأوساط العلمية في الغرب المسيحي نفسه، وينقل لنا الأستاذ (مالك بن نبي) عن الكاتب الفرنسي (مونتيه) صاحب (تاريخ الكتاب المقدس) قوله: (ولقد امتاز القرآن الكريم بميزة فريدة هي أنه تنقل منذ أربعة عشر قرناً دون أن يتعرض لأدنى تحريف أو ريب، وليست هذه حال العهد القديم الذي لم تعترف له بالصحة الدراسة النقدية للشرَّاح المحدثين)[2].

وقد ألَّف الكاتب الفرنسي الدكتور (موريس بوكاي) كتاباً بعنوان: (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث) عرض فيه الكتب الثلاثة على العلم الحديث وخرج بنتيجة هي أن القرآن الكريم وحده، هو الكتاب الذي يقف صامداً أمام العلم الحديث ولا يستطيع العلم إلَّا أن يقول بثبوته القطعي، وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب الذي ترجم من الفرنسية إلى العربية: (وثمَّة فرق رئيسي آخر بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ذلك هو غياب النص الموحى به، والمحدد في الوقت نفسه، عند المسيحية، بينما يملك الإسلام القرآن الذي يحقق هذا التعريف: إن القرآن هو نص الوحي المنزل على محمد من سيد الملائكة

---

(١) دراسات قرآنية، عدنان زرزور: ص ٦٢. مكتبة دار الفتح ـ دمشق الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ.

(٢) الظاهرة القرآنية، مالك من نبي: ص ١١١، ترجمة عبد الصبور شاهين، نشر: الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية ـــ الكويت ١٣٩٨هـ.

جبريل وقد كتب في الحال، ثم حفظه المؤمنون عن ظهر قلب ورددوه أثناء صلواتهم..)[1].

وهذا التعريف لا ينطبق على الكتاب المقدس عند النصارى، فيقول في ذلك: (وخلافاً لما جرى في الإسلام، فإن الوحي المسيحي انبنى على شهادات إنسانية متعددة وغير مباشرة، لأننا لا نملك أية شهادة من شاهد عاين حياة المسيح خلافاً لما يتصوَّره كثير من المسيحيين، وهكذا تجدها مطروحة: مسألة أصالة نصوص الوحي المسيحي والوحي الإسلامي)[2].

ولقد عرض الأستاذ (بوكاي) فصولاً في كتابه بيَّن فيها تاريخية النصوص في العهدين القديم والجديد، وبيَّن التناقضات التي حوتها، وتناقضها مع العلم الحديث، كما بين عدم أصالة هذه النصوص، ويقول في ذلك: (لقد أوضحتْ أعمال النقد الحديث للنصوص برأي الأب (كننغسر) معطيات أقامت ثورة في مناهج التفسير، وأفضت إلى عدم التمسك بحرفية النص في الأعمال المنقولة في موضوع المسيح من الأناجيل)[3].

ويقول: (ولم تعد فكرة الشهود العيان من الإنجيليين قابلة للتبني، رغم أنها ما تزال فكرة العديد من المسيحيين، وثمة دراسات من المعهد التوراتي في القدس للأبوين (بوامار وبنوا) تفيد بأن الأناجيل كتبت وروجعت وصححت مرات عدة)[4].

فنصوص الأناجيل في نظر الأستاذ (بوكاي) مضطربة غير ثابتة، تتضارب مع

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي: ص ١١ ترجمة نخبة من الدعاة بإشراف مجلة الفكر الإسلامي الصادرة عن دار الفتوى اللبنانية، طبع دار الكندي ـ بيروت ١٣٩٨هـ.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي: ص ١١ ترجمة نخبة من الدعاة، بإشراف مجلة الفكر الإسلامي الصادرة عن دار الفتوى اللبنانية طبع دار الكندي ـ بيروت ١٣٩٨هـ.

(٣) نفس المرجع: ص ١٠٤.

(٤) نفس المرجع.

بعضها وتحوي المستحيلات، وتتناقض مع معطيات العلم الحديث، وهذا ما دفعه إلى قوله: (كل ذلك جعل الفكر يذهب إلى أن الأناجيل تحوي فصولاً ومقاطع ناشئة من مجرد الخيال الإنساني، ولكن هذه الأخطاء لا تبرر الشك بوجود رسالة المسيح لأن الشكوك لا تحوم إلاّ حول سياقها فقط)[1].

بعد ذلك بدأ الأستاذ (بوكاي) بالحديث عن نصوص القرآن، تاريخيتها ومدى تطابقها مع معطيات العلم الحديث، وأثبت أصالتها وانسجامها مع الحقائق العلمية فيقول: (إن لأصالة نص القرآن مكانة منفردة بين كتب الوحي لا ينازعه فيها العهد القديم ولا الجديد)[2].

هذا وهناك مئات الشهادات في هذا الأمر، شهد بها باحثون غربيون على عظمة هذا القرآن وإعجازه وأنه ليس من كلام البشر، وهذا كله كان تأييداً لاعتباره المصدر العلمي الوحيد في الحديث عن الأديان السابقة وتاريخها.

أُسُسُ دعوة المسيح عليه السلام وميزاتها:

عند استعراضنا لما ورد في القرآن الكريم عن دعوة عيسى عليه السلام نجد أن هذه الدعوة قد قامت على خمسة أسس، هي:

١ ـ الدعوة إلى التوحيد الكامل:

بيّنا فيما مضى أن التوحيد هو دعوة الرسل جميعاً، ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه، أنه لا إلٓه إلاَّ أنا فاعبدون﴾[3]. ولم يكن عيسى عليه السلام بِدْعاً من الرسل، بل سار على طريق إخوانه من الرسل الكرام، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده.

ففي سورة المائدة نقف أمام مشهد من مشاهد يوم القيامة، (فنسمع استجواباً مباشراً في مسألة الألوهية المدَّعاة لعيسى بن مريم وأمه، استجواباً يوجه إلى عيسى

---

(١) نفس المرجع: ص ١٠٥.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي: ص ١١٩.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

عليه السلام في مواجهة الذين عبدوه ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه في دهش وفزع من هذه الكبيرة التي افتروها عليه وهو منها بريء)[1].

﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلَهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلتُه فقد علمته؛ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلَّا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربَّكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾[2].

وفي سورة مريم ينطق عيسى عليه السلام بهذه الحقيقة وهو طفل في مهده، فتكون أول قضية يواجه بها الناس: ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني شقيّاً﴾[3].

(وهكذا يعلن عليه السلام عبوديته لله، فليس هو ابنه كما تدّعي فرقة، وليس هو إلَهاً كما تدعي فرقة أخرى، ليس هو ثالث ثلاثة هم إلَه واحد وهم ثلاثة كما تدعي فرقة ثالثة، ويعلن أن الله جعله نبياً لا ولداً ولا شريكاً وبارك فيه وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، والبِرّ بوالدته والتواضع مع عشيرته)[4].

وفي سورة المائدة يكشف القرآن الكريم ذلك الانحراف الذي طرأ على النصرانية، ويبين ما قاله المسيح عليه السلام لبني إسرائيل حقيقة مع اعترافه بأن الله ربه وربهم على السواء: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٢/١٠٠٠.
(٢) سورة المائدة: الآيتان ١١٦ ــ ١١٧.
(٣) سورة مريم: الآيات ٣٠ ــ ٣٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٤/٢٣٠٨.

من إله إلاَّ إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾[1].

هذا هو الأساس الأول من أسس دعوته عليه السلام، يجاهر به قومه فيدعوهم إلى عبادة الله وحده، ربه وربهم جميعاً، ويحذرهم من مغبة الشرك وعاقبته المظلمة ويشهد على المنحرفين عن عقيدتهم بالكفر، سواء أكان انحرافهم باعتقادهم ألوهية المسيح أم باعتقادهم أنه ثالث ثلاثة.

وفي سورة الزخرف يأتي النص القرآني بشرح موجز من عيسى عليه السلام يلخص فيه مهمته لقومه: ﴿ولما جاء عيسى بالبيِّنات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيِّن لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون، إن الله هو ربي وربُّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم، فاختلفت الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾[2].

لقد جاءهم بالبينات كأي رسول يؤيد بالمعجزات، وجاءهم بالحكمة وجاء يبين لهم بعض الذي يختلفون فيه من شريعة موسى، ودعاهم إلى عبادة الله وحده ولم يقل عن نفسه إنه إله أو إنه ابن إله، ولكنهم اختلفوا أحزاباً وشيعاً فيه (فلما أن جاءهم المسيح عليه السلام بالتوحيد الذي أعلنه، وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحي والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس)[3].

وهكذا، فإن القرآن الكريم يعرض لنا دعوة عيسى عليه السلام ناصعة نقيَّة من كل شائبة، يعرضه وهو مع إخوانه المرسلين في نفس الصف وعلى نفس المنهج والطريق، يدعو إلى عبادة الله تعالى وحده.

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ٧٢، ٧٣.
(٢) سورة الزخرف: الآيات ٦٣ ــ ٦٥.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/٣٢٠٠.

وقد ذكرنا من نصوص الأناجيل المتداولة بين النصارى ما يثبت ذلك. إن الأناجيل الثلاثة الأولى لا تجد فيها عبارة صريحة تدل على ألوهية المسيح، والإنجيل الذي انفرد بهذه القضية هو إنجيل يوحنا وسنبين فيما بعد هذه الحقيقة.

٢ ـ دعوة روحية، دعت إلى التسامح والتقشف والزهد في الدنيا وبشرت باليوم الآخر:

جاء عيسى عليه السلام على اليهود الذين انحرفوا مع المادة وأفرطوا في تهالكهم عليها، وتركوا تعاليم موسى عليه السلام، فكان لا بد أن تركز رسالته على الناحية الروحية.

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام مكملة لرسالة موسى عليه السلام من قبله، فبينما جاءت رسالة موسى بالشريعة الإلّهية والهدى والنور جاءت رسالة المسيح عليه السلام بأسس أخلاقية روحية يقوم عليها بناء تلك الشريعة.

لقد جاء المسيح عليه السلام والمجتمع اليهودي قد انقسم فرقاً ذهبت مذاهب شتى، وحرفت شريعة الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، فكانت مهمة المسيح عليه السلام تصحيح هذه المعتقدات.

ويذكر الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله بعض هذه الفرق وانحرافاتها فيقول: (كان في اليهود فريق (الصدوقيين)[1] الذين يقولون لا توجد قيامة ولا نشر ولا حساب ولا عقاب، وأن الجزاء في الدنيا، فكان من مهمة المسيح عليه السلام أن يرد هؤلاء إلى عقيدة اليوم الآخر، وأن يثبت الإيمان في قلوبهم ويحذر الناس من اتباعهم).

---

(١) الصادوقيون: كانوا ينتسبون إلى الكاهن (صادقُ) الذي جعله سليمان كبير الكهنة في أورشليم، وكان لهم وحدهم الحق أن يقوموا بخدمة الهيكل فهم كانوا حزب الكهنة، وكان الأرستقراطيون من اليهود يدعمونهم في سياستهم الموالية للرومان، وكانوا الأكثرية في المجلس الأعلى (السنهدرين) وكانوا يرفضون تقاليد الشيوخ وينكرون قيامة الموتى.
انظر: مقدمة كتاب الإنجيل، ترجمة الخوري يوسف عون، بيروت ١٩٧٨م.

وكان بين اليهود أيضاً قوم يقال لهم (الفريسيون)[1].

وحقيقة هذا الاسم أنهم قوم تجردوا لطاعة الله فانقطعوا عن العباد وزهدوا في حطام الدنيا، لكنهم قد انحرفوا عن سنن سلفهم، وأقبلوا على الشهوات. وهم في عملهم يراؤون الناس استدراجاً لهم ليوقعوهم في مخالبهم ويبتزوا أموالهم.. وكان هناك (الكتبة)[2] وكانوا في شؤونهم يشبهون (الفريسيين) في تصيد أموال الناس وخدمة الهيكل، وقد صاروا على حال رديئة يحرفون كلام الله، ويتهالكون على الحطام الفاني.. كل أولئك كانت أحوالهم تستدعي إصلاحاً قويماً ومصلحاً مخلصاً فجاء المسيح عليه السلام لتخليصهم جميعاً)[3].

ولقد وجد المسيح وأتباعه معارضة شديدة من هذه الفرق اليهودية، تعرض من جرائها للخطر لولا أن الله تعالى نجاه منهم برفعه إليه.

ويحدثنا إنجيل متّى عن بعض المواجهات التي كان المسيح يواجهها مع أفراد هذه الفرق، والإصحاحان الثاني والعشرون والثالث والعشرون بمجموعهما تحدثا عن ذلك.

أما الفريسيون فقد جاءوا يحاولون أن يوقعوه في قبضة الرومان، فسألوه أمام

---

(١) الفريسيون: الكلمة من جذر آرامي (فريشو) مفصول ومنعزل، عرفوا بذلك لأنهم كانوا متشددين في الحفاظ على الناموس وعلى تقاليد الشيوخ وشريعة السبت فكانوا يأنفون من معاشرة الذين يخالفون الناموس ويعتبرونه خطأ لا يجوز الاختلاط بهم ولا سيما الوثنيين الذين كانوا بنظرهم بخسين، وكان أكثر علماء الناموس فريسيين فأوغلوا في التظاهر بالتقوى حتى أصبح الرياء والنفاق من صفاتهم فوبخهم السيد المسيح على كبريائهم وريائهم. على أنهم كانوا ضد الحاكم الروماني وينتظرون خلاص إسرائيل من الله بالمسيح المنتظر.
انظر: مقدمة كتاب الإنجيل، ترجمة الخوري يوسف عون، بيروت ١٩٧٨م.

(٢) الكتبة: جمع كاتب وهم علماء الناموس، يفسرون الكتاب والشريعة للشعب، أكثرهم من الفريسيين. انظر: مقدمة كتاب الإنجيل، ترجمة الخوري يوسف عون ١٩٧٨م ـ بيروت.

(٣) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار: ص ٣٩٤، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث ـ بيروت.

(الهيرودوسيين)[1]: (أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربونني يا مراؤون؟ أروني معاملة الجزية، فقدموا له ديناراً فقال لهم: لمن هذه الصور؟ قالوا: لقيصر، فقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)[2].

أما الإصحاح الثالث والعشرون فيبين مواجهة السيد المسيح لهؤلاء، وغضبه من أوضاعهم فيقول لهم: (ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون، لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون، ويل لكم لأنكم تأكلون بيوت الأرامل.. ويل لكم أيها القادة العميان.. فإنكم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء.. أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم)[3].

أما التسامح فإنه يكاد يكون ميزة خاصة لدعوته عليه السلام فقد بلغ القمة في تسامحه حتى مع أعدائه ومبغضيه، ومما دل على ذلك ما ورد في إنجيل متى: (سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم باركوا لاعينكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطرْدونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات)[4].

وفي إنجيل لوقا: (من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضاً، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً، وكلَّ ما سألك فأعطه، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه)[5].

وسأل بعضهم يسوع كم مرة يخطىء إليَّ أخي وأغفر له، هل إلى سبع

---

(١) الهيرودوسيون: أتباع هيرودوس، وكان حاكم الجليل بعد موت أبيه ملك اليهود (هيرودوس الكبير ٧٣ ق.م). انظر: الإنجيل، يوسف عون: ص ١٠٠.

(٢) متى: ٢٢/١٧ ــ ٢١.

(٣) متى: ٢٢/١٣ ــ ١٣.

(٤) متى: ٥/٤٣ ــ ٤٥.

(٥) لوقا: ٢٢/١٧ ــ ٢١.

مرات؟ فنظر إليه يسوع بحزم وأجابه قائلاً: (لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين سبع مرات)[1].

ويزهدهم في الدنيا ومتاعها ويدعوهم إلى التقشف وإلى تزكية النفوس وتطهيرها فيذكر قول أشعيا على لسان الرب: (لماذا لي كثرة ذبائحكم أتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات.. والبخور هو مكرهة لي.. تعلموا فعل الخير، واطلبوا الحق)[2].

ويبشر المسيح عليه السلام باليوم الآخر فيقول: (طوبى لكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله، لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء.. لأنه حيث يكون كذلك، هناك يكون قلبك أيضاً)[3].

وتظهر هذه التعاليم السامية في موعظة الجبل، حيث إنه (لما رأى الجموع تصعد إلى الجبل، ولما استوى جالساً دنا منه تلاميذه ففتح فاه يعلمهم قائلاً: طوبى للمساكين بالروح فإن له ملكوت السماوات. طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض.. طوبى للرحماء فإنهم يرحمون.. طوبى لأنقياء القلوب، فإنهم يعاينون الله، طوبى لفاعلي السلام فإنهم أبناء الله يدعون)[4].

٣ ــ لا توسّط بين المخلوق والخالق في دعوته:

كان المسيح يدعو إلى الاتصال بالله دون وساطة أحد من الكهنة، فالعبادة ما دامت لله وحده فلا توسط بين العابد والمعبود، ولذلك فإن القرآن الكريم نعى على النصارى بقوله: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلّهاً واحداً لا إلّه إلاّ هو سبحانه عما يشركون﴾[5].

---

(١) متى: ١٨/٢١ ــ ٢٢.
(٢) أشعيا: ١/١١، ١٢، ١٦.
(٣) متى: ٦/١٩ ــ ٢١.
(٤) متى: ٥/١ ــ ٩.
(٥) سورة التوبة: الآية ٣١.

وقد كان الكتبة والفريسيون يقومون بدور الوساطة، فيقول لهم المسيح: (ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون)[1].

٤ ـ التبشير بنبوَّة محمد ﷺ:

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بكثير من آياته.. ومنها قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾[2].

وتأتي البشارة صريحة في سورة الصف بقوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾[3].

ولقد وردت هذه البشارة في الأناجيل، وهي في الأناجيل الحالية بلفظ بيركليت، وهي كلمة يونانية بمعنى الذي يحمد كثيراً.

ومن ذلك ما ورد في إنجيل يوحنا: (وأنا أسأل الأب ليعطيكم بارقليطاً آخر معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يطيق العالم قبوله لأنه لا يراه ولا يعرفه أما أنتم فتعرفونه لأنه يقيم عندكم وسيكون فيكم)[4].

٥ ـ دعوة خاصة لبني إسرائيل:

وهذه من أهم خصائص دعوة المسيح عليه السلام، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بعدة آيات كما ذكرت نصوص الأناجيل ذلك.

---

(١) متى: ٢٣/١٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٣) سورة الصف: الآية ٦.

(٤) يوحنا: ١٤/١٦ ـ ١٧.

ولقد حدد القرآن الكريم مهمة رسالة عيسى عليه السلام بأنها مكملة لما جاء به موسى والأنبياء من قبله: ﴿وقفَّينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾[1].

ولذلك، فإننا لا نجد في الإنجيل شريعة متكاملة لأن الشريعة كانت في التوراة وجاء الإنجيل ببعض التخفيفات والتعديلات، فشريعة التوراة هي الأصل لذلك جاء وصف القرآن الكريم لها بأنها إمام، باعتبارها أساساً للتعامل في الديانات التي خص الله بها شعب بني إسرائيل: ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾[2].

وقد حدد القرآن الكريم رسالة عيسى عليه السلام بأنها خاصة لبني إسرائيل بقوله: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾[3].

يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب: (ويفيد هذا النص أن رسالة عيسى كانت لبني إسرائيل فهو أحد أنبيائهم، ومن ثم كانت التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم، هي كتاب عيسى كذلك مضافاً إليها الإنجيل الذي يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير)[4].

والمشكلة التي وقعت فيها النصرانية هي انفصالها عن اليهودية الأم، وتركها شريعة التوراة واستقلالها بديانة جديدة، عندها وجدت النصرانية نفسها بغير شريعة فراح رجال الدين يشرعون لهم ما لم يأذن به الله (فلما وقع ذلك الانفصال في الدين المسيحي عجزت المسيحية عن أن تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والحياة العملية)[5].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٦.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ١٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

(٤) الظلال، سيد قطب: ١/٣٩٩.

(٥) الظلال، سيد قطب: ١/٤٠٠.

حجة النصارى في عالمية النصرانية والرد عليها:

يؤمن النصارى اليوم أن النصرانية دين عالمي ويبشرون به في كل أنحاء الأرض.. رغم أن المسيح عليه السلام وحوارييه ما عرفوا ذلك، واقتصرت دعوتهم لشعب بني إسرائيل.

واعتقاد عالمية النصرانية قديم بدأ به قدِّيسهم (بولس) الذي كان أول من قال بعالمية النصرانية، وأفاض في شرحها برسائله، وتكاد الأناجيل الأربعة أن تكون خالية مما يدل على هذه الفكرة إلاَّ ما ورد في إنجيل متى: (فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس)[1]. وهذه العبارة من ألفاظها تدل على أنها ليست من قول المسيح عليه السلام. ويرد عليها المستشار محمد عزت طهطاوي فيقول بعد ذكر هذه الحجة: (والرد على ذلك جد يسير:

١ ــ إن هذه العبارة لم ترد عن المسيح وقت حياته، ولم يسمعها تلاميذه وحواريوه وقتئذ، لذلك فهي وإن زعم صدورها منه بعد القتل والصلب ــ على زعمهم ــ فتكون من قبيل الرؤى والأحلام.

٢ ــ تتضمن هذه الفقرات عبارات التثليث مع أن التثليث وألوهية عيسى لم تتقرر إلاَّ في القرن الرابع الميلادي في مجمع نيقيه ٣٢٥م، وألوهية الروح القدس لم تتقرر إلاَّ في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م. مما يقطع بأن هذه الفقرات مصطنعة ألحِقت وأضيفت بعد ذلك إلى الإنجيل)[2].

أما بولس فيؤكدها برسائله واستطاع أن ينشرها قولاً وفعلاً ويجعلها من اعتقاد النصارى حتى اليوم.

ففي رسالته إلى رومية يقول: (قبلنا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان في جميع

---

(١) متى: ٢٨/١٩.

(٢) النصرانية والإسلام، محمد عزت الطهطاوي: ص ٢٩٣، دار الأنصار ــ القاهرة، مطبعة التقدم ١٩٧٧م.

الأمم[1]. (أولاً أشكر إلَهي بيسوع المسيح من جهة جميعكم أن إيمانكم منادى في كل العالم)[2].

ويقول في رسالته إلى كورنثوس: (لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد، يهوداً كنا أو يونانيين، عبيداً أو أحراراً وجميعنا سقينا روحاً واحداً)[3].

وفي رسالته إلى (غلاطية): (لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، لأنكم كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح ليس يهودي ولا يوناني ليس عبد ولا حر)[4].

وفي رسالته إلى (أفسس) يقول: إنه أصغر القديسين ويدعي بأنه اختص بنعمة التبشير بين الأمم فيقول: (لي أنا أصغر جميع القديسين أعطيت هذه النعمة أن أبشر بين الأمم)[5].

والقضية ما دامت قد اقتصرت على بولس فهي من ضمن التحريفات الكثيرة التي جاء بها إلى النصرانية حتى قلبها من أساسها.

وقد أقر الكتاب المسيحيون أن الحواريين وتلاميذ المسيح لم يعرفوا ذلك حتى زعمها (بولس)، يقول (وليم باتون) في كتابه أديان العالم الكبرى، ترجمة سعيد حبيب: (ولم يفقه التلاميذ الأولون في بادىء الأمر أن الحدود اليهودية الضيقة قد زالت، ولكن عبقرية الرسول بولس قد فطنت إلى تضاعف الرسالة من هذه الناحية، وعرف أنها لليهودي والأممي والبربري واليوناني والذكر والأنثى على السواء)[6].

---

(١) رومية: ١/٥.

(٢) رومية: ١/٨.

(٣) كورنثوس: ١٢/١٣.

(٤) غلاطية: ٣/٢٦ ــ ٢٨.

(٥) أفسس: ٣/٨.

(٦) المسيحية، أحمد شلبي: ص ٩١.

والظاهر من هذه النصوص التي أوردها (بولس) في رسائله أنه لم يورد نصاً واحداً نسبة إلى المسيح عليه السلام دل على عالمية النصرانية.

إقرار الأناجيل بأنها ليست عالمية:

والأناجيل تحوي عشرات النصوص التي تؤكد خصوصية دعوة المسيح عليه السلام لبني إسرائيل.

ففي إنجيل متّى يوصف المسيح بأنه مدبر يرعى شعب إسرائيل (وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا.. لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل)[1].

ويقص لنا إنجيل (متى) قصة المرأة الكنعانية التي طلبت من المسيح أن يشفي لها ابنتها فلم يجبها بكلمة، وعندما توسل إليه تلاميذه بشأنها أجاب وقال: (ما أرسلت إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)[2].

وفي الإصحاح العاشر من هذا الإنجيل يوصي المسيح تلامذته أن يقصروا الدعوة على اليهود فيقول لهم: (إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)[3].

وإنجيل لوقا يذكر البشارة بمجيء المسيح قبل مولده، هذه البشارة من الملك إلى مريم يبشرها بأنها ستلد مولوداً يملك على بيت يعقوب إلى الأبد: (ها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع.. ويعطيه الرب كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية)[4].

ويشير إنجيل يوحنا أن المسيح ما جاء إلاَّ لخاصته (إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله)[5].

فهو قد جاء إلى خاصته من بني إسرائيل، ولكن خاصته حقاً لم تقبله فحرفوا ما جاءهم به وكونوا باسمه ديناً لا يعلم منه شيئاً، فالمسيح عليه السلام جاءهم بهذه التعاليم وكان يريد من بني إسرائيل وهم قومه الذين أرسله الله إليهم يريد منهم أن

---

(١) متى: ٢/٦.
(٢) متى: ١٥/٢٤.
(٣) متى: ١٠/٥ ــ ٦.
(٤) لوقا: ١/٣١ ــ ٣٣.
(٥) يوحنا: ١/١١.

يلتزموا بما جاءهم به. حتى أنه لما رأى إعراضهم، ورفضت القدس رسالته ناجاها بحنوّ يُشعر أن رسالته لشعب اليهود الذين كانوا يسكنون تلك المدينة وقتئذ، وقد ذكر ذلك إنجيل متى: (يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا، هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً)[1].

هذا هوعيسى بن مريم نبي من أنبياء بني إسرائيل أرسله الله إليهم، سائراً على منهاج موسى عليه السلام من قبله، متمماً للتوراة فهو يقول: (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل)[2].

شهادة بعض الكتاب المسيحيين بذلك:

ينقل لنا المستشار محمد عزت الطهطاوي أقوال بعض الكتاب المسيحيين المؤيدة بأن المسيح ـ عليه السلام ـ ما أرسل إلاَّ لبني إسرائيل فيقول:

(أ) جاء في دائرة المعارف البريطانية أن أسبق حواريي المسيح ظلوا يوجِّهون اهتمامهم إلى جعل المسيحية ديناً لليهود، وجعل المسيح أحد أنبياء بني إسرائيل إلى بني إسرائيل.

(ب) يرى (Berry) أن اضطهاد الرومان لأتباع المسيح كان سببه أن أباطرة الرومان لم يعرفوا عن دعوة المسيح إلاَّ أنها امتداد لليهودية.

(ج) يقول (دين انج): إن عيسى كان نبياً لمعاصريه من اليهود ولم يحاول قط أن ينشىء فرعاً خاصاً من بين هؤلاء المعاصرين أو ينشىء له كنيسة خاصة مغايرة لكنائس اليهود أو تعاليمهم.

(د) وليم باتون: (إن الذي يقرأ رسائل بولس يرى أنه لم يورد دليلاً واحداً ولا كلمة واحدة تنسب إلى عيسى عن عالمية المسيحية)[3].

---

(١) متى: ٢٣/٣٧ ـ ٣٨.

(٢) متى: ٥/١٧.

(٣) النصرانية والإسلام، المستشار محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: ص ٢٩٧. دار الأنصار ـ القاهرة، مطبعة التقدم ١٩٧٧م.

الفصل الثاني

مَصَادِرُ الانْحِرَافِ عَنِ التَّوْحِيدِ فِي النَّصْرَانِيَّةِ

المبحث الأول : العوامل العقلية الدينية السياسية.

المبحث الثاني : أثر اليهود في الانحراف.

المبحث الثالث : أثر رجال الكنيسة في الانحراف.


http://kotob.has.it

المبحث الأوّل

العوامل العقليّة الدّينيّة السياسيّة

لقد شكلت هذه العوامل متحدة، عاملاً أساسياً ساعد على انحراف النصرانية عن التوحيد. . فمن الناحية العقلية كان للفلسفة ــ التي اعتمدت العقل أساساً لها ــ أثر بارز في الانحراف، وقد عرفت هذه الفلسفة عقيدة التثليث فتسربت منها للنصرانية.

ومن الناحية الدينية كان للوثنية السائدة في المجتمع الروماني والوثنيات المنتشرة حوله أثر بارز أيضاً في تسرُّبِ الوثنية إلىٰ النصرانية. ونفهم ذلك جلياً إذا علمنا أن هذه الوثنيات قد عرفت عقيدة التثليث بأشكال مختلفة.

ولقد ساعد هذين العاملين عامل سياسي يعتبر بحق العامل المباشر الذي جعل من عقيدة التثليث عقيدة أساسية في النصرانية، ذلك العامل هو الدولة الرومانية التي اعتنقت النصرانية لا لتذعن لعقيدتها الأصلية ولكن لتطوعها للاعتقاد بوثنيتها.

ومع أن هذه العوامل الثلاثة تشكل عاملاً واحداً أثر على انحراف النصرانية فما كان لأحدها أن يؤثر وحده، بل اتحدت هذه العوامل لتكون بمجموعها مصدراً أساسياً من مصادر الانحراف، مع ذلك فلا بد أن نبيِّن أثر كل واحد منها، ونلاحظ مدى التوافق بينه وبين النصرانية بعد أن تأثرت به. وقد اقتصرت على بيان أثر هذه العوامل في إدخال عقيدة التثليث على النصرانية، باعتبارها عقيدة أساسية فيها. ولا أصل لها في النصرانية الأولى، بل دخلت إلى النصرانية نتيجة هذه العوامل.

التثليث عقيدة وثنية :

ليس التثليث وحده من أصول المسيحية وثنياً، فأكثر تعاليم المسيحية الحالية مستعار من الوثنية، والدارس للمسيحية اليوم إذا رجع إلى كتب الديانات القديمة الوثنية، يدهشه ذلك التماثل الواضح بين الشعائر والطقوس والأركان المسيحية والوثنية. وإن هذه الدهشة هي التي حملت بعض الباحثين على التشكيك في وجود السيد المسيح نفسه.

ونحن المسلمين نعتبر الإيمان بالسيد المسيح رسولاً من عند الله جزءاً من عقيدتنا، فلا نقول بذلك، ولكننا نقول بأن المسيحية الحالية وثنية، لأن مسيحية اليوم هي مسيحية بولس، ولا تمت بصلة إلى السيد المسيح عليه السلام.

يقول الأستاذ العقاد: (وإنما طرأت هذه الشبهة من تماثل بعض الشعائر فكل شعيرة في المسيحية كانت معروفة في ديانات كثيرة سبقتها، حتى تاريخ الميلاد، وتاريخ الآلام قبل الصلب. فيوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر الذي يحتفل فيه بمولد المسيح كان هو يوم الاحتفال بمولد الشمس في العبادة المثرّية)[1].

وقد اعترضت الكنيسة الشرقية على هذا اليوم لهذا السبب، وفضلت أن تختار لعيد الميلاد اليوم السادس عشر من شهر يناير الذي تعمد فيه السيد المسيح، على أن هذا اليوم أيضاً كان عيد الإله (ديونسيين) عند اليونان، وكان قبل ذلك عيد (أويزيريس) عند المصريين، ولا يزالون يحتفلون به إلى عصرنا هذا باسم (عيد الغطاس)، وقد اتخذت المسيحية يوم الخامس والعشرين من شهر مارس تذكاراً لآلام المسيح قبل الصلب، وهذا هو الموعد نفسه الذي اتخذه الرومان قبل المسيح لتذكار آلام الإله (أتيس) إله الرعاة المولود من (نانا) العذراء بغير ملامسة بشرية . . . وتخصيص يوم الأحد بالعبادة لأنه كان يوم الشمس في ديانة عبّادها الأقدمين، واسم هذا اليوم بالإنجليزية (SUNDAY) ـ ومعناه الحرفي : يوم الشمس ـ يدل على بقايا هذا الدين المهجور)[2].

---

(١) المثرية: نسبة إلى الإله (مثرا) أحد آلهة قدماء الفرس.

(٢) الله : عباس العقاد: ص ٥٣.

ومما يؤكد أن المسيحية قد استعارت ذلك من الوثنية أن المسيحية لاحقة لها، فهي التي استعارت من سابقتها، ومن ناحية أخرى (فإن المسيحيين في عصرهم الأول قدَّسوا السبت لا الأحد ولم يصبح الأحد يوم الرب قبل القرن الثاني الميلادي)[1].

وقد نقل الأستاذ (أحمد شلبي) مقارنة بين العقائد الوثنية وعقائد المسيحية الحاضرة، وأوضح لنا عناصر التشابه بين قصة محاكمة (بعل) معبود البابليين وقصة محاكمة عيسى عليه السلام، ومقارنة بين حياة (بوذا) وحياة المسيح عليه السلام[2].

وهذا كله يوضح أن المسيحية قد اقتبست كل هذه المعتقدات عن الوثنيين حتى صارت ديانة وثنية لا تمت إلى الرسالات السماوية بصلة.

وبعد هذه المقارنات يقول الأستاذ (أحمد شلبي) نقلاً عن كتاب (أصول المسيحية): (ولم تكتف المسيحية باقتباس الأحداث وإنما اقتبست أيضاً الأيام والتواريخ، فمولد عيسى، وصلبه، وعودته إلى الحياة، تقع في أيام تتفق تماماً مع أحداث وثنية ترتبط بمثل هذه الأيام)[3].

يقول الأستاذ (العقاد): (ومما يجري في هذا المجرى أن تماثيل (إيزيس) وهي تحمل ابنها (حورس) كانت رمزاً في الكنائس الأولى للعذراء مريم وابنها المسيح.. والعشاء الرباني كان معروفاً في عبادة (مترا) معبود الفرس على الطريقة التي عرف بها في المسيحية)[4].

وقد كتب الأستاذ (محمد طاهر تنير) كتاباً سمّاه (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية) فصَّل فيه عن علاقة النصرانية بالعقائد الوثنية السابقة، وأوضح العلاقة الوطيدة بين كل شعيرة من شعائر النصرانية، وما يماثلها من عقائد الوثنيين، وإن

---

(١) الروم، د. أسد رستم: ص ٣٨، دار المكشوف ـ بيروت.

(٢) انظر: المسيحية، أحمد شلبي: ص ١٥٣ ـ ١٥٩.

(٣) نفس المرجع: ص ١٥٩.

(٤) الله: العقاد: ص ١٥٤.

المطلع على ما كتبه الأستاذ تنير عند شرحه لهذه المشابهات، ليعلم علم اليقين أن نصرانية بولس لا تزيد على كونها مزيجاً من فلسفات وعقائد وثنية[1].

---

(١) إتماماً للفائدة.. أشير إلى عناوين فصول كتاب (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية) لتتضح الموافقة بين النصرانية وبين الوثنية في أصولها؛ أما فصول الكتاب فهي ثمانية عشر فصلاً، هي:

الفصل الأول: عقيدة التثليث عند الوثنين عند النصارى.

الفصل الثاني: تقديم أحد الآلهة فداء عن الخطيئة عند الوثنيين.

تقديم المسيح فداء عن الخطيئة عند النصارى.

الفصل الثالث: الظلمة التي حدثت عند موت أحد المخلصين للعالم عند الوثنيين.

الظلمة التي حدثت عند موت المسيح للعالم عند النصارى.

الفصل الرابع: ولادة أحد الآلهة عند الوثنيين.

مريم العذراء والدة الإلَه يسوع عند النصارى.

الفصل الخامس: النجوم التي ظهرت عند ولادة أحد الآلهة عند الوثنيين.

النجم الذي ظهر في المشرق عند ولادة المسيح.

الفصل السادس: النجوم السماوية التي ظهرت تسبح الله عند ولادة أحد الآلهة عند الوثنيين.

النجوم السماوية التي ظهرت تسبِّح الله عند ولادة يسوع المسيح.

الفصل السابع: الاستدلال على الطفل الإلهي عند الوثنيين.

الاستدلال على الطفل الإلهي عند النصارى.

الفصل الثامن: محل ولادة بعض الآلهة عند الوثنيين.

محل ولادة يسوع المسيح عند النصارى.

الفصل التاسع: القول عن الآلهة المتجسِّدة إنها من سلالة ملوكانية.

اعتقاد النصارى أن المسيح من سلالة ملوكانية.

الفصل العاشر: اعتقاد الوثنيين بطلب الملوك والجبابرة لقتل أحد الآلهة المتجسدة.

اعتقاد النصارى بأن (هيرودوس) أراد قتل يسوع المسيح.

الفصل الحادي عشر: تجربة الشيطان لأبناء الآلهة عند الوثنيين.

تجربة الشيطان ليسوع المسيح.

الفصل الثاني عشر: نزول أبناء الآلهة إلى الجحيم عند الوثنيين.

نزول يسوع المسيح إلى الجحيم عند النصارى. =

ولكننا في هذا البحث سنقتصر على توضيح علاقة عقيدة التثليث عند النصارى بما يماثلها عند الوثنيين.

التثليث عند الوثنيين:

التثليث عقيدة وثنية عرفته البشرية منذ غابر العصور، ذلك أن فكرة تعدد الآلهة ظهرت في البشرية عند أول انحراف عن عقيدة التوحيد الأصلية ولقد عبد الناس الآلهة شتى، ولكن أبرز عقائد المعددين هي عقيدة التثليث. (والمتتبع لتاريخ الأديان الوثنية يجد أن الثالوث المقدس يعتبر أصلاً من أصولها ومعتقداً من معتقداتها، وقد قال بهذا الثالوث قدماء المصريين، وقال به الهنود، وقال به غيرهم من الأمم الوثنية)[١].

وينقل لنا الأستاذ (محمد طاهر تنير) مقالات لبعض علماء الآثار والأديان القديمة تشهد كلها باعتقاد الأمم الوثنية بالتثليث ومن هذه الأقوال قال (موريس) في كتابه (الآثار الهندية القديمة): (كان عند الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي).

= الفصل الثالث عشر: قيام أولئك الآلهة بين الأموات.
قيام المسيح بين الأموات.
الفصل الرابع عشر: مجيء الآلهة المتجسدة إلى العالم ثانية.
مجيء المسيح ثانية إلى العالم للدينونة.
الفصل الخامس عشر: الاعتقاد بأن الابن هو الخالق عند الوثنيين.
الاعتقاد بأن الابن (المسيح) هو الخالق عند النصارى.
الفصل السادس عشر: العمادة لإزالة الخطيئة عند الوثنيين.
العمادة لإزالة الخطيئة عند النصارى.
الفصل السابع عشر: مقابلة النص الصريح بين (كرشنة) ويسوع المسيح.
الفصل الثامن عشر: مقابلة النص الصريح بين (بوذا) ويسوع المسيح.
وكل فصل من هذه الفصول وضَّح فيه الأستاذ (تنير) العلاقة بين النصرانية والوثنية فيه.
راجع: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر تنير: (الفهرس) ــ بيروت ١٣٣٠هـ.

(١) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ٧٨، دار النهضة العربية القاهرة.

وجاء في كتاب (سكان أوروبا الأول): (كـان الوثنيـون القدمـاء يعتقدون بـأن الإلّه واحد، ولكنه ذو أقانيم ثلاثة)[١]. وقال (برتشرد) في كتابه (خرافات المصريين الوثنيين): (لا تخلو كافة الأبحاث الدينية المأخوذة عن مصـادر شرقيـة من ذكر أحـد أنواع التثليث أو التولد الثلاثي ــ الآب والابن والروح القدس ــ)[٢].

هذه الأقوال تشهد بصحة قولنا: إن التثليث لم يكن أصيـلاً في النصرانيـة منذ بدايتها، وإنمـا هو نتـاج للأفكـار الوثنيـة السائـدة في ذلك الـوقت، وعندمـا أرادت النصرانية أن تنتشر في تلك المجتمعات الوثنية تنازلت في سبيل ذلـك عن عقيدتهـا الأصلية وذابت في تلك المجتمعات.

التثليث عند قدماء المصريين:

التثليث عقيدة معروفـة عند قـدماء المصـريين تدل عليـه آثارهـم، وكمـا يقول الأستـاذ (تنير): (فقـد كانـوا يعبدون إلّهـاً مثلث الأقانيم مصـوراً في أقدم هيـاكلهم ويظن أهل العلم أن الرمز الـذي يصورونـه وهو جنـاح طير ووكـر وأفعى، إن هو إلاّ إشارة إلى ذلك الثالوث واختلاف صفاته)[٣].

وقال: (وتدل الرموز التي اكتشفت عن الثالوث المقدس عند قدماء المصريين على مشـابهته تمـاماً للثـالوث المسيحي سـواء في عدد الأقـانيم أو في خاصيّـة كـل أقنوم)[٤].

ومفهـوم الوثنيين للثـالوث مـوافق لمفهوم النصـارى عنه فكمـا أنّ لكـل أقنـوم وظيفة عند الوثنيين فإنه يقوم بنفس الوظيفة عند النصارىٰ لـه. وقال العـلامة (دوان) في كتابه (خرافات التوراة والإنجيل): (وكـان قسيسو هيكـل ممفيس بمصر يعبِّـرون

---

(١) الأقانيم كلمة سريانية الأصل، مفردها أقنوم وهي تعني الشخص أو الكائن المستقل بذاته.

(٢) العقائد الوثنية في النصرانية، محمد طاهر تنير: ص ١٨ ــ ١٩ ــ بيروت ١٣٣٠هـ.

(٣) العقائد الوثنية في النصرانية، محمد طاهر تنير: ص ٢٤.

(٤) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ٧٨.

عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم: إن الأول خلق الثاني، والثاني مع الأول خلقا الثالث، وبذلك تمَّ الثالوث المقدس)[1].

(وسأل (توليسو) ملك مصر الكاهن (تنشوكي) أن يخبره، هل كان قبله أحد أعظم منه، أو هل يكون أحد بعده أعظم منه، فقال له الكاهن: نعم يوجد من هو أعظم، وهو أولاً الله، ثم الكلمة ومعهما روح القدس، ولهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة، وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية)[2].

فهل تجد فرقاً جوهرياً بين هذا الثالوث والثالوث المسيحي؟ إنها نفس الأوصاف، بل نفس الكلمات، الآب، والابن الكلمة، وروح القدس. وعند النصارى لهم طبيعة واحدة (عند بعضهم) وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية كما هو عند الوثنيين الفراعنة تماماً.

وإنك لتحس التعمد الواضح من واضع هذه الأقانيم في النصرانية للقضاء عليها ولتذويبها في متاهات الوثنيات القديمة، وإن هذه المطابقة بين النصرانية والوثنية ليست تأثراً بسيطاً نشأت عن الجو الوثني السائد في ذلك الزمان فحسب، بل هي استعارة لأسس العقائد الوثنية ومرتكزاتها لتكون أسساً للنصرانية الجديدة.

وحتى يتضح الأمر لنا تماماً لا بدَّ لنا أن نتعرف على هذا الثالوث المصري لنرى مم يتكون هذا الثالوث، وعندئذٍ نجد أن بعض الباحثين يقولون بأن هذا الثالوث الفرعوني يتكون من ثلاثة آلهة أو ثلاثة أقانيم إلٓهية يذكرها الأستاذ محمد مجدي مرجان[3] بقوله:

الأقنوم الأول: الإلٓه أوسيري (أوزيريس)، ويسمى الآب أو الوالد والاعتقاد عنه أنه الإلٓه الأكبر العظيم علة ولادة الأقنوم الثاني (هورس) خالق المخلوقات ورب الأرباب.

---

(١) العقائد الوثنية في النصرانية، محمد طاهر تنير: ص ٢٦.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) الأستاذ مرجان كان نصرانياً فأسلم، وقد درس الثالوث في مدرسة مسيحية وكان شماساً في إحدى الكاتدرائيات ثم داعياً للثالوث، انظر: مقدمة كتابه (الله واحد أم ثالوث؟): ص ٦.

الأقنوم الثاني: الإله هور (هورس) ويسمى الابن أو النطق أو الكلمة وهو ابن الإله (أوسيري) وهو النور والشمس المشرقة وهو إله النطق والكلام، ولذا صوّروه رافعاً أصبعه إلى فمه كما شبهوه أيضاً بعجل ممتاز عن بقية العجول، ولد من نار اللاهوت من عجلة بكر لم تلد سواه، وهو يحمل ذنوب وخطايا العالم، وهو غير الأقنومين الآخرين، تشبَّه وحده بإنسان ليكون قابلاً للموت.

الأقنوم الثالث: الإله إيس (إيزيس)، وتسمى الأم أو الوالدة. والاعتقاد عنها أنها ملكة السماء، وأنها أم الأقنوم الثاني. وقد رمزوا لها بصورة طائر جميل وعلى رأسه صولجان رسموا بجانبه علامة الحياة، وهم يشيرون بذلك إلى أن الإله (إيزيس) باعثة الحياة للبشر، كما صوّروه امرأة جالسة على عرشها ترضع ابنها (الأقنوم الثاني) وعلى رأسها تاج الملك وقرص الشمس)[١].

هذا هو الثالوث المصري بأقانيمه الثلاثة لا يكاد يختلف عن الثالوث النصراني شيئاً.

فالأقنوم الأول (الآب) يعتقد الوثنيون فيه كما يعتقد فيه النصارى بدون أي فرق (الإله الأكبر، علة ولادة الأقنوم الثاني، خالق المخلوقات ورب الأرباب).

وإننا نجد المطابقة الكاملة بين هذا الاعتقاد وبين ما جاء في قانون الإيمان النيقاوي (نؤمن بإله واحد، أب ضابط الكل، خالق السماء والأرض) وهو بطبيعة الحال علّة ولادة الأقنوم الثاني لأنهم يصفون الأقنوم الثاني (الابن) بأنه ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور.

أما الأقنوم الثاني فإن الوثنيين يطلقون عليه نفس التسميات التي يطلقها النصارى (الابن، الكلمة أو النطق)، هذا من حيث التسمية، وحتى لا تختلف الوثنية عن بعضها فلقد وصف النصارى الابن بأوصاف جاءت مطابقة لما وصف بها عند الوثنيين المصريين، فالوثنيون صوَّروه بأنه النور والشمس المشرقة. وشبهوه بالعجل الممتاز، (ولقد وصف المسيح في إنجيل برنابا بالعجل الأحمر)[٢] وقالوا

---

(١) الله واحد أم ثالوث؟ مجدي مرجان: ص ٧٩ ـــ ٨٠.

(٢) برنابا: ٧/٤.

بأنه ولد من عجلة بكر لم تلد سواه، والمسيح مولود من مريم العذراء ولم تلد سواه، والابن عند الوثنيين يحمل ذنوب وخطايا العالم، كما هو عند المسيحيين تماماً الابن جاء ليخلص العالم من الخطيئة الموروثة.

وهو عندهم غير الأقنومين الآخرين كما هو عند النصارى تماماً، هو جوهر واحد لكنه مساوٍ للآب في الجوهر على حسب وثيقة نيقية. مع أن بعض الفرق القديمة لا تقرّ هذه المساواة.

وأخيراً عرف الابن عند الوثنيين بأنه تشبّه وحده بالإنسان ليكون قابلاً للموت، وهكذا الابن عند النصارى (تجسَّد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنّس).

أما الأقنوم الثالث وهو الإلّه (إيزيس) فإن الأوصاف التي عند الوثنيين لهذا الإلّه مطابقة لأوصاف النصارى للأقنوم الثالث عندهم وهو الروح القدس. فهم يشيرون برمزهم لها وبصورتها أنها باعثة الحياة للبشر المعروف عن الروح القدس عند النصارى، إنها مصدر حياة البشر أيضاً، فوثيقة الإيمان في نيقية تصف روح القدس بأنه (الرب المحيي).

وتصوير الوثنيين للإلّه (إيزيس) امرأة جالسة على عرش ترضع (هورس) ابنها (الأقنوم الثاني) وعلى رأسها تاج الملك وقرص الشمس. وهذا الوصف يشبه ما نصت عليه أمانة نيقية بأن الإلّه الآبن تجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء.

وبذلك تكون المشابهة قد وضحت بين العقيدتين، وكلاهما تثليث وانحراف عن عقيدة التوحيد الصحيحة.

والمعروف أن الثالوث المصري سابق في الزمن للثالوث المسيحي واللاحق يستعير من السابق، ومن هنا (فلقد أكد العلامة (جارسلان كريني) أستاذ الحفريات بجامعة أكسفورد ببريطانيا في كتابه (ديانة قدماء المصريين) أكد وجوه التماثل والتطابق التام بين الثالوث المسيحي والثالوث الفرعوني، الأمر الذي دعاه إلى التقرير بأن الثالوث المسيحي مأخوذ من الثالوث الفرعوني)(١).

---

(١) الله واحد أم ثالوث، مجدي مرجان: ص ٨١.

الثالوث عند الهنود:

عرف الهنود بكثرة آلهتهم وتعدد دياناتهم، وقد كان من أبرز معتقداتهم الإيمان بالثالوث، وعرف عندهم أكثر من ثالوث فهو يختلف من طائفة إلى أخرى. . ولكننا نجد الثالوث في كل مرة يشبه إلى حد كبير ثالوث النصارى الذي عبدوه من دون الله تعالى.

وينقل الأستاذ (مالفير) عن الكتب الهندية القديمة التي ترجمت إلى الإنجليزية شارحة عقيدة الهنود القدماء ما نصُّه (نؤمن (بسافتري) أي الشمس إلّه واحد ضابط الكل خالق السماوات والأرض وبابنه الوحيد (آني) أي النار نور من نور مولود غير مخلوق تجسد من (فايو) أي الروح في بطن (مايا) العذراء ونؤمن بـ(فاليو) الروح المحيي المنبثق من الأب والابن، الذي هو مع الأب والابن يسجد له ويمجد)[1].

وقارىء هذا النص يحس أنه يقرأ وثيقة الإيمان التي وضعها مجمع نيقية وتؤمن بها الكنائس على اختلافها، إنه تشابه تام بين العقيدتين، لا اختلاف بينهما إلّا في الأسماء، فبينما يسمي النصارى الإلّه أباً، ويسوع المسيح ابناً، وروح الحياة المنبثقة روح القدس، نجد قدماء الهنود يسمّون الآب (سافتري) والابن (آني) والروح (فايو). وبينما يتجسد يسوع في بطن مريم العذراء، يتجسد (فايو) في بطن (مايا) العذراء عند الهنود.

قال العلامة (دوان) في كتابه (خرافات التوراة والإنجيل): (إذا رجعنا البصر نحو الهند نرى أن أعظم وأشهر عبادتهم اللاهوتية هو التثليث (أي القول بالإلّه ذي ثلاثة أقانيم) ويدعون هذا التثليث بلغتهم (ترى مورتي)، (ترى) معناها: ثلاثة، و (مورتي) معناها: هيئات أو أقانيم)[2].

فعقيدة التثليث عرفها الهنود منذ عصور قديمة، وبقيت تنتقل من جيل إلى جيل وإن اختلفت مسميات هذا الثالوث.

---

(١) الله واحد أم ثالوث، مجدي مرجان: ص ٨١.

(٢) العقائد الوثنية في النصرانية، محمد طاهر تنير: ص ١٩.

ونرى هذا الثالوث واضحاً عند أكبر ديانتين في الهند وهما: البرهمية والبوذية.

أما البراهمة:

فقد اعتقدوا بثالوث إلهي مكون من ثلاثة أقانيم هي: الإله (براهما) في صورة الخالق، والإله (فشنو) في صورة الحافظ، والإله (سيفا) في صورة الهادم.

(وجاء في كتب البرهميين المقدسة المعتبرة لديهم أن هذا الثالوث المقدس غير منقسم في الجوهر والفعل والامتزاج، ويوضحونه بقولهم: (برهمة) الممثل لمبادىء التكوين والخلق وهو (الآب) و(فشنو) يمثل مبدأ الحماية وهو (الابن) المنفك والمنقلب عن الحال اللاهوتية، و(سيفا) المبدىء والمهلك والمبيد والمعيد وهو (روح القدس) ويدعونه (كرشنا) الرب المخلص والروح العظيم، حافظ العالم المنبثق (أي المتولد منه) (فشنو) الإله الذي ظهر بالناسوت على الأرض ليخلص العالم فهو أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الإله الواحد)[1].

فالبرهمة كما نرى في تثليثها لا تختلف عن النصرانية وشخصية (كرشنا) ـ الابن ـ التي يدور حولها محور اعتقاد البرهميين تقابلها تماماً شخصية السيد المسيح ـ الابن ـ التي يدور حولها محور اعتقاد النصارى.

وقد نقل لنا الأستاذ (محمد طاهر تنير) مقابلة رائعة بين ما يقوله الهنود البراهمة في (كرشنا) وبين ما يقوله النصارى في المسيح. هذه المقابلة كانت نصوصاً صريحة، نقلها عن كتب تاريخ الهند القديم بالنسبة لـ(كرشنا). أما بالنسبة للمسيح عليه السلام فقد نقلها عن أسفار العهد الجديد التي تعترف بها الكنيسة ونقل بعضها عن أناجيل غير معترف بها كإنجيل الطفولة وإنجيل ولادة يسوع المسيح.

وقد أورد في هذه المقابلة ستة وأربعين نصاً وردت في عقيدة البراهمة عن (كرشنة) تقابلها بنفس المعنى، وأحياناً بنفس اللفظ نصوص وردت في كتب

---

(١) العقائد الوثنية في النصرانية، محمد طاهر تنير: ص ٢٠.

النصارى عن السيد المسيح، وبعد أن نقل هذه النصوص كلها قال: (هذا شيء قليل من كثير اكتفينا به حباً للاختصار)[1].

ونظراً لعدم توفر الكتاب حتى في كثير من المكتبات العامة أنقل بعض نصوص هذه المقارنة ليرى القارىء مدى الموافقة التامة بين هذه الأقوال.

● أقوال الهنود الوثنيين في كرشنة:	● أقوال النصارى في يسوع المسيح:
١ ـ كرشنة هو المخلص والفادي والمفدي والراعي الصالح والوسيط وابن الله، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الأب والابن وروح القدس.	يسوع المسيح: هو المخلص الفادي والمفدي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس.
٢ ـ ولد كرشنة من العذراء (ديفاكي) التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها. انظر: كتاب (خرافات التوراة والإنجيل) دوان: ٢٧٨.	ولد يسوع من العذراء مريم التي اختارها الله والدة لابنه بسبب عفتها وطهارتها. عن إنجيل مريم إصحاح: ٧.
٣ ـ عرف الناس ولادة كرشنة من نجمه الذي ظهر في السماء. عن كتاب تاريخ الهند: ٣١٧/٢.	ولما ولد يسوع ظهر نجمه في المشرق وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته. متى: ٢/٢.

(١) نفس المرجع: ص ١٤٦.

٤ ــ وسمع (ناندا) خطيب (ديفاكي) والدة كرشنة نداء من السماء يقول له قم وخذ الصبي وأمه فهربهما إلى كاكول واقطع نهر جمنة لأن الملك طالب إهلاكه. عن كتاب (فشنو بورانا) الفصل الثالث.	وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحلم كي يأخذ الصبي وأمه ويفر بهما إلى مصر لأن الملك طالب إهلاكه. متى: ٢/١٣.
٥ ــ كرشنة صُلب ومات على الصليب.	يسوع صُلب ومات على الصليب.
٦ ــ لما مات كرشنة حدثت مصائب وعلامات شر عظيم وأحاط بالقمر هالة سوداء وأظلمت الشمس في وسط النهار وأمطرت السماء ناراً ورماداً وشاهد الناس ألوفاً من الأرواح في جو السماء يتحاربون. عن كتاب التصورات الدينية: ١/٧١.	لما مات يسوع حدثت مصائب جمة وانشق حجاب بالهيكل من فوق إلى تحت وأظلمت الشمس من السادسة إلى التاسعة وفتحت القبور وقام كثير من القديسين وخرجوا من قبورهم. لوقا: ٢٣/٤٤ ــ ٤٥.
٧ ــ كرشنة يدين الأموات في اليوم الآخر. دوان: ٢٨٣.	ويدين يسوع الأموات في اليوم الآخر. رومية: ١٤/١٠.

وأما البوذية:

وهي من أشهر الديانات الهندية فقد اعتقدت التثليث أيضاً. وقد شكل محور عقيدتها.

قال العلامة (دوان): (البوذيون الذين هم أكثر سكان الصين واليابان يعبدون إلّهاً مثلث الأقانيم يسمونه (فو) ومتى ودُّوا ذكر هذا الثالوث المقدس يقولون:

الثالوث النقي (فو) ويصوِّرونه بهياكلهم بشكل الأصنام التي وجدت في الهند، ويقولون أيضاً: (فو) واحد ولكنه ذو ثلاثة أشكال. ويوجد في أحد المعابد المختصة بـ (بتولا) في منشوريا تمثال (فو مثلث الأقانيم)، وقال مثله العلامة (دافس) في كتابه: (الصين)[1].

و (بوذا) هو محور البوذية واعتقاد البوذيين فيه يشبه إلى حد كبير اعتقاد النصارى بالمسيح عليه السلام.

وقد عقد كل من الأستاذ أحمد شلبي والأستاذ محمد طاهر تنير مقارنة بين أقوال الوثنيين البوذيين في (بوذا) وبين ما يقوله النصارى في يسوع المسيح[2] وقد ذكر الأستاذ (شلبي) أنه أورد هذه المقابلة ثلاثة من الباحثين هم:

1 — Khwaja Kamal-Ud-Din

في كتابه The Sources of Christianity.

2 — Dward Thomas

في كتابه The Life of Buddah.

3 — R. W. Doane

في كتابه Bible Mythologe.

---

(١) العقائد الوثنية في النصرانية، محمد طاهر تنير: ص ٢٣.

(٢) انظر: المسيحية، أحمد شلبي: ص ١٥٦ ـ ١٥٩. وانظر: العقائد الوثنية، تنير: ص ١٤٧ ـ ١٦٥. وقد ذكر الأستاذ (تنير) في مقابلته ثمانية وأربعين نصاً، أما الأستاذ (شلبي) فقد اقتصر على اثنين وعشرين نصاً. ونحن إتماماً للفائدة نذكر خمسة نصوص من كل واحد منهما.

● أقوال الهنود في بوذا:	● أقوال النصارى في عيسى:
١ ـ عند مولد بوذا ظهر نجم في السماء يبشر به وقد شوهد هذا النجم يسير نحو مكان ولادته وتبعه من رآه ليسجدوا للوليد.	وعند مولد عيسى ظهر النجم يبشر بمولد المخلص وقامت جماعات المجوس نحو مكان ولادته فرأوا الطفل وسجدوا له.
٢ ـ ولد بوذا في الخامس والعشرين من ديسمبر كما تذكر الأساطير الهندية.	ولد عيسى (عليه السلام) في الخامس والعشرين من ديسمبر أيضاً.
٣ ـ ولد بوذا من العذراء (مايا) من غير مضاجعة رجل.	ولد يسوع المسيح من العذراء مريم من غير مضاجعة رجل.
٤ ـ تَعَمَّد بوذا بالماء المقدس وفي أثناء تعميده كانت روح الله حاضرة وكذلك روح القدس.	عمَّد يوحنا عيسى في نهر الأردن، وكان ذلك أيضاً بحضرة روح الله وروح القدس.
٥ ـ أوصى بوذا أتباعه بالشفقة والحب حتى مع أعدائهم.	قال عيسى لأتباعه: أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم، وأحسنوا لمن يبغضكم.
٦ ـ ولما كان بوذا طفلاً قال لأمه (مايا) إنه أعظم الناس جميعاً.	ولما كان يسوع طفلاً قال لأمه مريم: (أنا ابن الله).
٧ ـ دخل بوذا مرة أحد الهياكل فقامت الأصنام من أماكنها وتمددت عند رجليه سجوداً له.	كان يسوع ماراً قرب حاملي الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجوداً له.

٨ ــ لما عزم (بوذا) على السياحة قصد التعبد والتنسك وظهر عليه (مارا) أي الشيطان ليجربه.	لما شرع يسوع بالتبشير ظهر له الشيطان كي يجربه.
٩ ــ ويصفون بوذا أنه ذات من نور غير طبيعية. والشرير (مارا) ــ ويدعونه الحية ــ ذات مظلمة غير طبيعية.	ويصفون يسوع أنه ذات من نور غير طبيعية. والشيطان الحية القديمة.
١٠ ــ كان تجسد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء (مايا).	كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء (مريم).

التثليث عند الأمم الأخرى:

ولم يقتصر التثليث عند الوثنيين على ديانات الهنود وقدماء المصريين، فقد انتشر وعرف أيضاً عند أمم وثنية أخرى كاليونان والرومان والفرس والهندوس في المكسيك وكندا. وقد عرفته الفلسفة الصينية، وبرز واضحاً في مدرسة الإسكندرية الفلسفية أو ما يسمى بالمدرسة الأفلاطونية الحديثة، وسنبيِّن ذلك عند حديثنا عن أثر الفلسفة في الانحراف.

أما اليونان القدماء: فقد عرفوا التثليث وظهر ذلك في شعرهم، قال (دوان) نقلاً عن (أورفيوس) وهو أحد كتاب وشعراء اليونان الذين كانوا قبل المسيح بعدة قرون ما نصُّه: (كل الأشياء عملها الإِلّه الواحد مثلث الأسماء والأقانيم)[1].

وقدماء الرومان: عرفوا التثليث. قال العلامة (فسك) في كتابه (الخرافات

(١) العقائد الوثنية في النصرانية، محمد طاهر تنير: ص ٢٩.

ومخترعوها): (وكان الرومانيون الوثنيون القدماء يعتقدون بـالتثليث وهو: أولاً الله ثم الكلمة ثم الروح)[1].

وكـذلك الفـرس: فإنهم عبـدوا الثالـوث أيضاً، قـال (دوان): وكـان الفـرس يعبدون إلّهاً مثلث الأقانيم (مثل الهنـود تمامـاً) وهم: (أورمزد، ومتـراث وأهـرمـان) فأورمزد الخلاق، ومتراث ابن الله المخلص والوسيط، وأهرمان المهلك.

ثم يقـول (دوان): (وكـان الآشـوريـون والفنيقيـون يعبـدون آلهـة مثلثـة الأقانيم)[2].

وقد عبد الإلّه ذو الأقانيم الثلاثة عند الهندوس في المكسيك وفي كندا. يقول اللورد (كنسبـرو) في كتابـه (آثـار المكسيـك القـديمـة مجلد ٥ صفحـة ١٦٤): (والمكسيكيون يعبدون إلّهاً مثلث الأقانيم، ثم يستشهد على ذلك بقوله: (لما عُيِّن (بوتورلوميو) مطراناً سنة ١٤٤٥م، أرسل القس (فرنسيس هرمنديرز) إلى المكسيك ليبشر بين الهندوس بالمسيحية، وكان هذا القس عـارفاً بلغـة الهندوس وبعـد مضي عام على ذهابه أرسل مكتوباً إلى المطران المذكور يقول فيه: (إن الهندوس يؤمنـون بـإلّه كـائن في السماء، وإن هـذا مثلث الأقانيم وهـو الإلّه الآب والإلّـه الابن والإلّه روح القدس. وهؤلاء الثلاثـة إلّه واحـد، واسم الآب (بزونـا) واسم الابن (باكـاب) مولود من عذراء، واسم روح القدس (إيكيهيّا). ويعبدون صنماً اسمه (تنكا) يقولون عنه إنه إلّه واحد في ثلاثة أقانيم وإنه ثلاثة أقانيم في إلّه واحد)[3].

وكأن هذا القسيس يبعث إلى سيـده المطران أنـه لا داعي للتبشير بـالنصرانيـة بين هؤلاء الوثنيين فإن ديانتهم تشبه ديـانتنا وهم متفقـون معنا على جـوهر العقيـدة، وهو الأقانيم الثلاثة، مع بقائهم على وثنيتهم ودون أن يدخلوا في النصرانية.

وعقيدة الهندوس الكنديين شبيهة بعقيدة المكسيكيين، فهي كما يقول العلامة (سكوير) في كتابه: رمز الحيَّة: (يعبدون إلّهاً مثلث الأقانيم ويصوِّرونـه بشكل صنم

(١) نفس المرجع.
(٢) نفس المرجع: ص ٣٠.
(٣) العقائد الوثنية في النصرانية، محمد طاهر تنير: ص ٣١.

له ثلاثة رؤوس على جسد واحد ويقولون إنه ذو ثلاثة أشخاص بقلب واحد وإرادة واحدة)[1].

وهكذا، فإننا نرى التشابه بين أديان الوثنيين ولكننا لا نستغرب ذلك، فإن عبادتهم في أصلها من وضع سادتهم، ومما تمليه عليه أوهام عقولهم، ولا غرابة في أن يقلد بعضهم بعضاً، أو يعبد بعضهم آلهة متعددة، فتراه يوماً يعبد هذا الصنم وإذا به بعد حين يعبد صنماً آخر أو يجمع بينهما.

لكننا نستغرب أن تتسرب هذه الوثنية إلى عقيدة سماوية في أصلها، جاء بها رسول صادق يدعو إلى عبادة الله وحده، وإذا بهذه الديانة قبل أن تمضي عليها قرون ثلاثة تنقلب إلى ديانة وثنية خالصة تعتمد في مصادرها على خرافات الوثنيين من كل مكان، وتخلط هذه الخرافات بأوهام الفلاسفة وتصوراتهم الخيالية لتكوِّن منها ديناً جديداً يعم معظم أجزاء الأرض فتتحول دعوة المسيح السامية التي جاءت لتهذيب الأخلاق عند بني إسرائيل الذين انحرفوا عن شريعة أنبيائهم، تتحول هذه الدعوة إلى خرافات وثنية تبشر بها المسيحية اليوم وتطالب الناس في كل مكان أن يدخلوا إليها ويعتنقوها.

وإن مما يزيد العجب أن كثيراً من علماء النصرانية يدركون ذلك بل ويقرون في كتبهم أن الوثنية قد تسربت إلى ديانتهم، ومع ذلك فإنهم يصرون على باطلهم، وما ذلك إلَّا لمصالح شخصية ومكاسب مادية.

هذا هو القس (بولس الياس) اليسوعي يعترف بهذا التسرب في كتابه (يسوع المسيح) فيقول: (لقد لقحت الكنيسة الفكر الوثني بالفكر المسيحي فحمل مرسلوها إلى اليونان حكمة التوراة وآداب الإنجيل، وأخذوا منهم وضوح التعبير ودقة التفكير فنتج عن هذا التلاقح تراث جديد نقلوه إلى روما، ولقد احترمت الكنيسة تقاليد الشعوب وحافظت على تنوع الطقوس في مختلف الطوائف فما فرضت صيغة موحدة لصلاة)[2].

---

(١) نفس المرجع: ص ٣٢.

(٢) الله واحد أم ثالوث، مجدي مرجان: ص ٨٨ نقلاً عن كتاب (يسوع المسيح) للقس بولس الياس: ص ١٩٩.

ولا شك أن النصارى يعترفون بأن عقيدة التثليث معروفة عند الوثنيين قبل النصارى، ولكنهم ينكرون أن عقيدة التثليث عندهم مقتبسة من الوثنية، يقول الدكتور أحمد حجازي السقا: (ويعترف النصارى بأن العالم قديماً كان يعرف عقيدة التثليث ولكنهم يقولون بأن هناك مغايرة تامة بين التثليث عندهم وبين التثليث في العالم، وإننا نسلم لهم بهذه المغايرة لأن الذي يقتبس فكرة غيره ليضع فيها مبادئه قد يضيف شيئاً أو ينقص شيئاً، ولكننا لا نعفيهم من القول بأن عقيدة التثليث التي كانت منتشرة في العالم هي التي ذكرتهم حين أرادوا قصر النبوة عليهم، أن يجعلوا الإلّه الواحد الذي أخبر عنه موسى وعيسى، والابن الذي أخبر عنه داود، وروح القدس الذي أخبر عنه عيسى، أن يجعلوا الكل واحداً)[١].

فالنصارى عندما بدأوا بالانحراف عن العقيدة التي علمهم إياها المسيح عليه السلام، أرادوا صياغة عقيدة جديدة فبدأوا يجمعون لها الأفكار من هنا وهناك، فالتقوا مع الأفكار الوثنية والفلسفية التي كانت تنتشر في ذلك الوقت.

يقول القس بولس الياس: (إنه في مفتتح القرن السابع الميلادي كتب البابا (غريفوريوس الأول الكبير) إلى القديس (وأغسطينوس) أسقف كنتربري في بريطانيا يقول: (دع البريطانيين وعاداتهم وابق لهم أعيادهم الوثنية، واكتف بتنصير تلك الأعياد والعوائد، واضعاً إلّه المسيحيين موضع آلهة الوثنيين)[٢].

ومن ذلك نرى أن القس بولس الياس يعترف بتسرب الوثنية إلى المسيحية ويعترف بأن الكنيسة لم تقف في وجه الوثنية، وحافظت على تقاليد الشعوب وأبقت الأعياد والطقوس الوثنية قائمة وآلهة الوثنيين معبودة ولم تغيّر إلاَّ الأسماء فقط.

---

(١) أقانيم النصارى، الدكتور أحمد حجازي السقا: ص ٨٧ ـ ٨٨، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ، دار الأنصار ـ القاهرة.

(٢) الله واحد أم ثالوث، مجدي مرجان: ص ٨٨ نقلاً عن كتاب (يسوع المسيح) للقس بولس الياس: ص ١٩٩.

أثر الفلسفة في انحراف النصرانية عن التوحيد:

لقد بدأت المسيحية كفرقة يهودية ناشئة اضطهد اليهود دعاتهم لمخالفتهم في الدعوة التي راموا نشرها، لما كان مألوفاً عند اليهود، ولقولهم بأن المسيح المنتظر هو عيسى بن مريم. ولم تكن المسيحية في بادىء الأمر تلتفت إلى آراء الفلاسفة، لأنها تعتبر دعوتها ديناً إلّهياً يقوم على الإيمان بالله تعالى وحده، لا دخل للفلاسفة ولا لغيرهم من البشر في وضعها، أما الفلسفة فإنها تقوم على العقل المحض والتصورات الخيالية العقلية، وبقيت المسيحية صافية من هذه الشوائب يوم كانت دعوة خاصة لبني إسرائيل زمن عيسى عليه السلام وحوارييه من بعده.

وعندما ابتدأت فكرة عالمية المسيحية على يد القديس (بولس) ودخلت المسيحية إلى العالم الوثني، ودخلت معركة مع الوثنية من جهة، ومع الفلسفة من جهة أخرى، بدأت أفكار تلك الأمم تتسرب إلى العقيدة المسيحية، (وكان ممن دخل المسيحية في أوائل عهدها رجال مثقفون بالثقافة اليونانية المنتشرة حينذاك في حوض البحر المتوسط)(١).

ولدى خروج المسيحية عن الحدود التي التزم بها المسيح عليه السلام واجهت اضطهاداً من الدولة الرومانية، كما واجهت الاضطهاد من اليهود من قبل، فقرر رجال الدين وعلى رأسهم بولس التودد إلى الفلسفة اليونانية كسند يؤيد العقائد الدينية، فدخل كثير من الفلاسفة إلى النصرانية ومزجوا الفلسفة بالدين مما أدى إلى إيجاد نظم دينية من وراء المادة وكان الشعب خليطاً في أفراده وفي ثقافته فوجدت الفلسفة جواً ملائماً لما ستقوله فولدت ديانة جديدة قامت على أساس الفلسفة.

وبذلك تكون العقيدة المسيحية كما يقول الأستاذ (جيني بير) قد وقعت تحت لونين من التأثيرات:

الأول: تأثير العامة البسطاء الذين لا يستطيعون التسامي عما اعتادوا عليه من تركيبات وإضافات، ففرضوا منذ البداية كل النظريات التي تؤرق المسيحية اليوم

---

(١) دروس في تاريخ الفلسفة، إبراهيم مدكور ويوسف كرم: ص ٩٤.

وهؤلاء الأتباع أتوا من العالم الهيليني بعد أن عمرت أذهانهم بفروض الأسرار.

والثاني: تأثير الفلاسفة الذين راحوا يطبقون أساليب التفكير التي علموها في المدارس على مبادىء الإيمان وعلى النظريات التي أوحت بها العاطفة الدينية للسذَّج البسطاء ونشأت عقائد معقدة مثل: التثليث، وأخرى تريد أن تكون ذكية مثل تحوُّل الخبز والخمر بطقوس القربان إلى لحم ودم المسيح)[1].

أثر الفلسفة اليونانية:

يبدو أن الفلسفة التي كانت تسود المجتمع الروماني في الشرق والغرب هي: الفلسفة الإغريقية الهلينستية، فقد كانت هذه الفلسفة غنية بالأفكار المختلفة المتنوعة الاتجاهات، حتى إنها عنيت بالاتجاه الديني، وقطعت فيه شوطاً كبيراً، فكان باستطاعتها أن تغذي المسيحية بما عندها من أفكار بدل أن تأخذ منها.

وقد اتجهت الفلسفة اليونانية إلى الاتجاه الديني قبل أن تلتحم مع المسيحية، لذا فإنها كانت محصنة مليئة بالأفكار الدينية قبل ورود المسيحية إليها، وساعد الفلسفة على البحث في هذا الاتجاه شعور الناس بالقوى التي لا تدركها الحواس وحاجتهم إليها، وهو الشعور الذي يقوم عليه الدين. وكما يقول (ول ديورانت): (كانت الفلسفة في ذلك الوقت تتخلى عن تفسير التجارب الحسية التي هي ميدان العلوم الطبيعية، وتوجِّه اهتمامها إلى دراسة العالم غير المنظور)[2].

بدأ الفلاسفة إذن يوجهون اهتمامهم إلى تأليف النظريات الدينية وذلك تمشياً مع رغبة الناس: (فأنشأ (الفيتاغوريون) الجدد و (الأفلاطونيون الجدد) من نظرية (فيثاغوريوس سنة ٥٣٠ ق.م) في تناسخ الأرواح، وآراء (أفلاطون ٤٣٠ ــ ٣٤٨ ق.م) في الأفكار الإلّهية نظاماً من الزهد أرادوا أن يقووا به الإدراك الروحي بإماتة الحواس الجسمية، وكان (أفلوطين ٢٠٥ ــ ٢٧٠م) أكبر الممثلين لهذه

---

(١) المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٥٤ ــ ١٥٥.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٢٩٩.

الفلسفة الدينية المتصوِّفة، وهو رجل مسيحي قبطي ارتد إلى الوثنيـة، وكان يحـاول التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية)[١].

وقد أدّى دخول عدد من المسيحيين في الوثنية (نتيجة الاضطهاد) ودخـول نفر من الـوثنيين في المسيحية ـ وقـد بقوا على وثنيتهم بعقـولهم وقلوبهم وشعائـرهم ـ إلى ضعف عـام في التديّن يضـاف إلى هذا كله كمـا يقول الأستـاذ (متولي يـوسف شلبـي): (إن الأحـوال المعيشية عنـد الرومـان لم تسـاعـد على أن يـأخـذ السلطان الديني محله في النفوس فبينما نجد الـرخاء والتـرف من حظ الطبقـة الحاكمـة نجد عـامـة الشعب يتلوى من الجـوع. . . لـذلـك فقـد خبـا لهيب السلطان الـديني من القلوب، فأراد الفلاسفـة أن يملأوا هـذا الفراغ، لتـأخذ الفلسفـة محلها في مـراقبة السلوك محـل السلطان الـديني، فقـامت التعـاليم الفلسفيـة بشـذى ديني، والتحم الشعـور الديني بـالتذوق الفلسفي، حتى صنـع من الأديـان التي تؤمن بهـا الـدولـة الرومانية وحدة طقوس وشعائر، فـالتقت المسيحية مع الفلسفة ومع الطقوس الـوثنية القديمة، فكـانت المسيحية التي امتـزجت بالفلسفـة والأفكار الـوثنية أو الـوثنية التي صارت مسيحية، وانصهرتا معاً في بوتقة واحدة)[٢].

إن الفلسفة كان لهـا فعل السحـر في النصرانيـة، فقد استـطاعت أن تنفذ إلى أعماق العقيدة. يقول الأستاذ (جيني بيـر): (ولقد ظـل الفكر اليـوناني خميـرة لكل نظريات علم اللاهوت الـذي نما نمـواً هائـلاً، فالمسيحيـون ينهلون من ذلك النبـع الدافق للأفكار الميتافيزيقية سواء في طريقة مباشرة من كتب الفلاسفـة الأفلاطـونيين أو غيـر مباشـرة في كتب (أوريجين ١٨٥ ـ ٢٥٤م). . وسط هذه المعمعـة الحاميـة الوطيس نجد الصراع يدور حول العلاقة بين الآب والابن في نطاق الثالوث)[٣].

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) أضواء على المسيحية، متولي يوسف شلبي: ص ٢٩. الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

(٣) المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٨٣.

المسيحيـة المفلسفـة:

بقيت المسيحية ديناً إلّهياً لم يخضع لمؤثرات البيئة الرومانيـة أو الهيلينية حتى نهاية عهد الحواريين. ولكن المسيحية لم تقف عند هذا الحد بعـد دخولهـا معركـة مـع البيئة الـرومـانيـة اليـونـانيـة التي كـانت تحمـل في رحـابهـا التفكيـر المختلف الاتجاهات بما فيه التفكير الديني، هذا التفكير وإن لم يكن متكاملاً إلَّا أنـه لا يقبل أن يتلاشى بسهولة دون رد فعل، يقول الأستاذ (جيني بير): (فلما تلاشت تلك الفئة من الناس الذين عرفوا المسيـح لحماً ودمـاً لم يكن هناك أي اعتبـار تاريخي يحـدد أو ينظم الإضافات في الإيمان، لذلك نراها تنمـو وتزداد في تصـوُّرات رئيسية ثـلاثة للسيد المسيح قابلة للبحث والتنقيب:

الأولى: تصوُّر بولس وخطوطه الرئيسية، هي:

١ ـ كان عيسى إنساناً سماوياً سبقت عناصـره الروحيـة في الوجـود، وجوده الجسمي كان في السماء ومبدأ حياته هو الروح الإلّهية نفسها وليس هو الروح.

٢ ـ وجاء إلى الأرض لينشىء إنسانيـة جديـدة، يحررهـا من أثقال الخـطايا بقبـوله في سبيـل شرائهـا أن يعيش عيشـة الإنسـان المحقَّـر وأن يمـوت ميتـة الآثم المشينة (فهو صورة الله الخفية وهو أول الخلق).

٣ ـ شخصيته هي المكان (الميتافيزيقي)[1] الذي يجتمع فيه الله والخليقة.

أما التصور الثاني: فهو الذي تبرز فيـه النظريـة (اليوحـانية) التي تعتمـد على تعريف (السيد) بـ(اللوغوس)[2] الأمر الـذي يبدو لأول وهلة قـريباً من عبـارة بولس القـائلة بأن السيـد هو الـروح، ولكن هذا التصـور ينطوي على مفهـوم أكثر عمقـاً، حيث إن (اللوغـوس) وهـو فيض الله، يمكن في نهـايـة البحث أن يكـون تعبيـراً عن الله، والقـول بأن السيـد هو (اللوغـوس) يكاد يكـون مرادفـاً للقـول بـأن السيـد هو الله.

---

(١) (الميتافيزيقي) كلمة يونانية بمعنى ما وراء الطبيعة أو ما وراء الحس والمشاهد.

(٢) (اللوغوس): اصطلاح يوناني بمعنى الكلمة أو ما يفيض عن الله.

ويأتي التصوُّر الأخير لشخصية المسيح وهو المعروف بالظاهري، والذي يقول بأن السيد ليس إنساناً إلَّا ظاهرياً، وبأنه لم يمتحن ولم يمت إلَّا في الظاهر(1) .

وهكذا بدأت الفلسفة تتدخل في المسيحية بإيجاد المعاني المناسبة لبعض الكلمات والاصطلاحات المسيحية، وعند انتشار هذه التفسيرات والنظريات بدأ رجال الدين أنفسهم من المسيحيين يتساءلون عن معاني بعض التعبيرات التي يجدونها في المسيحية كالأبوة والبنوَّة والكلمة وغير ذلك، فنشأ ما يسمى بالمسيحية المفلسفة.

ولعل مسألة عيسى عليه السلام والأقانيم الثلاثة كانت محور البحوث والنظريات التي خاض بها الفلاسفة، أو فلسفها المسيحيون وظهرت في المسألة اتجاهات متعددة، ونشأت خلافات كثيرة أدت إلى اختلاف بين الكنائس، وحروب طويلة دامية، وبقي الخلاف مستمراً حول المسألة، وما زال حتى يومنا هذا.

لقد نشأت المدرسة العقلية المسيحية على يد (أوريجنس ١٨٥ ـ ٢٥٤م) في الإسكندرية، وهو زعيم الاتجاه العقلي في العقيدة، والأستاذ محمد البهي يوضح لنا رأي (أوريجنس) في هذه المسألة فيقول:

(لم يقف (أوريجنس) عند التفسير يفوِّض المعنى في ذلك إلى الله شأن المفوضين من علماء الدين، كما لم يذهب إلى الشرح الحسي، فاعتبر المسيح عقل الله، فالله والمسيح إذن، أو الله وابنه أو الله وكلمته، أزليَّان قديمان، لأن العقل البشري في اللحظة التي يتصور فيها وجود الله يتصوّر أيضاً وجود كلمته معه فليس وجودها مسبوقاً بفترة من الزمن)(2).

ثم يورد الأستاذ (البهي) نظرية (أوريجنس) في الحلول وفي طبيعة السيد

---

(١) انظر: المسيحية، جيني بير: ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢) الجانب الإلَهي من التفكير الإسلامي، د. محمد البهي: ص ١٠٥، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧م.

المسيح فيقول: (وإذا كان عيسى قد عبَّر عنه بالمسيح، وجعل مساوياً له فمعنى ذلك في شرح (أوريجنس) أن المسيح هو كلمة الله، أو عقله حل في عيسى الإنسان، والمسيح بهذا المعنى بدأ في شخص عيسى، وعيسى بناء على ذلك إنسان إلَهي صورته الخارجية صورة إنسان وطبيعته الداخلية مما ينتمي للإلَه، فهو طبيعة مركبة من طبقتين امتزجتا وصارتا طبيعة واحدة)[1]، (ثم تطور هذا الاتجاه على يد القديس (ديسقورس) حتى أصبح معنى حلول المسيح في عيسى: أن عيسى كاد يكون مساوياً للإلَه ولا أثر للناسوت فيه، وسمي هذا المذهب بمذهب المساواة)[2].

وهكذا وبتأثير ثقافة البيئة الهلينستية بدأ رجال الدين المسيحي يفسرون النصوص التي عندهم تفسيراً فلسفياً حتى توصلوا إلى هذه النظريات التي ألَّهت السيد المسيح أو جعلته قريباً من الإلَه.

غير أن هذه التفسيرات المؤلهة لم تكن محل إجماع عند رجال الدين المسيحي أنفسهم، فإننا نرى منهم من أنكر هذه النظريات التي رفعت المسيح من كونه بشراً، ومع ذلك كانت لهم نظريات متأثرة بالفلسفة من أمثال (آريوس) و(نسطور) اللذين أنكرا مذهب المساواة، وسيأتي الحديث عنهما إن شاء الله عند حديثنا عن المجامع وأثر رجال الكنيسة على الانحراف.

الفلسفة والتثليث:

بعد أن أثبتنا في فصل ماض أثر الوثنية على تسرب عقيدة التثليث إلى المسيحية نشير هنا إلى أن الفلسفة أيضاً كان لها دور بارز في هذه العقيدة، فقد توصلوا بتفكيرهم إليها وأشاعوها بين الناس حتى بدأت تتسرب إلى المعتقدات المسيحية.

والفلسفة اليونانية هي الفلسفة التي برز فيها هذا التفكير، وهي أيضاً تهمنا

---

(١) نفس المرجع: ص ١٠٦.

(٢) نفس المرجع: ص ١٠٧.

بالدرجة الأولى من بين الفلسفات، لأنها الفلسفة السائدة في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه العقيدة المسيحية.

يقول الدكتور إبراهيم نصحي في كتابه تاريخ البطالمة: (والحق أن المؤثرات الهلنستية قد بدأت تتسرب إلى المعتقدات المسيحية، كما يقر اللاهوتيون المسيحيون، إذ أخذت الكنيسة تلائم بين معتقداتها، وبين أنماط الفكر المعروف في العالم الهلنستي)[١].

وأبرز قضية دخلت إلى المسيحية عن طريق الفلسفة هي (التثليث)، تلك الفكرة التي عرفها الفلاسفة اليونانيون على هذا النحو: (كانت الفكرة الهلنستية عن العالم أنه مركب من ثلاث طبقات، السماء والأرض والعالم السفلي، وجرى تطبيق تصوُّر ذلك التصوُّر الثلاثي على المسيح بالقول بمرحلة وجود أولي له سابقة على ولادته من مريم على الأرض، ثم مرحلة التجسد عند ولادته من مريم، ثم مرحلة قيامه بعد الصلب ورفعه، وبدأت بوادر ذلك في كلام (بولس) الذي لم يشهد المسيح، وتظهر آثار ثقافته اليونانية من خلال كلماته)[٢]، وفعلاً فإن الذي يمعن النظر في كلمات بولس يدرك صلة هذه الكلمات بالفلسفة، وأن التصور الذي وضعه بولس للمسيح عليه السلام يتناقض تماماً مع نظرة الأناجيل الثلاثة الأولى، ومع ما كان يفهمه أتباع المسيح زمن وجوده.

(لقد أعطاه اسماً فوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء والأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب المجد الله الآب)[٣].

واسمع ما يقوله بولس أيضاً في وصف السيد المسيح في رسائله إلى أهل

---

(١) عن مقال للدكتور محمد فتحي عثمان، بعنوان (التثليث والنصرانية) في مجلة (هذه سبيلي): ص ٣٥٥. العدد الأول، السنة الأولى ١٣٩٨هـ ـ تصدر عن المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض.

(٢) عن مقال الدكتور محمد فتحي عثمان بعنوان (التثليث والنصرانية): ص ٣٥٥.

(٣) فيلبي: ٢/ ٦ ـ ١١.

كولوسي: (فإن فيه خلق الكل.. ما يرى، وما لا يرى، سواء أكان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين، الكل به ولد، وله قد خلق الذي هو قبل كل شيء، وفيه يقوم الكل، وهو رأس الجسد الكنيسة الذي هو البداءة)(١).

يقول الأستاذ (محمد فتحي عثمان) بعد أن أورد هذه النصوص: (وبوْن شاسع بين هذه الصياغة الفلسفية المعقدة، وبين أسلوب رواية الوقائع في الأناجيل الثلاثة الأولى بوجه خاص، مع أن هذا الأسلوب المعقد يشيع أحياناً في إنجيل يوحنا ومن ذلك افتتاحيته نفسها)(٢).

نعود إلى التثليث فنقول بأنه قد عرف عند الفلاسفة (وقد تعرف الفكر الهلنستي مثلاً على معتقد (الثالوث الإلّهي) في مصر وارتضى (البطالمة) عبادة ثالوث من (سيرابيس وإيزيس وهاربوكراتيس) وهو صورة معدلة لما عرفه المصريون من قبل من (أوزيريس وإيزيس وهورس)، وكان المصريون والإغريق يعبدون نفس الإلّه في صورتين مختلفتين، تتناسب كل منهما مع معتقدات كل فريق، كما يقول الدكتور إبراهيم نصحي صاحب المؤلف الموسوعي (في تاريخ البطالمة: ١/ ٢٧)(٣):

ولقد اتضحت فكرة التثليث بارزة عند الفلاسفة في مدرسة الإسكندرية، أو ما تسمى بالأفلاطونية الحديثة، فإن التثليث فيها بأقانيمه الثلاثة لا يكاد يختلف شيئاً عن التثليث في النصرانية.

(وكان شيخ مدرسة الإسكندرية (أمنيوس المتوفى سنة ٢٤٢م) قد اعتنق في صدر حياته المسيحية، ثم ارتد عنها إلى وثنية اليونان الأقدمين، وجاء من بعده تلميذه (أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠م) وقد تعلم في مدرسة الإسكندرية أولاً، ثم رحل إلى فارس والهند، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية واطلع على تعاليم

---

(١) كولوسي: ١/ ١٥ ــ ٢٠.

(٢) المقال السابق للدكتور فتحي عثمان، مجلة هذه سبيلي: ص ٣٥٦.

(٣) من مقال الدكتور فتحي عثمان، مجلة هذه سبيلي: ص ٣٥٨.

(بوذا) وديانة (برهمة)، ثم عاد بعد ذلك إلى الإسكندرية وأخذ يلقي بآرائه على تلاميذه)[1].

و (أفلوطين سنة ٢٧٠م) هو الذي برزت في ذهنه قضية التثليث التي تسربت إلى ذهنه، وتعلمها من الديانات الهندية، وقد تحدثنا في الفصل الماضي عن التثليث عند الوثنيين الهنود، ولاحظنا تثليث البراهمة وتثليث البوذيين، فعاد أفلوطين من هناك، وهو يحمل في جعبته هذه الأفكار.

ويتلخص كتابه في منشىء الكون في ثلاثة أمور:

أولها: أن الكون قد صدر عن منشىء أزلي دائم لا تدركه الأبصار.

ثانيها: أن جميع الأرواح شُعب لروح واحد، وتتصل بالمنشىء الأول بواسطة العقل.

ثالثها: أن العالم في تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة، فالله منشىء الأشياء وهو مصدر كل الأشياء، وأول شيء صدر عنه هو العقل، صدر عنه كأنه يتولد منه، ولهذا العقل قوة الإنتاج لكن ليس كمن تولد عنه، ومن العقل ما تنبثق الروح التي هي وحدة الأرواح، وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ومنه يتولد كل شيء)[2].

فهل هنالك فرق بين هذا الاعتقاد الفلسفي وبين عقيدة الثالوث النصرانية التي أقرتها مجامع النصارى. فالكون عند (أفلوطين ٢٧٠م) صدر عن منشىء أزلي دائم، وهو ما يطلق عليه النصارى اسم (الآب)، والعقل هو الواسطة وهو صادر عن المنشىء الأول، وهو ما يطلق عليه عند النصارى اسم (الابن) وعن هذا العقل تنبثق الروح، وهي ما يسميه النصارى (روح القدس). ويقول (أفلوطين): وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء، ومنه يتولد كل شيء. وهذا هو نفس اعتقاد النصارى في

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ٤٠، الهامش (عن كتاب: مقدمة أو المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، للمستشرق (لميون جوتيه) طبع باريس سنة ١٩٢٣م).

(٢) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ٤٠.

الثالوث الذي يعتبر منشىء الكون وخالقه يتولد منه كل شيء في الحياة، كما يقولون.

أمام ذلك نستطيع الجزم بأن المسيحية قد أخذت فكرة التثليث إما عن الفلسفة مباشرة، وإما عن الوثنية، وهي نفس المعين الذي استقت منه مدرسة الإسكندرية أفكارها، ولعلها أخذت مباشرة عن الفلسفة لأن أفكار (أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠م) كانت سابقة بفترة زمنية قليلة على الفترة التي أقرَّ فيها التثليث في مجمع (نيقية سنة ٣٢٥م).

المهم أن عقيدة التثليث دخيلة على النصرانية، ظهرت انعكاساً لدراسات الأفلاطونية الحديثة، والأوهام السائدة في المجتمع الروماني اليوناني.

يقول الأستاذ فتحي عثمان: (واللاهوتيون المسيحيون يتجاهلون الترتيب الزمني، ويحاولون أن يعززوا القول بأن التفسيرات التالية في الحدوث حسب الترتيب الزمني، هي أصل المسيحية أو جوهرها الذي لم يكشف عنه الغطاء إلاَّ بعد تطوُّر معيَّن، ويذكر الباحث اللاهوتي تاريخ تدمير معبد اليهود في أورشليم (القدس) على أيدي الرومان سنة ٧٠م، كحد فاصل في تاريخ الكتابات الإنجيلية، إذ بدأ بعد ذلك التاريخ إضفاء الألوهية على المسيح بوضوح، وهو لا يرى في ذلك مجرد صدفة، بل يرى أن تدمير الهيكل استلزم أن تكسر المسيحية عنها طوق اليهودية بتوحيدها المتشدد)[1].

وهكذا فإن العقيدة المسيحية لم تبقَ على حالها، وبدأ تطور هذه العقيدة (كما أوضح الأستاذ جيني بير) كالتالي:

١ ــ لم يكن الإيمان من حيث المبدأ يقبل أي جدل في عقيدته الأساسية الخاصة بالتوحيد.

٢ ــ كانت النهاية لكل الإضافات الإيمانية الخاصة بدور شخصية المسيح تقربية من الله إلى درجة الوحدة.

---

(١) من مقال الدكتور فتحي عثمان السابق في مجلة (هذه سبيلي): ص ٣٥٨.

٣ ـ كانت هناك نزعة عكسية تسعى إلى إبراز الألفاظ من رمز الآب والابن وروح القدس في شخصيات ثلاث تتحدد معالمها وتتميز يوماً بعد يوم[١].

وبذلك تكون المسيحية وقعت أمام هذا المأزق (ولم يكن لها إن أرادت الخروج سوى حلين: إما التخلي صراحة عن التوحيد والتسليم بالتثليث، وإما التخلي عن التمييز بين الشخصيات الثلاث في الله، أو القول بأن كلاًّ من هذه الشخصيات ليس سوى جانب جوهري من جوانب الذات الإلَهية الواحدة. ولكن غالبية المسيحيين أرادت أن تُبقي على وحدة الله التي لا تتجزأ)[٢].

وبدأت الفلسفة تتناول قضايا المسيحية لتلبسها الثوب الفلسفي فتناولت ولادة المسيح من غير أب، وألفاظ (ابن الإنسان) و (المعلم) و (السيد) و (الكلمة) و (رفع المسيح أو قيامته) وبدأت تفسِّر وتحلل هذه الاصطلاحات كما شاءت.

وبذلك تكون الفلسفة قد تمكنت من الدخول إلى أعماق النصرانية تشوهها بأفكارها الوثنية، وتفرض عليها ثقافة البيئة الرومانية اليونانية، تلك الثقافة التي تعتبر خليطاً من أوهام وتصورات شتى، جمعتها من الأفكار الوثنية واليهودية والأوضاع السياسية في الدولة الرومانية التي كانت تحكمها.

إن كل هذه العوامل كان لها أثر كبير على الفلسفة، وعلى مجالات بحوثها، وتنعكس هذه كلها في النهاية على الديانة النصرانية.

ونقول أخيراً مع العلامة (ول ديورانت) في قصة الحضارة: (إنا لنحس في هذه الفلسفة بما تحس به في المسيحية المعاصرة من جوّ روماني، نحس بابتعاد العقول الغضة عن مطالب الحياة الدنيوية، وليس عجيباً أن يكون (أفلوطينس ٢٧٠م) (وارجن) تلميذين صديقين، و (أفلوطيني) هو آخر الفلاسفة الوثنيين العظام، وهو مسيحي بلا مسيح... ولقد قبلت المسيحية كل سطر من أسطره

---

(١) المسيحية، جيني بير: ص ١٥٧.
(٢) نفس المرجع: ص ١٥٧.

تقريباً، وما أكثر صحائف (أوغسطين المتوفى سنة ٤٣٠م) التي تردد نشوة هذا الصوفي الجليل)[١].

أثر الدولة الرومانية في انحراف النصرانية عن التوحيد:

قبل أن نبدأ في حديثنا عن أثر الدولة الرومانية في انحراف النصرانية، لا بد لنا أن نتعرف بشيء من الإيجاز عن نشأة علاقة المسيحية بهذه الدولة.. ومن خلال ذلك نعلم أن المسيحية هي التي زجت نفسها في غياهب الأفكار والمعتقدات الفلسفية الرومانية.

إن المسيحية قد نشأت على أرض فلسطين، فكانت دعوة أراد الله تعالى لها أن تكون خاصة لبني إسرائيل فقط، ومضى عهد المسيح وعهد حوارييه والنصرانية تلتزم هذه الخاصية، لكن الأمور قد تغيرت بعد انقضاء هذا العهد، فالقديس (بولس) اليهودي الروماني لم يلتزم بذلك، بل قرر الخروج بالنصرانية عن تلك القاعدة، وبدأ يبشر جميع الأمم، ويدعوهم إلى الديانة الجديدة، وكانت الدولة الرومانية آنذاك تسيطر على أرض فلسطين، فدخل كثير من الرومان إلى النصرانية، وأدخلوا معهم أفكارهم الفلسفية الوثنية، ولم تقف المسيحية عند هذا الحد، بل عبرت إلى أوروبا بعد ذلك، وتشكلت داخل الفكر الروماني اليوناني على النحو الذي أراده (بولس) من قبل منحرفاً عن المنهج الإلَهي الذي جاء به عيسى عليه السلام.

ومنذ أن عبرت المسيحية حدود الدولة الرومانية وبدأت تبشر بدعوتها جميع الناس من رعايا تلك الدولة غير مقتصرة على شعب اليهود، بدأت الدولة الرومانية تضطهد النصارى، والمؤرخون يشيرون إلى عشرة اضطهادات بين السنة ٦٤ بعد الميلاد والسنة ٣١٣ سنة البراءة[٢].

ولعل أشد فترة من الاضطهاد كانت في عهد (نيرون ٥٤ ــ ٦٨م)، حيث

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٣٠٤.

(٢) الروم، د. أسد رستم: ١/٣٣، الطبعة الأولى ١٩٥٥م، دار المكشوف ــ بيروت.

يقول أسد رستم: (إن الاضطهاد أجري بموجب تشريع خاص صدر عن الإمبراطور (نيرون) سنة ٦٤م وقضى بأن لا يكون أحد مسيحياً[١]).

وفي الفترة ما بين عبور النصرانية إلى المجتمع الروماني، واعتناق قسطنطين لها، فإن النصرانية كانت تعيش صراعاً من ناحيتين:

الأولى: مع الدولة، وقد واجهت منها اضطهاداً شديداً وتنكيلاً لا يطاق.

والثانية: مع المجتمع الروماني الوثني، فقد خاضت المسيحية معه صراعاً دينياً وفكرياً مريرين، حيث واجهت المسيحية الغضَّة أفكاراً فلسفية وثنية، وكان على المسيحية بوصفها ديانة تحمل تعاليم إلٓهية أن تفرض هذه التعاليم على المجتمعات الأخرى، تصحح بها ما علق في أذهان الناس من خرافات الفلسفة والوثنية، ولكن الذي حدث عكس ذلك، فقد تنازلت المسيحية عن معتقداتها لتذوب وسط المعمعة الفكرية الوثنية.

لقد بدأ النصارى يتنكرون لبعض المبادىء الأساسية في شريعتهم، ويتقبلون كثيراً من الأفكار الوثنية السائدة في ذلك المجتمع، كل هذا التنازل كان مداهنة منهم لتلك المجتمعات.

ويقصّ علينا القاضي (عبد الجبار الهمذاني ٤١٥هـ)، نقلاً عن كتاب للنصارى يعرف بكتاب (إفراسكس)[٢] أن قوماً من النصارى خرجوا من بيت المقدس وأتوا (أنطاكية) وغيرها من الشام، فدعوا الناس إلى سنَّة التوراة، وتحريم ذبائح من ليس من أهلها، وإلى الختان، وإقامة السبت، وإلى تحريم لحم الخنزير. وأن ذلك شقّ على الأمم، فاجتمع النصارى في بيت المقدس، وتشاوروا فيما يحتالون به على الأمم، ليجيبوهم ويطيعوهم، فأوجب رأيهم مداخلة الأمم والترخص لهم، وترك مخالفتهم والاختلاط بهم والأكل من ذبائحهم، وقد قال

---

(١) نفس المرجع: ص ٣٣.

(٢) ذكره ابن النديم بقوله: (وكتاب الحواريين ويعرف بـ (فراكسيس) بتقديم الكاف على السين). انظر: الفهرست، لابن النديم: ص ٤١، المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر.

بولس في الكتاب الذي يسمونه (بالسليح)[1]: (أنا قلت لهم إلى كم تهوّدون الناس) وقال في (السليحين)[2]: (كنت مع اليهودي يهودياً ومع الرومي رومياً، ومع الإرمائي إرمائياً، والإرمائي هو الذي يعبد الكواكب والأوثان)[3].

وهذا ليس أسلوب أصحاب العقائد من الرسل والدعاة، ولم يعهد عن المسيح عليه السلام أوحوارييه مثل هذا الأسلوب، وهم الذين ذاقوا أشد أنواع الاضطهاد، ولم يغيروا حكماً من أحكام دينهم.

وبهذه الطريقة استطاع (بولس) أن يتمكن عند ملوك الروم ويكون له عندهم شأن عظيم. والانقلاب الذي حدث بدخول الدولة الرومانية إلى المسيحية تعود أسبابه الأولى إلى تمهيد من بولس، ويساعده في عمله زواج (هيلانة) لـ (بيلاطس) ويعتبر زواجها منه بداية الطريق لهذا التحول في الدولة الرومانية. وقصة الزواج هذه، يرويها القاضي عبد الجبار فيقول: (وقد كان للروم ملك يقال له (بيلاطس) ماتت امرأته فأراد أن يتزوج مكانها، فوصف (بولس) لـ (بيلاطس) امرأة بحرّان يقال لها (هيلانة) تكون في فندق بحران ـ والفندق هو الخان ـ وكانت نصرانية فحظيت عنده، وسألته إعزاز النصارى والإحسان إليهم، فأعزهم وصانهم ومكن لهم في ممالكه بالشام وبلاد الروم.. وولد له من (هيلانة) ابن يقال له (قسطنطينوس)[4] وهو (قسطنطين) الذي آل الملك إليه واعتنق النصرانية بتأثير أمه (هيلانة).

فبولس هو الذي مهّد لهذا كله، ومن هنا قدّسه النصارى، ووثقوا به، وقبلوا منه كل تحريف، ووضع ذلك لأنه رفع عنهم الاضطهاد الذي عاشوه طويلاً. ولم يعلم هؤلاء المساكين أن ذلك لم يكن انتصاراً للمسيحية كما تصوّروا، بل كان

---

(١) السليح، اسم كتاب لبولس. ذكره ابن النديم وقال بأنه يتألف من أربعة وعشرين رسالة. انظر: الفهرست، لابن النديم: ص ٤١.

(٢) السليحين، اسم كتاب آخر لبولس.

(٣) تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار الهمذاني: ١/١٥٠، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٣٨٦هـ.

(٤) نفس المرجع: ١/١٥٩.

هزيمة ساحقة لها أمام الوثنية الرومانية. و(بولس) لم تكن تهمه تعاليم المسيح بقدر ما يهمه رضى الرومان عنه، ومن هنا جاءت أحكامه الجديدة مخالفة لشريعة التوراة ولما جاء به عيسى عليه السلام. يقول القاضي عبد الجبار: (وكانت الروم تصلي إلى مشرق الشمس ولا ترى وجوب الوضوء ولا غسل الجنابة ولا الحائض.. وأن الروم تزوّج الوثنيين وسائر الأمم، وبنو إسرائيل لا تفعل ذلك، فقالت الروم لبولس في ذلك فقال: تزوج المؤمنة بالكافر فإنها تطهره، ولا ينجسها، والولد بينهما طاهر، وقال: هذا إنما تحرمه التوراة، والتوراة شرّ كلها، وإذا وضع عن الناس شرائع التوراة فقد كمل برّ الله وفضله، فاختلع (بولس) من ديانات المسيح وصار إلى ديانات الروم)[١].

وبناءً على هذه التنازلات وأمثالها كثيرة في تاريخ النصرانية مع الرومان فقد قال القاضي عبد الجبار كلمة تكتب بماء الذهب، تصف الواقع الذي حدث بتنصر الدولة الرومانية. فيقول: (إذا تبينت الأمر وجدت النصارى تروَّموا ورجعوا إلى ديانات الروم، ولم تجد الروم تنصروا)[٢]. نعم إن الواقع قد أثبت أن الروم لم يتنصّروا ولكن النصرانية قد تروَّمت.. وقد قالها (شارل جيني بير) بعد القاضي بقرون: (إن الغربيين لم يكونوا قط مسيحيين في يوم من الأيام)[٣].

قسطنطين (٢٨٠ ـ ٣٧٧م)[٤]:

وقبل أن نبيِّن أثر الدولة الرومانية على الانحراف الذي نشهده في النصرانية لا بدّ لنا أن نتعرف على شخصية الإمبراطور (قسطنطين) الذي بدأت على يديه قصة اعتناق الدولة الرومانية للنصرانية.

---

(١) تثبيت دلائل النبوّة، القاضي عبد الجبار الهمذاني: ١٥٨/١.

(٢) نفس المرجع: ١٥٨/١.

(٣) المسيحية، جيني بير: ص ٢٠٩.

(٤) هو قسطنطين بن قسطنديوس كلوروس من زوجته هيلانة، ولد في (نيش) من أعمال يوغوسلافية، حوالي سنة ٢٨٠م، وقد اختلف في أصل والدته فهي: إما أناضولية بلقانية في بعض المصادر أو سورية رهوية في البعض الآخر، نشأ في نيقوميدية في حاشية الإمبراطور =

وشخصيَّة هذا الإمبراطور ذات أهمية كبيرة، وتوليه عرش الإمبراطورية يعتبر عند النصارى فاتحةَ خير وبركة على المسيحية، فقد انتهى الاضطهاد الذي عاشوه طويلاً. وأصبح رجال الدين النصارى يتمتعون بالمناصب العليا في الدولة، وتدرجوا بهذه المناصب حتى صارت رتبة البابا أعظم من رتبة الإمبراطور نفسه.

تولِّيهِ العرش:

كانت الإمبراطورية الرومانية قبل توليه العرش تعاني من انقسامات حادة، فقد كان يحكمها إمبراطوران هما (ديو قليتيانوس ٢٤٨ ـ ٣٠٥م) في الشرق وعاصمته (نيقوميدية)، و(مسكيميانوس) في الغرب ومقرّه (ميلان)، وكان هناك قيصران مساعدان لهما الأول (غلاريوس) ويحكم إيليرية واليونان ومقدونية (وهو الذي طرد (قسطنطين) عن قيادة الجيش). والثاني: (قسطنديوس كلوروس) ويحكم غاليه وإسبانية وبريطانية (وهو والد قسطنطين)، ولما استقال الإمبراطوران سنة ٣٠٥م تولى الحكم بعدهما بموجب النظام الجديد القيصران المذكوران. وفي سنة ٣٠٦م توفي (قسطنديوس) فأعلن (قسطنطين) نفسه قيصراً مكان أبيه، وحدثت اضطرابات في رومة وأصبح للدولة أباطرة ثلاثة وقياصرة ثلاثة، واستطاع (قسطنطين) أن يستولي على الحكم وحده وهزم كل هؤلاء في عدة حروب، وفي سنة ٣٢٣م أصبح (قسطنطين) حاكم الإمبراطورية الفرد)[١].

أما عن تنصره وموقفه من النصرانية فلقد كان لوالدته (هيلانة) أثر كبير في التفاته إلى النصرانية، فقد عرفنا أنها كانت تعتنق النصرانية قبل أن تتزوج والده، واستطاعت أن تخفف الاضطهاد عن النصارى من قبل، لذلك فإنها غذَّت ابنها حب

= (ديو قليتيانوس) والتحق بالجيش وهو في الخامسة عشرة من عمره، وأظهر شجاعة وبأساً وحنكة ودراية فرقي إلى رتبة قائد في الثامنة عشرة.. ولما تولى (غلاريوس) مكان (ديو قليتيانوس) فصل (قسطنطين) من الجيش.. ثم استدعاه والده (قسطنديوس) قيصر فالتحق به وكان يحكم غاليه وإسبانية وبريطانية. تولى عرش الإمبراطورية سنة ٣٢٣م. وتوفي يوم العنصرة ٢٢ أيار سنة ٣٣٧م.

انظر: الروم، أسد رستم: ١/٥٢، ٥٣، ٧٢.

(١) الروم، أسد رستم: ١/٥٢، ٥٣.

الصليب والنصرانية. . لكن أحداً من المؤرخين لم يقل إن (قسطنطين) اعتنق النصرانية قبل اعتلائه عرش الإمبراطورية، مع أن أرجح الروايات، أنه لم يتقبل سر المعمودية إلّا وهو على فراش الموت.

أما السبب المباشر لتحوله إلى النصرانية فهو سبب سياسي، وإن كان المؤرخون المسيحيون يكتفون بذكر قصة الرؤيا التي رآها في منامه أو ما رآه أو خيِّل له أنه رآه في نهاره.

ويذكر صاحب قصة الحضارة أن قسطنطين حارب أعداءه الذين تآمروا عليه، وانتصر عليهم بعد أن زحف على رومة بسرعة مدهشة ونظام عسكري. . وفي إحدى المعارك شاهد بعد ظهر اليوم الذي دارت فيه المعركة صليباً ملتهباً في السماء وعليه عبارة معناها (بهذه العلامة انتصر)، وفي صباح اليوم التالي رأى (قسطنطين) فيما يرى النائم أن صوتاً يأمره بأن يرسم جنوده علامة الصليب على دروعهم، فلما استيقظ من نومه صدع بما أمر، وخاض معركة خلف لواء عرف من ذلك الوقت باسم (اللبارم) رسم عليه الحرفان الأولان من لفظ (المسيح) يربطهما صليب)[١].

ويذكر (أسد رستم) أن السيد المسيح ظهر له أثناء تلك الليلة حاملاً هذه الشارة نفسها موصياً إياه باتخاذها راية يهجم بها على عدوه، وهي التي أصبحت فيما بعد راية دولة الروم)[٢].

هذا ما يقوله المؤرخون عن السبب المباشر الذي جعل (قسطنطين) يتحول بدولته إلى النصرانية ويجعل شعارها راية له في معاركه.

ونحن هنا نترك التعليق للمؤرخ (ول ديورانت) الذي يقول بعد سرده لهذه القصة: (ولعل حقيقة الأمر أن (قسطنطين) رأى أن يربط حَظّه بحظ المسيحيين، حين رأى (مكسنتيوس) يرفع لواء (مثراس) وهو لواء الشمس التي لا تقهر)[٣].

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٣٨٤.

(٢) الروم، أسد رستم: ١/٥٣.

(٣) قصة الحضارة: ١١/٣٨٥.

ويتساءل (ول ديورانت) بعد ذلك فيقول: (ترى هل كان (قسطنطين) حين اعتنق المسيحية مخلصاً في عمله هذا، وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية، أو هل كان ذلك العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية؟ أكبر الظن أن الرأي الأخير هو الصواب)[1].

والأدلة تؤيد ما ذهب إليه (ول ديورانت) فإن (قسطنطين) لم يتحول إلى النصرانية عقيدة، وإنما تحول لها لأن الظروف السياسية أملت عليه ذلك، أو أنه رأى من مصلحته، ومما يدعمه في حكمه أن يربط حظه بالصليب من جهة، وأن يجعل من النصارى الذين انتشروا في أنحاء الإمبراطورية أعواناً مخلصين يساعدونه في القضاء على أعدائه، وأكبر المؤيدات لذلك: أن (قسطنطين) بقي وثنياً طوال حياته، وأنه لم يتقبل النصرانية إلاَّ على فراش الموت كما نقل أسد رستم عن (فازلييف)[2]، وإن كان الدكتور أسد رستم قد ذكر أنه تقبل سر المعمودية بعد انتصاره على (مكسنتيوس) في سنة ٣١٢م نفسها، وينقل ذلك عن العالم الفرنسي (جول مويس) لكنه قال: (ويرى غير هذا العالم من رجال الاختصاص أن دليله ضعيف)[3].

والمعروف أيضاً أن تحول قسطنطين هذا لم يكن يعني أن النصرانية أصبحت دين الدولة الرسمي، فإن (براءة ميلان ٣١١م) ما نصَّت إلاّ على حرّية النصارى في عبادتهم، ومما جاء في البراءة: (وللمسيحيين أن يستمروا في الوجود، وأن ينظموا اجتماعاتهم شرط أن لا يخلّوا بالنظام، وعليهم بناء على تسامحنا وتعاطفنا أن يصلّوا إلى إلّههم ليسعد ظروفنا وظروف الدولة وظروفهم)[4].

بل إن (قسطنطين) نفسه بقي على وثنيته عبادة: (فكان يزور معابد الوثنيين

---

(١) نفس المرجع: ١١/٣٨٧.

(٢) الروم، أسد رستم: ١/٥٤.

(٣) نفس المرجع: ص ٥٤.

(٤) نفس المرجع: ص ٥٤.

ويحضر اجتماعاتهم)[1].

أما العبادات والشعائر المسيحية فلم يكن يهتم بها، وهذا ما يؤكده (ول ديورانت) فيقول: (وقلما كان بعد اعتناقه دينه الجديد يخضع لما تتطلبه العبادات المسيحية من شعائر وطقوس، ويتضح من رسائله التي بعث بها إلى الأساقفة المسيحيين أنه لم يكن يعنى بالفروق اللاهوتية التي كانت تضطرب بها المسيحية، مع أنه لم يكن يتردد في القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية)[2].

فالقضية عنده سياسية، فقد تحول إلى المسيحية علَى أمل أن يكون هذا التحول طريقاً له إلى نصره على أعدائه ومناوئيه، وظل الهدف هذا قائماً حتى بعد تحوُّله، فالأساس عنده مصلحته واستتباب الأمن في إمبراطوريته، وهكذا كان يعامل رجال الدين النصارى (وكان أثناء حكمه كله يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون، فكان يستدعيهم ويرأس مجالسهم، ولو أنه كان مسيحياً حقاً لكان مسيحياً أولاً وحاكماً سياسياً بعدئذ، ولكن الآية انعكست في حال قسطنطين فكأن المسيحية عنده وسيلة لا غاية)[3].

وانطلاقاً من هذه السياسة كان هذا الإمبراطور يكره أي اختلاف ويحاول القضاء عليه بأقصى سرعة لأنه يخشى أن يؤثر هذا الخلاف على عرشه. وهذا ما ظهر واضحاً في قضية (آريوس ٢٧٠ ـ ٣٣٦م) الذي سنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله.

فقد أراد أن يتفادى خطر حركة آريوس بأي شكل، وقد حاول بادىء الأمر أن يقنع الأطراف المختلفة بحل قضاياهم وحدهم بسرعة (وبعث بصديقه (هوسيوس) أسقف إسبانيا إلى الإسكندرية ليتصل بحبرها (الكسندروس) الطرف المناوىء

---

(١) السيد المسيح يلوح بالأفق، محمد سعيد الزعبي: ص ١٩٧. الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣م ـ بيروت.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٨٧/١١.

(٣) نفس المرجع: ٣٨٧/١١.

لآريوس ويصلح الحل، وكتب إلى كـل من الكسندروس وآريـوس بوجـوب التآلف ونبذ الخصام)[1].

ولما عجز عن الإقنـاع أقام مجمعـاً مسكونيـاً لبحث هذا الخـلاف سنة ٣٢٥م سمي بمجمـع (نيقيـة) حضـره مـا يقـرب من (٣١٨) أسقفـاً على روايـة المؤرخ (هيلاريوس) ورأس المجمع بنفسه، وألقى كلمة افتتاحية طالب المجتمعين فيهـا أن يوحدوا الصفوف[2].

وبعـد جلسـات طـويلة اشتـد فيهـا الجـدل والخـلاف بين آريـوس وأتبـاعـه المـوحـدين الـذين نـادوا بـأن الابن مخلوق لا يسـاوي الآب في الجـوهـر، وبين الكسنـدروس وأتباعـه المؤلهين الذين قـالوا بمسـاواة الابن للأب في الجـوهر. ولم يخرج المؤتمر بقضية متفق عليها، عندئذ كـان لا بد لـلإمبراطـور الذي يهمـه الأمن بـالـدرجـة الأولى، أن يحسم الخـلاف فيؤيـد رأي المؤلهين لأن آراءهم أقـرب إلى الـوثنية التي نشـأ بها من آراء المـوحدين، (وخـرج المؤتمر بـوثيقة إيمـانية وضعهـا (الكسندروس) بطريرك الإسكندرية وبعض أنصاره من القساوسة وأقرَّها (قسطنطين) وأمر بوجوب تنفيذها ونفى من الأساقفة كل من امتنع عن الموافقـة عليها ونفى الأب (آريوس) أيضاً)[3].

يقـول محمد سعيـد الزعبـي: (وهنـا يتبين لنا حـرج الإمبراطـور، إذ لا يهمـه الدين بقدر ما يهمه عرشه، فـإذا اعترف بعقيـدة (آريوس) وأتبـاعه الشـرقيين فمعنى ذلك انحيازه لهم في نظر شعوب الإمبراطورية في جناحها الغربـي، وبـذلك تكـون الثورة قد بـاتت محققة، فهيَّـأ ذلك المؤتمـر غير متكـافىء العدد حتى أجمعـوا على (آريوس) وأتباعه بالهرطقة، فبـطش بهم من غير أن يـلام من قبل الشـرقيين لأنه في هذه الحالـة ينفذ عمـلاً شرعيـاً أجمعت عليه الكنيسـة، وهذا مـا حدث فعـلاً). . .

---

(١) الروم، أسد رستم: ١/٥٦، ٥٧.

(٢) نفس المرجع: ١/٥٧.

(٣) الروم، أسد رستم: ١/٥٧.

ويقول: «من كل ذلك نخلص إلى نتيجة شبه أكيدة أن انتشار عقيدة التثليث شرقاً وغرباً إنما تمّ بمؤازرة السلطة لها»[1].

وخلاصة القول أن (قسطنطين) بقي وثنياً إلى حين وفاته، وإن ادعى أنه قد تنصَّر، وكما قلنا، إنه لم يتقبل سرّ المعمودية إلاَّ قُبيل وفاته. (ففي سنة ٣٣٧م أصيب بالحمى فذهب إلى مياه معدنية قريبة يستحم بها، ثم انتقل إلى (أنقرة) بالقرب من نيقوميدية، وكان يود أن يعتمد في نهر الأردن كما فعل المسيح نفسه ولكن الموت عاجله، فتقبل سر المعمودية على يد (يوسيبيوس) أسقف نيقوميدية، وخلع الأرجوان وألقاه جانباً وتردى بالبياض، وتوفي يوم العنصرة في الثاني والعشرين من أيار سنة ٣٣٧م. وحنِّط جسمه، ووضع في تابوت من ذهب، ونقل إلى القصر في القسطنطينية.. وعرض جثمانه مكللاً بالتاج ملفوفاً بالأرجوان.. ثم أمر بنقله إلى كنيسة الرسل حيث صلى الإكليروس عليه طوال الليل، ودفن فيها في ناموس من الرخام وألَّه الشيوخ (قسطنطين) حسب العادة الرومانية وعظمه الشعب الوثني، وعبده أمام تمثاله الذي نصب فوق عمود من الرخام)[2].

ويظهر من مراسيم دفنه أنه قد أقيمت عليه طقوس مسيحية، وطقوس وثنية مما يدل على أن كلا الطرفين كان يعتبره منهم، فالنصارى صلّوا عليه باعتباره مسيحياً ودفنوه في الكنيسة، والوثنيون اعتبروه وثنياً فألهوه وعبدوا تمثاله وأقاموا عليه طقوسهم.

آثار التحول على عقيدة النصارى:

والحقيقة التي لا يستطيع أحد إنكارها أن الدولة الرومانية عندما رفعت شعار الصليب فإنها أعلنت أن الديانة الرسمية لها هي المسيحية، سواء أكان اعتناق الإمبراطور للمسيحية سياسياً أم اعتقادياً.

والسؤال الذي يبرز الآن هو: هل رضيت الوثنية الرومانية ذات الحضارة العريقة أن تتنازل عن معبوداتها، وتعلن استسلامها وإذعانها للعقيدة النصرانية؟

---

(١) السيد المسيح يلوح بالأفق، محمد سعيد الزعبي: ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) الروم، أسد رستم: ١/٧٢ ــ ٧٣.

الروايات التاريخية تؤكد لنا أن ما حصل هو العكس تماماً، فالذي حدث هو أن النصرانية كانت من قبل موحدة تؤمن بالله الواحد، وما لبثت بعد هذا الامتزاج أن نشأت فيها أفكار فلسفية غريبة، نادت بالتثليث والأقانيم والتجسد وغير ذلك من هذه الأفكار التي بدأت تنتشر، مستمدة قوتها من وثنية الرومان، وسلطان دولتهم التي باتت ترفع شعار الصليب. يقول الأستاذ (سيد قطب) رحمه الله: (لقد عبرت النصرانية إلى الدولة الرومانية في أشد عصور الوثنية والانحلال في هذه الدولة... ومن ثم تدخلت الإمبراطورية الرومانية في النصرانية لا لتخضع لها، ولكن لتخضع النصرانية لوثنيتها العريقة)[1].

إن المسيحية التي أراد الله لها أن تكون دعوة مخصوصة لبني إسرائيل لم تستطع مواجهة الوثنية الرومانية الحافلة بشتى الفلسفات والأفكار، فما لبثت أن تسربت تلك الأفكار إلى أصولها، وعندها بدأ الخلاف يدب بين رجال الدين من النصارى أنفسهم، فمنهم من تأثر بالفلسفات الوثنية المنتشرة، فراح يطبق تلك التفسيرات الفلسفية على مفهوم الألوهية وعلى بعض الاصطلاحات الدينية، فظهرت فكرة التثليث وألوهية عيسى عليه السلام، وبقي آخرون منهم محافظين على تعاليم الرسل الأصيلة، وتصدوا للأفكار الواردة، وكان لا بد للدولة أن تتدخل بحجة استتباب الأمن، لأن هذا الاختلاف يعكر صفو الأمن، في أرجاء تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف، واختارت أن تقف مع الأفكار المؤلهة، كما يقول الأستاذ (أنور الجندي): (كان للفكر الغربي بوثنياته وفلسفاته اليونانية والبابلية والهندية أكبر الأثر في تحريف المسيحية عن أصلها)[2].

إن النصرانية لم تنتصر في المعركة التي دارت بينها وبين الوثنية، وإن كان النصارى يعتبرون اعتناق الدولة الرومانية للنصرانية انتصاراً باهراً، بل إنهم كما قال الأستاذ (جيني بير): (دفعوا ثمن الانتصار غالياً، بحيث تستطيع القول في شيء من

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب: ص ٤٦. طباعة دار القرآن الكريم ـ بيروت ـ دمشق، نشر الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ـ الكويت ١٣٩٨هـ.

(٢) الإسلام والفلسفات القديمة، أنور الجندي: ص ١٨٨، دار الاعتصام ـ القاهرة.

الجزم بأن مؤمني عصر الحواريين لم يكونوا لينظروا إلى هذا الانتصار لو قدّر لهم ذلك إلَّا على أنه نكبة كبرى)[1].

ويؤكد الأستاذ (جيني بير) أن هذا الانتصار لم يكن إلَّا ظاهرياً، حيث إن الدين الجديد لم يطوع العالم اليوناني الروماني لعقيدته وروحه بل على العكس ترى هذا العالم قد تشربه وطوّعه لتطلعاته الأصيلة.. والكنيسة هي المسؤولة عن تلك النتيجة لأنها هي التي كانت القوة المتحكمة في أمور المسيحية، وهي التي وافقت على الحلول الوسط على ألوان مختلفة من التنازلات، وأصبحت الكنيسة جانباً من جوانب الدولة الرومانية)[2].

لقد كان للوثنية الرومانية وفلسفتها اليونانية الأثر البارز على انحراف النصرانية عن عقيدتها التوحيدية من أول الطريق، فما كان للمسيحية أن تتحول من دعوة خاصة لبني إسرائيل إلى ديانة عالمية إلَّا بتأثير الأفكار اليونانية والفلسفة الإغريقية.

وذكر الدكتور (السقا): (أن الرومان في فلسطين ألّه بعضهم المسيح في حياة المسيح نفسه من قبل وجود بولس، ذلك أن الرومان كانوا يحتلون بلاد اليهودية من سنة ٦٣ ق.م وفي عهدهم ظهر المسيح، وكان الرومان الذين هم الورثة الشرعيون لفلسفات اليونان يقولون بتجسد الآلهة، وقد انتهز (بولس) هذه الفرصة السانحة، ونادى بألوهية المسيح جهراً وبدون خوف، اعتماداً على أن الرومان يألفون هذه العقيدة، واستعان بالفلسفة الشائعة في العالم عن التثليث لتثبيت أركان هذه العقيدة)[3].

وقد استدل (السقا) على ذلك بما ورد في إنجيل برنابا ما نصه: (وحدث في هذا الزمن اضطراب عظيم في اليهودية كلها لأجل يسوع، لأن الجنود الرومانية أثارت (بعمل الشيطان) العبرانيين قائلين: إن يسوع هو الله قد جاء لينقذهم فحدثت

---

(١) المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٨٢.

(٢) نفس المرجع: ص ١٩٢.

(٣) أقانيم النصارى، د. أحمد حجازي السقا: ص ٩٠. الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ، مطبعة المجد، نشر: دار الأنصار بالقاهرة.

بذلك فتنة كبرى حتى إن اليهودية كلها تدججت بالسلاح مدة الأربعين يوماً لأن فريقاً قال: إن يسوع هو الله قد جاء للعالم. وقال فريق آخر: كلا بل هو ابن الله. وقال آخرون: كلا لأنه ليس لله شبه بشري، لذلك لا يلد بل إن يسوع الناصري نبي الله)[1].

ووقف عيسى خطيباً ليخمد هذه الفتنة فقال: (أشهد أمام السماء وأشهد كل شيء على الأرض أني بريء من كل ما قد قلتم لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية وعُرْضة لحكم الله)[2].

ففكرة التعدد والتجسد وحلول الإله وتجسده بالناسوت يعرفها الفكر الوثني منذ غابر العصور، وكل هذه الأفكار دخلت إلى النصرانية بعد انخراطها في ذلك المجتمع الوثني، مع أن رجال الدين النصارى كما قلنا، لم يرضوا جميعاً بذلك الانحراف بل رضي به المنافقون الذين يسعون إلى مناصب في الدولة.

يقول (درابر DRABER) الأمريكي في كتابه (الصراع بين الدين والعلم): (دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة، ومناصب عالية في الدولة الرومانية بتظاهرهم بالنصرانية، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ولم يخلصوا له في يوم من الأيام)[3].

(إن الجماعة النصرانية لم تستطع أن تقطع دابر الوثنية، وتقتلع جرثومتها، فاختلطت مبادئها، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء. هناك يختلف الإسلام عن النصرانية إذ قضى الإسلام على منافسه (الوثنية) قضاء باتاً، ونشر عقائده من غير غش)[4].

---

(١) برنابا: ٩١/١ ـ ٦.
(٢) برنابا: ٩٣/٩ ـ ١٠.
(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي: ص ٢٣٧، طباعة دار القرآن ـ بيروت ـ دمشق، نشر الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ـ الكويت ١٣٩٨هـ.
(٤) نفس المرجع: ص ٢٣٧.

ورغم أن معظم المسيحيين في الشرق رفضوا هذا الانحراف عن العقيدة الأصلية (عقيدة التوحيد) فإن هذا الانحراف وجد من قوة الدولة وسلطانها ما مكن له على معارضيه (لقد امتد الصراع بين بولس وأتباعه من جهة، وبين المسيحيين الحقيقيين من جهة أخرى، وامتد قروناً بعد وفاة بولس، ولما انتصرت فكرة الرومان المعددة على فكرة المسيحيين الموحدين، قضي على كل كتابات الموحدين، وقبرت وأعدمت نهائياً، ثم أصبح لهؤلاء الطابع الرسمي المقرر بينما قضوا على كل ما عداها بالفناء مما يعارض رأيهم، وفي مقدمته (إنجيل برنابا) الذي كتب إنجيله للرد على ما أسماه (ضلالات بولس)، وكان ذلك مقدمة لسيطرة الكنيسة على أوروبا بعد سقوط الرومان سنة ٤٧٦م)[1].

ونختم هذا الموضوع بكلمة نعرب فيها عن أسفنا لما آلت إليه النصرانية من الذوبان في الفلسفات الوثنية، وعدم استطاعتها الوقوف أمامها.

إننا لا نقول بأن الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام قد انهزم، لأن الدين الإلّهي لا يُهزم، والنصرانية التي جاء بها المسيح عليه السلام من عند ربه ما أعدت للدخول في هذه المعركة وإنما جاءت مكملة لشريعة التوراة مخصوصة لشعب بني إسرائيل.

لقد انهزمت نصرانية (بولس) ونصرانية رجال الدين الذين كان همهم الأول الحفاظ على مناصبهم في الدولة، ولو كان ذلك على حساب انحراف دينهم.

والذي يزيد في الأسف أن النصرانية قد تبوأت مقعداً يعتبر مركز الصدارة في الدولة الرومانية، لكنها لم تتبوأه إلاّ بعد انحرافها، والمهم أنها لم تحسن استغلال هذا المنزل. (لقد استطاعت البابوية أن تنتصر على الإمبراطور حتى أن (هنري الرابع) ممثل الإمبراطوريّة اضطر سنة ١٠٧٧م أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوي في قلعة (كانوسا)، ولم يسمح له البابا بالدخول إلاّ بعد أن شفع له الرجال فسمح له بالمثول بين يديه، فدخل الإمبراطور صاغراً حافياً لابساً الصوف، وتاب

---

(١) الإسلام والفلسفات القديمة، أنور الجندي: ص ١٩٢.

على يديه فغفر له البابا زلته)[١].

لقد كان بإمكان رجال الدين النصارى لو كانوا نصارى حقاً أن يستغلوا سلطانهم هذا، ويصححوا ما علق في أذهان الناس من خرافات وثنية، بدل أن يجعلوا من الوثنية ديناً لهم، ويرتكبوا الجريمة الكبرى، جريمة تحريف كلام المسيح عليه السلام وما جاء به من عند ربه، ونسخه بأساطير وثنية، ومسخ العقيدة التي جاءت بالتوحيد إلى عقيدة وثنية مشركة تنادي بعبادة إله مثلث الأقانيم كما هي عبادة الوثنيين في الهند ومصر وفارس وبابل وغيرها، وكما هي تصورات الفلاسفة وأوهامهم الذين كانوا يشكلون أساس البيئة الثقافية في الدولة الرومانية.

(ولكن رجال الدين من سوء حظ النصرانية ومن سوء حظ الأمم التي دانت بها أساءوا استعمال هذا السلطان الهائل فاستغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم)[٢].



(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي: ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧.

(٢)) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي: ص ٢٤٧.



المبحث الثاني

أثر اليهود في الانحراف

لقد كان لليهود أثر بارز في انحراف النصرانية عن التوحيد، ووصولها إلى ما آلت إليه من انحراف في عقيدتها. . . ومما لا شك فيه أن اليهود وهم الشعب الذي تتجلى فيه الأنانية دائماً يكرهون كل من سواهم، وموقفهم مع أنبيائهم ذكره القرآن الكريم في أكثر من موضع ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون﴾[1].

فلا غرابة إذن أن نجد اليهود يقفون في وجه المسيح عليه السلام يعلنون له العداء، وهو نبي من أنبيائهم، لأنهم قد اعتادوا من قبل على مثل هذا الموقف، وبقي اليهود يناهضون دعوة المسيح عليه السلام، تلك الدعوة التي جاءت إليهم تردهم عن ضلالاتهم ومجاوزتهم الحد وتعود بهم إلى شريعة التوراة ورسالة موسى عليه السلام، وتحذرهم من الانهماك في الدنيا، وتذكرهم باليوم الآخر بذلك الأسلوب الروحي الرائع، وهي مع ذلك كله جاءت لتخفف عنهم بعض أحكام التوراة، ومع ذلك فقد رفض اليهود هذه الدعوة، وما آمن معه منهم إلَّا قليل، وأغروا به الحاكم الروماني ليقتله بعد أن حكم مجلسهم عليه بالقتل، إلَّا أن الله تعالى أنجاه منهم.

وحاول اليهود من البداية اجتثاث الدعوة من جذورها إلَّا أنهم لم يستطيعوا ذلك، فلجأوا إلى أسلوب الدس والتحريف ليصرفوا رسالة المسيح عليه السلام عن القصد الأساسي الذي جاءت به، ويجعلوا المسيحية دعوة عالمية، وكأن الأمر لا يخصّهم حتى يبقوا الشعب المتميز المختار.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٢.

القديس بولس وأثره على المسيحية:

من خلال حديثنا عن أثر اليهود في انحراف النصرانية تبرز لنا شخصية لعبت دوراً بارزاً في تاريخ هذا الانحراف، وأحدثت بلا شك انقلاباً شاملاً في المسيحية واستطاعت أن تؤسس ديانة تختلف تماماً عن المسيحية التي جاء بها المسيح عليه السلام.

تلك هي شخصية القديس (بولس)[١] ونظراً لأهمية هذه الشخصية وخطورتها في هذا الموضع لا بد لنا أن نتعرف على البيئة التي عاش فيها، ومدى تأثير تلك البيئة على الأفكار التي جاء بها، ثم نتعرف على نشأته، وثقافته، وقصة تحوله من اليهودية إلى النصرانية، وأخيراً لا بد لنا أن نعرف عقيدته وأفكاره ودوره في تطوير المسيحية، والحقيقة أننا ونحن نتحدث عن شخصية (بولس) إنما نتحدث عن المؤسس الحقيقي للمسيحية المعاصرة.

حياته:

وسفر أعمال الرسل يفصِّل لنا حياته، بل إن أعماله أخذت الجزء الأكبر من هذا السفر، فهو يتحدث فيه عن نفسه ويقول: (أنا رجل يهودي، ولدت في طرسوس كيليكية، ولكن ربيت في هذه المدينة مؤدباً عند رجلي (غمالائيل)[٢].

و (غمالائيل) من أحبار اليهود، عرفت مدرسته في القرن الأول الميلادي في القدس.

ويصرِّح بولس بيهوديته أمام المجمع فيقول: (أنا فريسي ابن فريسي على رجاء قيامة الأموات أنا أحاكم).

---

(١) ولد (بولس) في (طوروس) من أعمال كيليكية حوالي السنة العاشرة الميلادية وكان أبوه من الفريسيين (إحدى الفرق اليهودية الشهيرة) ونشأ ابنه على مبادىء هذه الشيعة الدينية المتحمسة، وكان والده مواطناً رومانياً، وأكبر الظن أن اسم بولس كان هو اللفظ اليوناني المرادف لاسمه العبري (شاول).
انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٢٤٩.

(٢) الأعمال: ٢٣/٢.

ومن المدينة التي عاش فيها (بولس) تلقى ثقافته، ويحدثنا الأستاذ (شارل جيني بير) عن بيئة تلك المدينة وثقافتها فيقول: (كانت (طرسوس) مدينة نشطة، حلقة الاتصال بين هضبة آسيا الصغرى وبين الشام، ومفرق الطرق التجارية الهامة التي تجلب إليها سيلاً لا ينقطع من الأفكار والعقائد والتأثيرات المختلفة. وحاول ملوك الشام أن يصبغوها بالصبغة الإغريقية غير أنها بقيت أساساً مدينة شرقية، وذلك على الأقل في مجال المعتقدات السائدة، وإن انتشرت فيها وازدهرت المدارس اليونانية، وقام بين رحابها ما يمكن أن نسميه اليوم بالجامعة، التي كانت سبباً لشهرة المدينة، وعلى الأخص فيما يتعلق بالدراسات الفلسفية)[١].

وفي هذا الوسط قضى بولس سنيّ شبابه، حيث تشبع بشتى الفلسفات المنتشرة هناك.

(والبيئة الثانية التي عاش بولس بها هي بيئة القدس بجوار (غمالائيل) أي بمدرسة من ألمع المدارس اليهودية في ذلك العصر)[٢].

قصة تحوُّله إلى المسيحية:

يذكر الإصحاح التاسع من سفر الأعمال قصة التحول المفاجىء لبولس من اليهودية إلى النصرانية، فيقول: (أما (شاول) فكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلاً على تلاميذ الرب، فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم، وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغتة أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاول!! لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي أنت تضطهده، فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له الرب: قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل)[٣].

---

(١) المسيحية، شارل جيني بير: ص ٦٨.

(٢) نفس المرجع: ص ٦٩.

(٣) الأعمال: ٩/١ ــ ٧.

ثم يذكر الإصحاح أنه نهض عن الأرض وهو مفتوح العينين لا يبصر ومكث كذلك ثلاثة أيام فلم يأكل ولم يشرب، وكان في دمشق تلميذ اسمه (حنانيا) فأوحى إليه الرب أن يلتقي مع (شاول)، فوضع يديه عليه فأبصر، ووقع من عينيه شيء كأنه قشور فأبصر في الحال، وقام واعتمد، وتناول طعاماً فتقوى، وكان شاول مع التلاميذ في دمشق أياماً، وللوقت جعل يكرر في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله، فبهت جميع الذين كانوا يسمعون)[1].

فالقصة تذكر صراحة أن (بولس) كان يهودياً يعلن عداءه على المسيحية الناشئة ويضطهد أتباعها، وفجأة يتحول هذا العدو اللدود للمسيحية إلى مسيحي، بل واضع للاهوت المسيحية، وللمرء أن يتساءل عن سر هذا التحول العجيب المفاجىء، ويبدو أن (بولس) وقد عجز عن محاربة المسيحية بالعنف والاضطهاد قرر أن يلجأ إلى سلاح الدس والتدمير الداخلي، فافتعل تلك القصة الخرافية الخارقة ليجعل منها وسيلة مناسبة لتبوئها مقصداً مناسباً له عند المسيحيين، ويظهر من خلال القصة كذلك كيف استغرب السامعون لبولس رأيه الجديد في المسيح، ووصفه له بأنه ابن الله، لأنهم سمعوا شيئاً لم يكن معروفاً عند المسيحيين، ولم يسمعوه من تلامذة المسيح عليه السلام، ومع ذلك فقد استطاع (بولس) أن ينفذ إلى أوساط الشعب في القدس، ويعمم أفكاره اللاهوتية الجديدة.

ولا شك أن هناك أوصافاً ومميزات لبولس ساعدته على تعميم فكرته وإقناع الجماهير بهذا الرأي الجديد، ومن أبرز ما تميز به:

١ ــ **الروح اليونانية**: فهو قد عاش في بيئة طرسوس فأشرب فيها من الروح الإغريقية، وكان لذلك أثر كبير على أفكاره. يقول الأستاذ (جيني بير): (عاش بولس في وسط يتحدث باليونانية ويستخدم كلمات مثل: الله، عقل، منقذ، منطق، روح، ضمير. فلم تكن هذه الكلمات غريبة عنه، وكان هذا الوسط يهتم بفلسفة معينة بقيت بعض أحكامها، والكثير من مصطلحاتها في ذهن داعية المسيحية)[2].

---

(١) الأعمال: ٩/١٠ ــ ٢٢.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٢٦٢.

٢ ـ **الديانة اليهودية**: فلقد تدرج بالثقافة اليهودية حتى منتهاها، وقد سبق أن ذكرنا أنه تربى على أعتاب الفيلسوف اليهودي (غمالائيل) في القدس، كما تشرب من اليهودية أسلوب الكيد والعمل في الخفاء.

٣ ـ **الجنسية الرومانية**: وهذه أعطته الجرأة، فبينما كان غيره يسجن ويضطهد، كانت هذه الجنسية ترفع عنه مثل هذا النوع من الاضطهاد.

اللاهوت المسيحي عند بولس:

بعد دخول بولس في المسيحية بدأ يبعث برسائله إلى بلدان كثيرة، فكتب أربع عشرة رسالة، ومن خلال هذه الرسائل التي نسبت إليه نستطيع التعرف على عقيدته اللاهوتية.

ومن الواضح أن هذه العقيدة تختلف تماماً عن عقيدة النصارى التي جاء بها المسيح عليه السلام، يقول المؤرخ (ول ديورانت): (ولقد أنشأ (بولس) لاهوتاً لا نجد له إلَّا أسانيد غامضة أشد الغموض في أقوال المسيح، أما أسس هذا اللاهوت فأهمها أن كل ابن أنثى يرث خطيئة آدم، ولا شيء ينجيه من العذاب الأبدي إلَّا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته)[١].

وهذه هي فكرة الخطيئة الموروثة التي تعتبر إحدى عناصر العقيدة المسيحية الحاضرة. وهي فكرة جاء بها بولس من البيئة الفلسفية التي عاشها. (والدراسة المفصلة لرسائل بولس الكبرى تكشف لنا النقاب عن مزيج من الأفكار يبدو لأول وهلة غريباً جداً، مزيج من الأفكار اليهودية، ثم من المفاهيم المنتشرة في الأوساط الوثنية اليونانية)[٢].

فكانت آراؤه مخالفة لما عرفه الناس عن المسيح وحوارييه يقول الأستاذ (جيني بير): (مع أن الحواريين الإثني عشر كانوا قد تملكتهم الحيرة في بدء دعوتهم عندما نظروا في النصوص المقدسة وكتب الأحبار فلم يجدوا كلمة واحدة

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٢٦٤.

(٢) المسيحية، جيني بير: ص ٧٠.

تشير إلى إمكان قيام مسيح يعذّب تعذيباً شائناً. . كذلك أن موت عيسى في نظرهم ليس بالتضحية التكفيرية، بينما في عقيدة بولس أن المسيح مات من أجل خطايا البشر)[1].

وأدخل بولس إلى المسيحية طقوساً كثيرة، وذلك تلاؤماً مع تلك البيئة التي لا تتصوَّر ديناً بدون طقوس.

ومن هذه الطقوس التي أضافها بولس للمسيحية: فكرة التطهر، ومفهوم التضحية فقد أصبحت فكرة التطهر بالتعميد علامة الدخول بالمسيحية، وتضحية الرب بنفسه لأجل خطايا البشر توجد بين الأتباع وبين إلّههم في نظرهم، وتبيِّن أنهم جسم واحد أمامه، ومن هذه الطقوس أكل الخبز جماعة والشرب جماعة. يقول بولس في إحدى رسائله: (كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح، الخبز الذي نكسره فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد)[2].

وفكرة الخطيئة الموروثة لم يكن اليهود يعرفونها، وجاء بها بولس من الفلسفات الوثنية، يقول الأستاذ (جيني بير): (كانت ألقاب مثل سوتر (المنقذ) واليوثريوس (المنجي) تطلق على آلهة الوثنيين، وكان لفظ كريوس (الرب) الذي سمي به بولس المسيح، تطلقه الطقوس اليونانية السورية على (الميت المفدى)، ولم يكن في وسع غير اليهود من أهل أنطاكية وسواها من المدن اليونانية الذين لم يعرفوا المسيح بجسمه أن يؤمنوا إلاَّ كما آمنوا بآلهتهم المنقذين)[3].

ونستطيع أن نجمل إضافات بولس إلى المسيحية بنقاط هي:

١ ــ جعلها دعوة مفتوحة لجميع الأمم، ولو أدى ذلك إلى تساهله في بعض التشريعات التي كانت تضايق الوثنيين كالختان والسبت وتحريم الخنزير، فأبطل

---

(١) المسيحية، جيني بير: ص ٩١.

(٢) كورنثوس الأولى: ١٠/١٦ ــ ١٧.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٢٦٤ ــ ٢٦٥.

الختان ونقل العيد الأسبوعي ليوم الأحد (Sunday) ليوافق يوم الشمس عند الوثنيين، وأباح أكل لحم الخنزير.

٢ ـ إخراج المسيحية من البساطة اليهودية إلى تعقيدات الفكر اليوناني.

٣ ـ فكرة الخطيئة الموروثة (وهي أن كل إنسان مذنب منذ ولادته لأنه يعتبر وارثاً لخطيئة آدم، وقد أرسل الله ابنه الوحيد إلى العالم ليكفر عن خطيئة الناس بموته على الصليب فداء لهم).

٤ ـ (أدخل بولس عقيدة الكلمة (اللوجوس) التي كان يقول بها (فيلون) اليهودي في الإسكندرية كما أدخل عقيدة التجسيد، وعقيدة الخلق بالكلمة من أقدم العقائد ويمكن الرجوع بها إلى كهنة ممفيس)[1].

إلى غير ذلك من اصطلاحات وطقوس أدخلها (بولس) للمسيحية ويتضح تاريخها الوثني، وممارسة الوثنيين لما يماثلها من قبل. يقول صاحب قصة الحضارة: (إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها، ذلك أن العقل اليوناني المحتضر عاد إلى الحياة في صورة جديدة في لاهوت الكنيسة وطقوسها)[2].

لقد استطاع بولس صاحب الدراية في السياسة والابتكار، تلك الصفة التي اكتسبها من يهوديته، استطاع أن يكون مسيحية جديدة على حساب عيسى عليه السلام، وينشىء لها عقيدة لا تمت لعقيدة المسيح عليه السلام بصلة، واستطاع أن يقنع الناس أن عيسى ابنُ الله. يقول (بيري BERRY) في كتابه (الأديان العالمية): (لقد كوَّن شاول المسيحية على حساب عيسى، فهو في الحقيقة مؤسس المسيحية... وقد أدخل على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب إليه العامة منهم، وأدخل صوراً من فلسفة الإغريق ليجذب إليه أتباعاً من اليونان، وعيسى أصبح ابن الله، حملت به أمه العذراء حملاً غير طبيعي، واحتلت صورة العذراء والمسيح

(١) النصرانية والإسلام، المستشار محمد عزت طهطاوي.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٢٧٥.

مكاناً مقدساً احتلته قديماً صورتا (حورس) و (أوزيريس)، ووضعتا في كل الكنائس)[1].

وإن مما يبعث على الدهشة والاستغراب أن (بولس) استطاع أن يحتل هذه المكانة في المسيحية ويصبح قديساً يغيِّر ويبدل كيفما شاء، رغم أنه ليس من تلاميذ المسيح ولا من حوارييه، بل إن المسيح قد رفع من الأرض وبولس لا زال عدواً للمسيحيين، وقد ورد في سفر الأعمال قصة قتل اليهود أحد أتباع المسيح، وقد حضرها (بولس).

(وكان شاول راضياً بقتله، وحدث في ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم. فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل، وأما (شاول) فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالها ونساءها، ويسلمهم إلى السجن)[2].

فهو لم يكن من الرسل إطلاقاً، ولا سمع المسيح يبشر بدعوته؛ يقول: (ولز WELIS) في كتابه (مختصر تاريخ العالم): (كان القديس بولس من أعظم من أنشأوا المسيحية الحديثة، وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس، أوتي عقلية عظيمة، وكان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية، فنقل إلى المسيحية كثيراً من الأفكار)[3].

وبعد هذا العرض السريع لحياة بولس وبيئته وثقافته وإضافاته للمسيحية وأسلوبه في التزوير والتبديل يتضح لنا أن اليهود هم الذين دفعوه ليغيِّر معالم المسيحية، ويجعلها ديانة جديدة منفصلة عن اليهودية مليئة بالأفكار الوثنية.

وإن المتمعن في قصة تحول بولس إلى المسيحية التي رواها سفر الأعمال ليحس بهذه الحقيقة، فأسلوب الخداع الذي سلكه أسلوب عرف به اليهود في كل

---

(١) انظر: الإسلام والفلسفات القديمة، أنور الجندي: ص ١٨١.
(٢) الأعمال: ٨/١، ٣.
(٣) الإسلام والفلسفات القديمة، أنور الجندي: ص ١٨٢.

عصورهم، أسلوب النفاق والتكتم وعدم إطلاع غيرهم على حقائق الأمور، كما يصفهم الله تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلاَّ لمن تبع دينكم﴾[1].

ولقد قارن الأستاذ (أحمد شلبي) بين موقف (بولس) هذا، وموقف عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام وأشعل الثورات، ونشر من المبادىء الفاسدة ما كان يعجز عن عمل جزء قليل منه لو ظل على يهوديته، ولكن الفرق بينهما أن أفكار عبد الله بن سبأ لم تستطع أن تعيش وتنمو كما نمت أفكار بولس، ذلك لأن القرآن كان محفوظاً ومكتوباً وهو خير حارس للإسلام. أما إنجيل عيسى فضاع بين طيَّات الأحداث فلم يكن للمسيحية عماد يحميها من هذه الصدمات العنيفة التي أنزلها بها أعداء من الداخل، وأعداء من الخارج فخرَّت مسيحية عيسى، وقامت على أنقاضها مسيحية بولس)[2].

وفي ذلك أيضاً يقول الدكتور (السقا): (وبعد رفع عيسى إلى السماء اجتهد اليهود في ضياع دعوته ما وسعتهم قوتهم، إما بالسلاح وإما بالفكر، ولما كانوا عاجزين عن ضياع الدعوة بالسلاح ضياعاً كلياً لوقوعه تحت سيطرة الرومان، لجأوا إلى سلاح الفكر يلبسون به الحق بالباطل، ويحرِّفون به الكلم عن مواضعه، تظاهروا بالنصرانية وبدأوا يفكرون فظهر منهم بولس وهو يهودي صميم)[3].

ومن أبرز الأدلة على أن (بولس) بتحريفاته للمسيحية إنما انطلق من يهوديته: أن أول ما حرَّفه من الإنجيل قضيَّة تهم اليهود الذين يريدون للنبوَّة أن تقتصر على بني إسحاق، وهم يجدون في توراتهم البشارة بنبوَّة محمد ﷺ، ومنها: ما ورد في الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنية: (يقيم لك الرب إلّهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون)[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٧٢، ٧٣.

(٢) المسيحية، أحمد شلبي: ص ١٢٤.

(٣) أقانيم النصارى: السقا: ص ٨٥.

(٤) التثنية: ١٨/١٥.

ومنها أيضاً: (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران)[1].

(وسيناء إشارة إلى رسالة موسى حيث كلَّمه الله، وساعير إشارة إلى فلسطين حيث بعث الله عيسى عليه السلام، وفاران جبل بمكة إشارة إلى محمد ﷺ الخاتمة. . . وهذه البشارة يؤكدها القرآن الكريم بقوله: ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾)[2].

حيث يقسم الله تعالى بمواطن الرسالات الثلاث، بالتين والزيتون إشارة إلى أرض فلسطين الشهيرة بهاتين الشجرتين مشيراً بذلك إلى رسالة عيسى عليه السلام، وبطور سينين حيث كلَّم الله موسى عليه السلام، وبمكة البلد الأمين التي ابتدأ فيها الوحي يتنزل على نبينا محمد ﷺ.

فماذا كان عمل اليهود إذن حول هذه القضية؟ وكيف يمكنهم صرف النظر عن رسالة محمد ﷺ عند مجيئها وهم يعلمون أنه ليس منهم بل من أبناء إسماعيل؟ وإجابة لسؤالنا هذا يقول الدكتور (السقا): (وبعد نهاية عيسى عليه السلام، وقد تأكد اليهود العبرانيون أن الابن الذي أشارت إليه التوراة، وبشَّر به موسى بلفظ (المسيا) أو الابن، آت من بعده ولن يكون البتَّة من آل داود، ادعوا أن الابن هو عيسى، وما كانوا له بعارفين، وغيَّروا نسب عيسى عليه السلام من هارون من جهة الأم إلى داود من جهة يوسف النجار خطيب أمه مريم، وذلك لقصر النبوَّة على بني إسحاق إلى الأبد، وتشكيك الناس في النبي الآتي من ولد إسماعيل)[3].

ويظهر هذا في الإصحاح الأول من رسالة بولس إلى العبرانيين حيث ادعى بولس فيها أن نبوءة الابن خاصة بالمسيح عليه السلام حيث يقول فيها ما نصه: (الله

(١) التثنية: ٣/٢٣.

(٢) سورة التين: الآيات ١ ـ ٣.

(٣) انظر: الإسلام أمام افتراءات المفترين توفيق علي وهبة: ص ٣٠، من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ١٣٩٨هـ.

بعدما كلَّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عمل العالمين.. صائراً أعظم من الملائكة... لأنه لمن من الملائكة قال قط، أنت ابني وأنا اليوم ولدتك؟ وأيضاً أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً)(١).

وينقل لنا الأستاذ (السقا) عن العلامة (جردنر) وآخرين تفسيرهم لهذه العبارات فيقول: (وقوله (اليوم) يدل على أن الزمان كان في عين الله كطرفة عين، وأنه ينظر إلى الأزل كأنه ابتدأ اليوم.. وقد شبهت الولادة في الآية بولادة روحية أزلية لا تزال مستمرة حتى اليوم ولا يخفى أن موضوع الكلام هنا حقائق روحية، ولما كانت علاقة المحبَّة بين أقنومي الله والكلمة أشبه بالعلاقة بين الأب والابن أمكن التعبير عنهما بلفظ الولادة، بشرط أن نتذكر أن هذا التعبير مجاز)(٢).

وبناء على ذلك فإن اليهود قد عمدوا إلى تحريف الأناجيل وإدخال مفهوم النبوَّة هذا، مع مخالفته لما كان معروفاً عندهم في تفسير النبوَّة التي وردت في التوراة، وهو التفسير المجازي، عمد اليهود إلى كل هذا، لهوىً في أنفسهم يعلمون بطلانه، هو إنكارهم المسبق لرسالة خاتم النبيين محمد ﷺ، ولصرف الأنظار عنها، ذلك لأن اليهود كانوا ينتظرون هذا المنتظر الذي بشرت به التوراة، ويسمونه (مسيا) فخافوا على اليهود إذا بقوا في هذا الانتظار، أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وبذلك لا تبقى لهم رياسة ولا سيادة، فما كان ذلك منهم إلَّا حسداً من عند أنفسهم.

ولقد كان بولس أول المجندين لهذه المهمة، مهمة مسخ النصرانية وتحريفها عن أصولها، حتى تعود ديانة لا تتفق مع العقل ولا مع الوحي، فأبدل توحيدها تثليثاً وصفاء عقيدتها فلسفة وثنية.

---

(١) العبرانيين: ١/١ ـ ٦.

(٢) أقانيم النصارى، السقا: ص ٣٧ ـ ٣٨.

اليهـود والتثـليث:

وقد يسأل سائل.. من أين جاء اليهود بعقيدة التثليث؟ مع أن تـوراتهم وحتى المحرفة في أيامنا هذه، لا تعرف التثليث، وإنما نادت بتوحيد الله تعالى.

عن هـذا التساؤل يجيبنـا الأستاذ (السقـا) فيقول: (واليهـود زمن وجودهم في بابل من سنة ٥٨٦ ق.م كانـوا قد اطلعـوا على عادات أهـل بابـل وتقاليـدهم وعلى أديانهم ومعتقداتهم، ولما رجعوا إلى بلادهم، نقلوا معهم أفكاراً كثيرة اقتبسوهـا من بلاد بابل ومن بلاد فارس، ومن هذه الأفكـار عقيدة التثليث، هـذه العقيدة هي التي ذكرتهم أن يجعلوا المسيح هو الآب والابن والروح القـدس كذبـاً.. والسبب الذي جعل اليهود يفكرون في تأليه الآب والابن والروح القدس، هو أن الله عـز وجل قـد أعـطاهم النبوَّة والكتـاب، وأرشدهم أن نبيـاً سوف يـأتيهم من ذرية إسمـاعيل، وإذا جاء يؤمنون به وينصرونه، ولما علمـوا أن زمنه قـد اقترب، وأنـه إذا جاء سيكـون به النفوذ عليهم، حاولوا تشكيك الناس في اسمه وبلده ونسبـه وأوصافـه وزمن مجيئه، وفكروا بطريقة تشوش هذه الفكرة، لقد علموا أن الله واحد لا شريك له، وعلموا أن داود عليه السلام عبَّر عن النبـي المنتظر بقـوله (أنت ابني)، وعلمـوا أن عيسى عليه السلام عبَّر عنه بأنـه (بيركليت)[1]. روح الحق أو روح القـدس فماذا يفعلون؟ لقـد جعلوا تعبير الابن تعبيراً حقيقيـاً. وجعلوا كلمة المعـزي بدل (بيـركليت) وقالـوا إنه روح الله حقيقــة وصـاغــوا الثـلاثــة في قـالب واحــد هـو (الآب والابن والــروح القدس)[2].

وهكـذا وضع اليهـود أسـاس هـذه العقيـدة المنحـرفـة (التثليث)، مستمـدين أفكارها من الوثنية في بابل وفارس، ومتأثرين بما ينتشر حولهم من فلسفـات يونـانية رومانية، ووجدت دعوتهم هذه آذاناً صـاغية من الـوثنيين الذين يعيشـون في الدولـة الـرومانيـة، لأن هذه الأفكـار ليست بعيـدة عن أذهـانهم، فهم يعـايشـون الـوثنيـة،

---

(١) بيركليت: كلمة يونانية بمعنى الذي يحمد كثيراً، وتنطبق على اسم الرسول ﷺ (أحمد).
(٢) أقانيم النصارى، السقا: ص ٨٧.

ويعرفون تصوُّراتها وما هذه العقيدة ببعيدة عنها (علماً بأن مختلف آراء بولس هي آراء الفكر الوثني اليوناني الذي تطوّر على أيدي (أفلوطين) ثم (فيلون اليهودي)[1].

هذا ما فعله اليهود في نهاية القرن الأول لميلاد النصرانية، ونجح اليهود في مخططهم، ونمت بذرة الانحراف الشريرة التي بذرها (بولس) ووجدت لها تربة خصبة في الأرض الوثنية الرومانية، وظلت اليهودية ترقب من بعيد المآسي التي خلفتها تلك البذرة على المسيحية قروناً طويلة من حروب طاحنة، نشأت نتيجة الاختلاف في تلك التفسيرات التي ابتدأ بها اليهود، ومن افتراق في وجهات النظر أنشأ فِرقاً كثيرة وانقسامات متعددة، حتى إن المسيحية ما عاد لها ذلك الكيان المستقل الذي تتميز به الديانة عادة.

ولم يُلق اليهود السلاح، فهم لا يزالون يعملون في الخفاء على تحريف كتب النصارى وأناجيلهم، كلما دعت حاجتهم لذلك، ولا يزال التحريف يقع من اليهود على كتب المسيحيين، حتى هذه الأيام.

(والعجيب أن الفاتيكان يعترف إلى حد كبير بموقف بولس من المسيحية وعدم حرصه عليها، فقد جاء في كتاب نشره الفاتيكان سنة ١٩٦٨م بعنوان: (المسيحية عقيدة وعمل) ما يلي: (كان القديس بولس منذ بدء المسيحية ينصح لحديثي الإيمان أن يحتفظوا بما كانوا عليه من أحوال قبل إيمانهم بيسوع المسيح)[2].

وهناك وثائق كثيرة تثبت أن اليهود قد تدخلوا في تحريف كتب النصارى منذ البداية، وقلبوا المسيحية سافلها عاليها.

وقد نقل لنا الأستاذ (زهدي الفاتح) في كتابه (اليهود) بعض هذه الوثائق، ومنها: ذلك الخطاب المفتوح إلى نصارى العالم، والذي نشرته مجلة (Century)

---

(١) الإسلام والفلسفات القديمة، أنور الجندي: ص ١٩١.

(٢) المسيحية، أحمد الشلبي: ص ١٢٥.

الأميركية في عدد كانـون الثاني ـ شبـاط ١٩٢٨، بقلم الكاتب اليهـودي (ماركـوس إيللي رافاج).

وهذه مقتطفات منه:

(إنكم مستـاؤون منـا، لكنكم لا تستـطيعـون أن تعبـروا بـوضـوح عن سبب استيائكم.. إنكم تتهمونا بأننا صانعو الثورة البلشفية في موسكـو، افترضـوا أننا نقـرّ هذه التهمة فما البأس؟...

إنكم تثيرون الصخب حول النفـوذ اليهودي الـذي تقولـون إنه لا مبـرر له في مسارحكم ودور السينما عندكم.. ولكن ما قيمة النفوذ إذا ما قورن بنفـوذنا المـاحق في كنائسكم، في مدارسكم، في قوانينكم، في قلب حكوماتكم، بل وفي الأفكـار التي تتداولونهـا خلال يـومكم، لم تبدأوا بعـد بإدراك العمق الحقيقي لإثمنـا، نحن متـطفلون دخلاء، نحن مـدمِّرون، لقـد شوَّهنـا عـالمكم السـوي، ومثلكم العليـا، ومصيـركم، فهل علينـا العبث بها جميعـاً تدميـراً وتخـريبـاً!.. فهـل من عجب أن تستـاؤوا منا! لم لا تستـاؤون منا وقـد وضعنا العـوائق في طريق أقـدامكم، وفرضنـا عليكم كتاباً وديناً غريبين عنكم، لا تستطيعون هضمهمـا وبلعهما، فهمـا يتعارضـان كلية مع روحكم الأصلية، فشتتنا أرواحكم تمـاماً، وجعلنـا سبل تـطوراتكم مرتبكـة وشللنا تطلعاتكم)[1].

ومما نشرته المجلة الأمريكيـة أيضاً من تلك الـوثيقة: (إنكم أيهـا المسيحيون لا تنقمون على اليهود لأنهم صلبوا المسيح بل لأنهم أنجبوه.. إن نزاعكم الحقيقي مـع اليهود، ليس لأنهم لم يتقبلوا المسيحيـة، بل لأنهم فـرضوهـا عليكم. فهل من عجب أن تستاؤوا منا؟.. إنكـم أيها المسيحيون تتهمونا بإشعال نـار الثورة البلشفيـة التي لا تعـدو أن تكـون نقـطة في بحـر الثـورة التي أشعلهـا (بـولس اليهـودي) في روما)[2].

---

(١) انظر كتاب: اليهود، زهدي الفاتح: ص ١٥٠ ـ ١٥٤، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.

(٢) انـظر كتاب: معـاول الهدم والتـدمير في النصـرانية والتبشيـر، إبـراهيم سليمـان الجبهـان: ص ٩٨ ـ ٩٩، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

وقد نشرت مجلة (كاثوليك غازيت) عدد شباط ١٩٣٦م شيئاً من الخطابات التي ألقيت في مؤتمر (مجمع البناي بريث) اليهودي الذي انعقد في باريس.

ومما جاء في تلك الخطابات: (دعونا نوضح لكم كيف مضينا في سبيل الإسراع بقصم ظهر الكنيسة الكاثوليكية، فاستطعنا التسرب إلى دخائلها الخصوصية، وأغوينا البعض من رعيتها (كهنتها الداخليين)، ليكونوا رواداً في حركتنا، ويعملون من أجلنا، أمرنا عدداً من أبنائنا بالدخول في جسم الكاثوليكية مع تعليمات صريحة بوجوب العمل الدقيق والنشاط الكفيل بتخريب الكنيسة من قبلها. . ونكون بذلك قد عملنا بنصيحة أمير اليهود الذي أوصانا بحكمة بالغة: دعوا بعض أبنائكم يكونون كهنة ورعاة أبرشيات فيهدمون كنائسهم. . ونستطيع التصريح اليوم بأننا نحن الذين خلقنا حركة الإصلاح الديني المسيحية، فـ (كلفن) كان واحداً من أولادنا يهودي الأصل، أمر بحمل الأمانة فنفذ مخطط الإصلاح الديني، كما أذعن (مارتن لوثر) لإيحاءات أصدقائه اليهود، وهنا أيضاً نجح برنامجه ضد الكنيسة الكاثوليكية بإرادة المسؤولين اليهود وتمويلهم)[1].

ولقد قدِّر لليهود أن يتغلغل نفوذهم اليوم في كل ناحية من نواحي حياة المسيحيين في الغرب حتى المؤسسات التعليمية منها.

وقد اهتم اليهود في هذا القرن بقضية حرصوا على محوها من كتب النصارى وهي مسألة صلب المسيح، فإن الأناجيل المتداولة تحوي نصوصاً كثيرة تثبت أن أيدي اليهود ملطخة بدم المسيح وعليهم مسؤولية قتله، سواء أكان على مستوى مجلسهم الأعلى (السنهدرين) الذي أقر صلب المسيح، وقدمه للحاكم الروماني لتطبيق العقوبة، أم كان على مستوى الشعب الذي صاح بأعلى صوته مؤيداً صلبه، حينما سألهم (بيلاطس): (فماذا أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح، قال له الجميع: ليصلب)[2].

---

(١) اليهود، زهدي الفاتح: ص ١١١، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.

(٢) متى: ٢٧/٢٢.

(ولما كان الصباح، تشاور جميع رؤساء الكهنـة، وشيوخ الشعب على يسـوع حتى يقتلوه، فأوثقوه ومضوا به ودفعوه إلى (بيلاطس) النبطي الوالي)[1].

هذه النصوص من شأنها أن تُغذى الحقد المسيحي على اليهود، فقرر اليهـود بذل جهودهم لتغيير هذه النصوص وتحريفهـا، وبدأوا بـاتصالاتهم مـع رجال الـدين المسيحيين حتى يحصلوا على وثيقة مسيحية تبرىء اليهود من دم المسيـح، واستغل اليهـود نفـوذهم في المجتمـع الغـربـي، كمـا استغلوا تفـرق النصـارى واختـلاف طوائفهم، واستطاعوا تحقيق انتصارات تدريجية في هذا المضمار.

جاء في التقرير السنوي الذي قدمته الجمعية الأميركية اليهـودية سنـة ١٩٥٢م ما يلي:

(إن الانتصارات التي حققناها في السنوات المـاضية من سنـة ١٩٥٠م أزالت كل إشارة معادية في الكتب الدينية المسيحية، وكتب التدريس، لا سيمـا فيما يتعلق منها بقضية الصلب، فبفضـل جهودنـا أصبح ٥٨٪ من الكتب البـروتستانتيـة خاليـاً اليـوم من العبارات العـدائية المحقِّـرة لليهود، وقـد توصلنـا إلى نتـائـج ممـاثلة في الكنائس الكاثوليكية إلاَّ أن ذلك كان على نطاق أضيق)[2].

هذا بعض ما أنجزه اليهود في الخمسينات حول هذه القضية أما الستينات فقد كانت حافلة بجهودهم وانتصاراتهم، وأهم إنجـاز حصلوا عليه (وثيقـة التبرئـة) التي تبرىء اليهود اليـوم من دم المسيح، وقبـل هذه الـوثيقة قـاموا بعـدة محاولات منهـا تحريـف الإنجيل، وإقناع بعض رجال الدين من النصارى حول مسألة الصلب هذه.

وفي العـدد (ينايـر ــ مـارس) ١٩٦١ من مجلة (نـور الحيـاة) التي يصـدرهـا الأستاذ (جرمانوس لطفي) في القاهرة مقال لـه بعنوان (الصهيـونية تحـرِّف الإنجيل) جاء فيه:

---

(١) متى: ٢٧/١ ــ ٢.

(٢) اليهـودية العـالمية وحـربها المستمـرة على المسيحية، إيليـا أبو الـروس: ص ١١، الطبعـة الأولى ــ بيروت ١٩٦٤م، منشورات دار الاتحاد.

(جرت في السنين الأخيرة، محاولات كثيرة لتحريف الكتاب المقدس، وكان أهمها مستوحىً من الحركة الصهيونية، التي ما فتئت تعمل سراً وعلانية على هدم المسيحية وسائر الأديان الأخرى. . ومن أعوام عقد في مدينة (سيليربرنج) في سويسرا مؤتمر اشترك فيه بعض رجال البدع المسيحية الجديدة المتطرفة مع فريق من ممثلي الهيئات الدينية اليهودية، وقرر المجتمعون مكافحة أعداء اليهود في العالم المسيحي، وحذف الآيات والفصول الواردة في الأناجيل، بنوع أخص التي تصف اعتداء اليهود على السيد المسيح وصلبه، لكي لا تطَّلع الناشئة في الأجيال القادمة على قصة العدوان اليهودي على المسيح والمسيحية، وقرروا طبع الكتاب المقدس المعدل وفق قرار المؤتمر. .)[1].

إن مجرد انعقاد مثل هذا المؤتمر ليضم إلى جانب الحاخامات اليهود مجموعة من القساوسة ورجال الدين من النصارى للمفاوضة على قضية يعتبرها النصارى ركناً أساسياً من أركان عقيدتهم، يدل في الحقيقة على عمق النفوذ اليهودي في المجتمعات الغربية المسيحية، وإن كانت تدل أيضاً على عدم اقتناع النصارى بعقيدتهم، فسهل عليهم التنازل عن ركن من أركانها، والموافقة على امتداد يد التحريف على الكتاب المقدس عندهم. وهذا أيضاً يدل على إمكانية امتداد يد التحريف على كتب النصارى في كافة العصور، ما دام رجال الدين أنفسهم يوافقون على ذلك.

وبقي اليهود يتدرجون في استصدار مثل هذه القرارات حتى توصلوا إلى قرار أخيراً يبرىء اليهود من دم المسيح.

وثيقة التبرئة:

لقد حرص اليهود على الحصول على أخذ البراءة من أعلى مصدر مسيحي، وبقيت جهودهم متواصلة حتى توصلوا إلى عقد مؤتمر الفاتيكان الثاني: (وهو ذلك المجمع المسكوني أو المؤتمر الديني العالمي للكنيسة الكاثوليكية، والذي عقد في

(١) اليهودية العالمية، إيليا أبو الروس: ص ١٨.

الستينات من هذا القرن. . ويعتبر هذا المؤتمر من الأحداث الهامة في القرن العشرين، إذ كان الغرض الرئيسي الذي عقد من أجله هو تحقيق الوحدة الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة)[١].

وعقد المؤتمر تحت هذا الهدف، ولم يشر عند الإعلان عنه إلى قضية التبرئة مطلقاً، وحرص اليهود أن يضم هذا المؤتمر مندوبين عن كل الطوائف المسيحية وفعلاً ضم (٢٨٥١) مندوباً عن الكنائس الأخرى من البروتستانت والكاثوليك)[٢].

(وافتتح هذا المؤتمر في أكتوبر سنة ١٩٦٢م ليبدأ بحث موضوعاته في دورات أربع)[٣].

وقد عرض على المجمع المسكوني في دورته الثانية التي عقدت سنة ١٩٦٣م الباب الخاص بعمومية الكنيسة، وقد وافق عليه الأعضاء ولم يكن في هذا الباب أية إشارة لموضوع تبرئة اليهود من دم المسيح. . إلَّا أن الأعضاء فوجئوا في الثامن من نوفمبر سنة ١٩٦٣م بوثيقة توزَّع عليهم بإمضاء الكاردينال الألماني (بيا) رئيس سكرتارية المجمع، ومعها اقتراح بضمها إلى الباب الخاص بعمومية الكنيسة. وفيما يلي أهم عناصر الوثيقة في صورتها التمهيدية:

(إن الكنيسة لا يمكن أن تنسى أنها استمرار لذلك الشعب الذي تفضل الله عليه برحمة واسعة في يوم من الأيام بتحقيق عهده القديم، وتضع الكنيسة نصب عينها دائماً ما قاله (بولس) الرسول في شأن اليهود: (الذين هم إسرائيليون ولهم التبني والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد)[٤]. ومن الواجب أيضاً أن نذكر أن اتحاد الشعب اليهودي مع الكنيسة هو جزء من الأمل المسيحي، والواقع

---

(١) إسرائيل حرفت الأناجيل والكتب المقدَّسة، المهندس أحمد عبد الوهاب: ص ٢١ مكتبة وهبة ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٧٢م.
(٢) نفس المرجع: ص ٢٢.
(٣) نفس المرجع: ص ٢٢.
(٤) رومية: ٩/٤.

أن الكنيسة حسب تعاليم بولس الرسـول، تفتح بعقيـدة متينة ورغبـة أكيدة في وجـه ذلك الشعب بابَ الدخول في سلطان الله كما وطده المسيح.

لهـذا يجب على الجميع عنـد تلقي الدين المسيحي أو نشـر كلمـة الله عـدم إظهار الشعب اليهودي كـأنه ملعـون، أو القيام بمـا يباعـد بين الناس وبين اليهـود، ويجب بـالإضافـة إلى ذلك أن نحـرص أشد الحـرص ألا نعْـزو إلى يهـود عصـرنـا ما ارتكب من أعمال أيام المسيح)[١].

وفي اليوم التالي لبـدء المناقشـات إذا بالكـاردينال (بيـا) يقدم بنفسـه التقريـر الخاص بفصل التبرئة، قبـل أن يصل الأعضـاء إليه، وكـان مما قـاله: (كيف يمكن اتهام اليهود بقتل الرب؟ وحتى في ذلك الوقت، فـإن أغلبية الشعب لم تعـرف شيئاً عما كان يحدث، وقد رفض أحـد أعضاء (السنهـدرين) الموافقـة على القبض على المسيح، كما كـان القادة متـرددين في الاشتراك في هـذا الفعل، وكـذلك فـإن من المستحيل اتهام اليهود بقتل الرب)[٢].

هذا بعض ما جاء في هذه الوثيقة التي قـدِّمت لأعلى مرجـع عند النصـارى، تطلب الموافقـة على تبرئـة اليهود من دم المسيـح، ويتقدم بهـا أحد كبـار الكرادلـة عندهم. وهذا يستلزم الاستغنـاء عن عشرات النصـوص المدونـة في أناجيلهم، ولا شك أن هذا الاقتراح لم يحظَ بالتأييد الكامل من أعضاء المؤتمر، بل لقي معارضـة من داخل المجمع، ومن خارجه، مما اضطرهـم إلى تعديل الوثيقة، (وأقـر المجمع الفقـرة التي تنفي المسؤولية الجمـاعية لصلب المسيـح عن اليهـود... وفي جلسـة رسميـة سنة ١٩٦٥م أصـدر البابـا (بولس السـادس) البيان الـذي أصبـح جزءاً من التراث الكاثوليكي، واشتهر باسم وثيقة التبرئة)[٣].

وبهذا حصل اليهود على هذه الوثيقة من البـابا نفسـه، يشهد فيهـا أن الشعب اليهودي المعاصـر لا شأن لـه بقضية الصلب، وحتى الشعب اليهـودي أيام المسيـح

---

(١) إسرائيل حرفت الأناجيل، أحمد عبد الوهاب: ص ٢٣.

(٢) نفس المرجع: ص ٢٤.

(٣) نفس المرجع: ص ٣٤.

لا يدان كله، واكتفى اليهود مؤقتاً بهذا القدر من التنازل حتى يتمكنوا من استصدار وثيقة أخرى تبرئهم تماماً فيما بعد.

ولذلك فإن اليهود لم يقفوا عند هذه الوثيقة، بل راحوا ينشرون هذا الرأي في كل مكان (في بريطانيا نشرت الصحف ووكالات الأنباء العالمية رسالة خطيرة للدكتور (مايكل رامزي) رئيس أساقفة (كانتربري) جاء فيها: (إنه من الخطأ الإنحاء باللائمة على اليهود في صلب السيد المسيح، وقد نشرت الصحف أن توجيه هذه الرسالة كان استجابة لطلب المجلس الرعوي للتفاهم المسيحي اليهودي في العاصمة البريطانية)[1].

وكان من الطبيعي للإعلام اليهودي الذي يسيطر على الإعلام الغربي أن ينشر مثل هذه الرسالة في كل وسائل الإعلام، لأن اليهود هم وراءها منذ البداية.

وقد تصدَّى للرد على هذه الرسالة القس (عقل عقل) الرئيس الروحي للكنيسة الإنجليكانية الأسقفية العربية في عمان في ٢٤ آذار ١٩٦٤م، ونقلت ذلك وكالات الأنباء وكان مما قاله: (. . . إن تصريحات الدكتور (مايكل رامزي) محاولة رخيصة للدعاية الصهيونية لرفع لعنة صلب السيد المسيح عن اليهود. . وقال: إننا ندرك نحن المسيحيين العرب، مقدار تغلغل الصهيونية في مرافق المجتمع الغربي، ومدى تسلطها على عقول المسيحيين الغربيين، وإنه ليعزّ علينا أن يصل هذا التغلغل المرتجل إلى أكثر من عرين للديانة المسيحية في الغرب)[2].

ويذكر الأستاذ أحمد عبد الوهاب أن اليهود أصدروا بعد وثيقة التبرئة طبعة محرفة لأسفار العهد الجديد عن (دار النشر اليهودية بالقدس سنة ١٩٧٠)، وتقوم بتوزيعها في لندن وكالة (ريد)، وقد اطلع الأستاذ أحمد عبد الوهاب على هذه النسخة، وأحصى التحريفات التي وردت فيها، وذكر هذه التبديلات في كتابه، ويقول: (بأن أغلب هذه التحريفات قد أدخل على قصة الصلب بهدف إبعاد المسؤولية عن اليهود، وإلقاء الشبهة على رعاع ذلك الشعب، والطبقة الدنيا منه كما

---

(١) اليهودية العالمية، إيليا أبو الروس: ص ١٣.

(٢) نفس المصدر: ص ١٤.

أن ثورة أولئك الرعاع ضد المسيح لم تكن تبغي صلبه، وإنما كانت تطالب بـإبعاده والتخلص منه بصورة أو بأخرى)[1].

والخـلاصة أنـه لا يهمنا أن يبـرأ اليهود من دم المسيـح، أو لا يُبـرَّؤوا، فنحن نعتقـد جـازمين أن اليهـود لم يصلبـوا المسيـح، ولم يقتلوه لأنـه أصـلاً لم يصلب، ولم يقتل، مع أنهم بلا شك حاولوا قتله، وقرروا صلبه، لكن الله تعـالى أنجاه منهم فباؤوا بلا شك بإثم الجريمة التي عزموا عليها، ولم يستطيعوا تنفيذها.

﴿وقولهم إنا قتلنـا المسيح عيسى بن مـريم رسولَ الله، ومـا قتلوه وما صلبـوه ولكن شُبِّه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه، ما لهم به من علمٍ إلَّا اتبـاعَ الظن، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[2].

والذي يهمنا بالدرجة الأولى من هذه الوثيقة وغيرها من قـرارات رجال الـدين من النصـارى: الاستدلال من خـلالها على النفـوذ اليهـودي في العـالم المسيحي، واستطاعة اليهود التحريف والتبديل في أسفار النصارى المقدسة.

وإنك إذا أمعنت النظر ببعض نصـوص وثيقة التبـرئة، وجـدت الصلة واضحة بين رجال الدين اليوم وبين (بولس) الذي رمى بذرة الانحراف في النصرانية، فنمت هـذه البذرة أولاً في المجتمعـات الرومـانية الـوثنيـة، لأنهـا لقيت تـربـة خصبـة في أرضها، وظلت البذرة تنمو حتى آتت أكلها على يـد أتباع (بـولس) بعد تسعـة عشر قـرناً من الـزمان، والـوثيقة نفسهـا تشهد بـذلك، فهي تـذكر النصـارى أولاً بتعاليم (بولس) ووصاياه التي يحن فيها على آبائه اليهود.



(١) إسرائيل حرفت الأناجيل، أحمد عبد الوهاب: ص ٥٧.

(٢) سورة المائدة: الآيتان ١٥٧، ١٥٨.



المبحث الثالث

أثر رجال الكنيسة في الانحراف

نشـأة الكنيسـة :

قبل أن نتحدث عن أثر الكنيسة ورجالها في إقـرار الانحراف الـذي طرأ على التـوحيد في النصـرانية، والمسـاعدة على شيـوعه وتعميمـه على النصـارى في كـل مكان. . رأينا أن نعطي لمحة موجزة عن نشأة الكنيسة، نعـرف من خلالهـا متى نشأ هذا النظام الكنسي الذي أصبح من حقه أن يثبت ما شاء، أو ينفي ما شـاء، وأصبح من حقه إقرار العقائد وصياغتها، والتدخل في أسس العقيدة وأركانها.

ولدى مراجعتنا للمراجع التي تحدثت عن هذا الموضوع، فإننا لم نجد أحـداً من النصـارى قال بـأن نـظام الكنيسـة عـرف زمن المسيـح عليـه السـلام، كمـا أن النصـوص الإنجيليـة لم تنسب قط إلى المسيـح تعبيـراً يـدل على الكنيسـة، إلاَّ في منـاسبـة واحـدة وردت في إنجيـل متى: (أنت بـطرس وعلى هـذه الصخـرة أبني كنيستي)[1].

ومع استغلال رجال الدين النصارى لهذا النص الذي يستشهدون بـه على أنه كان في نية المسيح بناء كنيسة أو أنه أمر بذلـك، إلاَّ أن هذا النص بحـد ذاته ـ إذا صح ـ لا يدل على الكنيسـة بمعناهـا المعروف وإنمـا يشير إلى الثقـة التي أعطاهـا المسيح عليه السلام لتلميذه (بطرس) ويشير إلى أن دعوته ستقوم وتنتصر بين الناس على أكتاف المؤمنين بها المخلصين أمثال تلميذه بطرس، فهو أراد أن يمتدح تلميذه (بطرس) فأعطاه لقب الصخرة كناية عن الثبات والصمود.

---

(١) متى: ١٦/ ١٨.

إن دعوة المسيح عليه السلام خاصة لبني إسرائيل وهي من البساطة واليسر بحيث لا تحتاج إلى هذا التنظيم الكنسي الذي نشهده وهذه المناصب الكثيرة وإلى هذا الجهاز الضخم من الكرادلة والمطارنة والأساقفة والبطاركة والشمامسة، وغير ذلك من ألقاب ما عرفها المسيح ولا سمع بها.

ومع بداية القرن الرابع تتغير الأحوال، يقول الأستاذ (جيني بير): (إذا تأملنا المسيحية في مقتبل القرن الرابع، فإنه يتعذر علينا أن نجد صورة من صور مجتمع الحواريين، فبدلاً من جماعة محدودة من اليهود لا يفرق بينهم وبين باقي أمتهم سوى أمل خاص. . بدلاً من ذلك نجد مجتمعاً دينياً واسع النطاق يدخل فيه ـ دون تمييز لجنس أو لطبقة معينة ـ كل من يرى في نفسه القدرة الكافية، مجتمعاً يدرك تماماً أنه يشكل وحدة متكاملة، وأنه هو الأمة المختارة أي (كنيسة المسيح))[1].

والأستاذ (جيني بير) يتحدث إلينا عن تطور فكرة الكنيسة، وكيف نمت هذه الفكرة مع بداية القرن الثاني، حتى تجلت واضحة في بداية القرن الرابع. فهو يقول: (إن المسيح لم ينشىء الكنيسة ولم يردها)[2]، ويؤكد هذه الحقيقة فيقول: (ولعل هذه القضية أكثر الأمور المحققة ثبوتاً لدى أي باحث. . إن عيسى كان يترقب حلول مملكة الله الوشيك، ومن شأن هذا الأمل أن ينفي من منطقه كل فكرة تتعلق بالتنظيم الدنيوي لأتباعه)[3].

وهكذا يمضي عهد المسيح عليه السلام دون أي تفكير بإنشاء مؤسسة الكنيسة، ولقد كان الحال كذلك في عهد حوارييه الذين حادوا عن طريقه، فهم كذلك لم ينشئوا كنيسة قط، يقول الأستاذ (جيني بير): (وإذا قلنا بأن المسيح صرح للحواريين الإثني عشر بسلطة ما، وهذا محل جدل حتى اليوم، فمما لا شك فيه أن الأمر لم يتعد منحهم بعض ما أوتي هو من سلطان في التبشير بالتوبة، وبحلول مملكة الله، ولم يصنع منهم قساوسة حيث لم يكن في حاجة إلى ذلك، وعلى أي

---

(١) المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٢٦ ــ ١٢٧.
(٢) نفس المرجع: ص ١٣٠.
(٣) نفس المرجع: ص ١٣٠.

حال فإننا عندما ندرس أعمال الحواريين لا نجد أنهم فكروا في إنشاء كنيسة)[١].

أضف إلى ذلك أن الحاجة لإنشاء الكنيسة لم تنشأ إلَّا عندما أريد للمسيحية أن تنتقل إلى العالم اليوناني الروماني، وكما يقول الأستاذ (جيني بير): (يمكن القول بأن فكرة الكنيسة نشأت عن انتقال الأمل المسيحي من فلسطين إلى ربوع العالم اليوناني، وأيضاً إذا شئنا عن تطور هذا الأمل إلى العالمية)[٢].

وقد عرفنا أن الذي قوَّى هذا الأمل، ونادى بعالمية المسيحية هو بولس، وفكرة بولس هذه نمت، ونجحت في القرن الثاني، (ونعتقد أيضاً أننا إذا وقفنا على أعتاب القرن الثاني لنتأمل المسيحية سوف نجد أن فكرة بولس الخاصة بوحدة المسيحيين جميعاً في الله قد ثبتت تمام الثبوت)[٣].

هكذا بدأت الفكرة (ويشير الباحثون إلى أن نظام الكنيسة، وسلطة رجل الدين قد بدا واضحاً في القرن الرابع، حيث عدَّ بابا روما رئيساً للكنائس كلها، وقد أصبح للبابوات نفوذ ضخم مع تدهور الإمبراطورية في الغرب)[٤].

ويشير المؤرخون إلى أن أقدم كنيسة هي كنيسة بطرس في روما، ولقد افترقت الكنائس تبعاً لافتراق النصارى، ولكل فرقة من الفرق الثلاث المعروفة اليوم كنيسة تعتبر أمّاً للكنائس المنتشرة في كثير من أقطار العالم.

(والكنيسة الكاثوليكية هي كبرى كنائس العالم وهي ذات التاريخ الطويل في الدين والسياسة، وهي التي حملت لواء الحروب الصليبية، وحاملة لواء محاكم التفتيش).

هذه لمحة سريعة عن نشأة الكنيسة، أثبتنا من خلالها أن الكنيسة في أساسها طارئة على المسيحية، وبالتالي فلا غرابة أن تقوم برفع راية الانحراف بالنصرانية عن توحيدها في كل العصور.

---

(١) نفس المرجع: ص ١٣٠.

(٢) المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٣١.

(٣) نفس المرجع: ص ١٣٣.

(٤) الإسلام والفلسفات القديمة، أنور الجندي: ص ٢٠٨.

ونحن حينما نتحدث عن أثر الكنيسة ورجالها في الانحراف، لا بد لنا أن نتحدث عن تلك المجامع التي عقدها رجال الدين النصارى، وهم رجال الكنيسة، لأن الانحراف كله صدر عن هذه المجامع، فهي مصدر أساسي من مصادر انحراف النصرانية عن التوحيد.

المجامع:

والقضية الأولى التي نود الحديث عنها حول هذه المجامع هي: أن كل مجمع منها ما عقد إلَّا لمعالجة مشكلة، أو مناقشة قضية كثر فيها الجدل، واحتدم فيها الصراع، ونشأ عنها الخلاف الطويل بين رجال الكنيسة أنفسهم ومن اللحظة الأولى التي ابتدأت فيها المسيحية بالانحراف عن عقيدتها الأصلية الموحدة على يد بعض رجال الدين الذين تلبسوا بالمسيحية أمثال (بولس)، من تلك اللحظة بدأ الخلاف واحتدم الجدل حول أهم أركان العقيدة النصرانية، وهو ركن الألوهية والتوحيد، وبينما كان الجيل الأول من النصارى لا يعرف غير التوحيد الخالص لله تعالى، توالت أجيال من بعده احتكت بالفلسفة الإغريقية وبالوثنية الرومانية، وأصبحت تلك النظريات الفلسفية، تشكل قواعد اللاهوت المسيحي، ومن الطبيعي أن لا يتفق الناس جميعاً على الباطل والانحراف.. وحتى المتفقون على الباطل، لا بد لهم أن يختلفوا لأن سبل الباطل متشعبة ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فَتَفرَّقَ بكم عن سبيله﴾[1].

وتعددت الآراء حول قضية الألوهية وطرحت عند النصارى فكرة تأليه المسيح عليه السلام تلك الفكرة التي نشأ حولها الصراع الدامي الطويل بين النصارى، وانقسم النصارى بين مؤيد للفكرة ومعارض لها، يقول الأستاذ (محمد فريد وجدي): كانت الكنائس النصرانية في الجيل الرابع متوزعة بين حزبين، أحدهما يقر بإلَٰهية المسيح والآخر ينكرها)[2].

---

(١) سورة الأنعام: ص ١٥٣.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ٢٠٣/١٠.

ولا شك أن كل حزب من هذين الحزبين، كان يحتوي فرقاً متعددة، ونحن لن نحاول استقصاء الفرق، والآراء التي ظهرت حول طبيعة السيد المسيح، ولكننا نتحدث عن أهم تلك الفرق، أو بالأحرى ذات الأثر الكبير في تاريخ النصرانية، وسنسلط الأضواء على الفرق الموحدة التي عارضت موجة الانحراف والتأليه، ومن خلال حديثنا عنها سنرى موقف رجال الكنيسة المعارضين لهم، وبذلك يظهر لنا دورهم في إقرار الانحراف.

الحركة الآريوسية:

وأبرز الفرق التي عارضت تأليه المسيح، فرقة الأريوسيين التي يعتبرها النصارى فرقة خارجة عن النصرانية، ويعتبرون حركتها أخطر حركة في تاريخ الكنيسة، ويصفونها بالهرطقة[1].

يقول (ول ديورانت): (أثناء حكم قسطنيطين شهدت الإسكندرية قيام أخطر حركة إلحادية في تاريخ الكنيسة، ذلك أن قساً مصرياً تقدم إلى أسقفه حوالي عام (٣١٨م) بآراء غريبة عن طبيعة المسيح)[2].

ونحن هنا سنقف قليلاً مع (آريوس)[3] لنتعرف على نشأته وأفكاره ونسير معه إلى (مجمع نيقية سنة ٣٢٥م) باعتباره ما عقد إلَّا لأجله، وسنرى من خلال رحلتنا هذه كيف قضى رجال الدين المنحرفون على هذه الحركة بسلطتهم الدينية، تعاونهم سلطة الإمبراطور التي تدخلت فعلياً لإقرار الانحراف، والقضاء على الحركة الأريوسية، وبذلك انتصرت الكنيسة الكاثوليكية، وأقرت التثليث الذي

---

(١) الهرطقة أو الأرطقة كلمة يونانية من (artic) بمعنى الكفر تطلقها الكنيسة الكاثوليكية على كل مخالفيها.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٩٢/١١.

(٣) آريوس: ولد في ليبيا القيروان سنة ٢٧٠م ودخل في شبابه المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية ثم رشحه البابا (بطرس) بطريرك الإسكندرية شماساً سنة ٣٠٧م ثم قساً وواعظاً وكان ذكياً فصيحاً.
انظر: تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١٥٠/١، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٨م.

فرض على النصارى، فقضت على الموحدين، وأحـرقت كتبهم، وما بقي لـلأجيال سوى عقيدة التثليث التي يؤمن بها النصارى على اختلاف فرقهم.

والمـراجع المسيحيـة كلها تتحـدث عن (آريوس) عنـد حديثهـا عن الزنـدقـة والإلحاد في المسيحية، لذلك فإن كتبه ورسـائله التي بين بها آراءه قـد حكم عليها بـالإعدام، فلم يصلنـا منها شيء، ولـولا ما دون عن أخبـاره وآرائه في الكتب التي ردَّت عليه لما عرفنا عنه شيئاً.

صـفـاتـه:

ونحاول أن نتتبع صفـات آريوس لنتعـرف من خلالهـا على شخصيته، يقـول الدكتور (أسد رستم): (وكان آريوس فيما يـظهر عـالماً زاهـداً متقشفاً يجيـد الوعظ والإرشـاد فـالتفَّ حـولـه عـدد من المؤمنين، وانضم إليـه عـدد كبيـر من رجـال (الإكليروس) الذين وجدوا في وعظه غذاء للنفوس فآثروا الإصغاء إليه)[١].

هـذا ما وصفـه به المؤرخ الـدكتور أسـد رستم، وهـو مسيحي بـل هـو مؤرخ كنيسة أنطاكية.

ويصفه مؤرخ كاثوليكي وصفاً كريماً فيقول: (كان آريوس طويل القامـة نحيل الجسم، وذا مظهر تبدو فيه آثار خشونة العيش، وكان معروفاً بأنه من الزهاد، وكـان له بين رجال الدين عدد من المؤيدين)[٢].

وبناء على ذلك فإن (آريوس) نشأ في بيئة مسيحيـة خالصـة، درس اللاهـوت في الإسكندرية منذ ريعان شبابه، واهتم بالمسائل الدينيـة، وعرف بـالتقوى والـزهد والتقشف، فعيَّنه بطريرك الإسكندرية شماساً ثم قساً وواعظاً، ووصف بأنه كان ذكيـاً فصيحـاً يجيد الـوعظ والإرشاد، واستـطاع بـأسلوبـه الحكيم، وبمـا أوتي من قـدرة وعظية أن يستميل لفكرته كثيراً من المؤيدين، معظمهم من رجـال الدين المـطلعين عليه، وإنا لنلمس من خلال هذه الأوصاف التي يصفه بها كتاب مسيحيون مناوئـون

---

(١) كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، د. أسد رستم: ١/١٩٣، نشر دار النور ــ بيروت.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٩٢/١١.

له، القوة والمنطق في آرائه، فهو أولاً: رجل دين مطلع عاش المسألة في الكنيسة، ودرسها، وكان من الذين يجوز لهم الاطلاع على جميع الكتب الدينية الموجودة، كما عرف بزهده وتقواه، وهذا يشير إلى إخلاصه وعدم اتهامه بالزندقة وغيرها. . أضف إلى ذلك كله صموده وصبره الطويل أمام رجال الدين المنحرفين، وأمام الإمبراطور نفسه بجبروته وعظمته. إن وقفته الصامدة ومواجهته لكل الضغوط، إنما يدل دلالة واضحة على صدق ما جاء به، ولذلك فقد كثر أتباعه وصبروا معه، ولاقوا العذاب والاضطهاد في سبيل ذلك، لأنهم مؤمنون أنهم على حق، وهذا شأن أصحاب العقائد المخلصين في دعوتهم.

وإن الدارس لحركة (آريوس) وجهاده الطويل ليدرك فداحة الجريمة التي ارتكبها بعض رجال الدين الذين آثروا مناصبهم، وآثروا إرضاء الدولة الرومانية الوثنية، فباعوا دينهم بدنياهم ووقفوا ضد (آريوس)، وحركته، وهم موقنون بقرارة نفوسهم صحة آرائه.

أما عن آرائه فلقد أسلفت من قبل أن رسائله التي أوضح فيها آراءه لم تصلنا، وما نقله المؤرخون عن عقيدته إنما كان مصدرهم فيه الكتب التي ردت عليه.

يقول الدكتور (أسد رستم): (ولسنا نعلم الشيء الكثير عن آريوس هذا. . وقد ضاعت رسائله ولم يبق منها إلّا مقتطفات يسيرة، جاءت في بعض الردود عليه)[1].

ومع ذلك فقد حوت هذه الكتب خلاصة عقيدته، وإن كنا نود لو أننا عثرنا على هذه الرسائل، لأنه ما من شك أنها حوت شروحاً كثيرة عن عقيدته، لم تتضمنها كتب الذي ردّوا عليه.

وقد لخّص زكي شنودة عقيدة (آريوس) وآراءه فقال: (إنه يؤمن بإله واحد متعال، يفوق حد التصور منطو على نفسه، وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتاً بأي

---

(١) الروم، أسد رستم: ١/٥٦.

شيء له نهاية، وهو فريد لا شبيه له، أزلي لا بداية له، صالح، وهو وحده سبحانه ينفرد بهذه الصفات، وعندما شاءت إرادته أن يخلق عالماً ذا نهاية احتاج إلى وسيط، ولم يكن في هذا الوسيط قوة خالقة، وإنما كان عاملاً بسيطاً علمه الآب كيفية القيام بهذه المهمة، وهذا الوسيط لم يأت من عند الآب بأن صدر عنه أو انحدر منه، بل خلقه الآب خلقاً، فهو إذن غير أزلي، وهو مخلوق مثل باقي المخلوقات، ولا يمتاز عنها إلَّا بكونه خلق قبلها، وبأنه كان الواسطة التي استخدمها الله في عملية الخلق، ثم بعد ذلك في عملية الفداء، وهو ليس مساوياً للآب في الجوهر، بل بالعكس تتغير طبيعته مثل أي مخلوق، وهو كأي مخلوق أيضاً قادر على عمل الخير والشر. . . وهو أيضاً: معرض للخطأ، ولا يستطيع أن يحيط بكل شيء)[1].

هذا ما نقله لنا صاحب موسوعة تاريخ الأقباط عن عقيدة (آريوس) وما كتبه الدكتور أسد رستم وغيره شبيه بذلك.

ولعل من تمام الفائدة أن نذكر المناظرة التي جرت بين (آريوس) وبين (أثناسيوس) رئيس شمامسة الإسكندرية بحضور الإمبراطور (قسطنطين) في مجمع (نيقية سنة ٣٢٥م)، وهذه المناظرة تعتبر المصدر الأصلي الوحيد لبيان عقيدة آريوس كما يذكر الدكتور أسد رستم[2].

وقد أورد صاحب (تاريخ الأقباط) هذه المناظرة، وقد دارت المناقشة بعد أن رَأَسَ الإمبراطور المجمع وطلب من (آريوس) أن يشرح مذهبه فقال: (إن الابن ليس مساوياً للآب في الأزلية، وليس من جوهره وقد كان الآب في الأصل وحيداً، فأخرج الابن من العدم بإرادته، والآب لا يمكن أن يراه أو يكيفه أحد، ولا حتى الابن، لأن الذي له بداية لا يعرف الأزلي)[3].

(١) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/١٥١.

(٢) الروم، أسد رستم: ١/٥٦.

(٣) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/١٥٤.

قال آريوس هذا بوضوح وصراحة أمام مؤيديه، ومخالفيه من رجالات الكنيسة، وأمام الإمبراطور نفسه، رغم أن هذه الآراء لم تُرض الإمبراطور إلاَّ أنه لم يستطع الرد عليها، لقلة علمه بالنصرانية أصلاً، عندئذ يأتي دور المنافقين الذين يعيشون دائماً على فتات موائد السلاطين لينتصروا لرأي السلطان، ولو كان باطلاً حتى لو كان ذلك على حساب دينهم.

يقول زكي شنودة: فتصدى له (أثناسيوس) رئيس شمامسة الإسكندرية، ودارت بينهما هذه المناظرة[1]:

آريوس: إن سليمان الحكيم تكلم بلسان المسيح قائلاً (خلقني أول طرقة).

أثناسيوس: معنى خلقني هنا ولدني.

آريوس: إن الابن قال (أبي أعظم مني)[2]، فالابن إذن أصغر من الأب ولا يساويه في الجوهر.

أثناسيوس: إن الابن دون الأب لكنه تجسد.. أي أنه بناسوته يمضي إلى الأب الذي هو أعظم من ناسوت الابن، وإلاَّ كيف يتكلم بلاهوته! إنه يمضي إلى الأب حال كونه في حضن الأب.

آريوس: إن المسيح نسب ذاته لعدم معرفة ساعة الدينونة بقوله لتلاميذه: (أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفها أحد، ولا ملائكة السماوات ولا الابن إلاَّ الآب وحده)[3].

فإذا كان الابن لا يعرف وقت الدينونة فكيف يكون إلّهاً؟

أثناسيوس: إن المسيح قال ذلك لتلاميذه لئلا يسألوه عن هذا السر الذي لا يجوز لهم أن يطلعوا عليه.

---

(١) نفس المرجع: ١/١٥٥ ــ ١٥٦.

(٢) يوحنا: ١٤/٢٨.

(٣) متى: ٢٤/٣٦.

آريوس: إن المسيح قال: (أنا لا أقدر أن أصنع مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني)[1]، فهو إذن عبد للآب ودونه.

أثناسيوس: إن المسيح تكلم من مواضيع كثيرة بحسب كونه إلّهاً صار إنساناً كقوله: (إلّهي إلّهي لماذا تركتني)[2].

(إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلّهي وإلّهكم)[3].

وبصفته إلّهاً كقوله: (من رآني فقد رآى الذي أرسلني)[4].

وقوله: (أنا في الآب والآب فيّ)[5].

* * *

هذه مقتطفات من المناظرة التي دارت بين (آريوس) وبين (أثناسيوس) رئيس شمامسة الإسكندرية، ويصفه (ول ديورانت) بأنه البليغ المشاكس الذي جاء به (ألكسندر) بطريرك الإسكندرية ليقطع لسان معارضيه[6].

ولا شك أنها مقتطفات مبتورة، ولا بد أنها تعرضت لشيء من التزوير، لأنها وصلت إلينا عن طريق مؤرخين مسيحيين معارضين لآريوس.

ومع هذا فإن قوة المنطق تبرز من خلال كلام (آريوس)، ولذلك فإن صاحب قصة الحضارة يشهد لإجابات (آريوس) بأنها (منطقية صريحة قاطعة، وقد سلم (أثناسيوس) بما في تصوير أشخاص ثلاثة في صورة إلّه واحد من صعوبة، ولكنه قال بأن العقل يجب أن يخضع لما في الثالوث من خفاء وغموض)[7].

---

(١) يوحنا: ٤/٣٤.

(٢) متى: ٢٧/٤٦.

(٣) يوحنا: ٢٠/١٧.

(٤) يوحنا: ١٢/٤٥.

(٥) يوحنا: ١٧/٢١.

(٦) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٣٩٥.

(٧) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٣٩٥.

ومن خلال هذه المناظرة، وما أسلفنا من بيان عقيدة آريوس، نستطيع أن نحدد عناصر عقيدته بالأركان التالية:

١ ــ وحدانية الله تعالى بذاته وصفاته.

٢ ــ الله تعالى أزلي لا بداية له.

٣ ــ احتياج الله إلى وسيط ليخلق العالم.

٤ ــ الوسيط هو المسيح (الابن) فهو مخلوق غير أزلي غير مساوٍ للآب في الجوهر وبذلك أنكر ألوهية المسيح.

٥ ــ الابن عبد الآب ودونه لا يعرف وقت الدينونة.

وتكاد هذه العناصر بعقيدة آريوس تشابه نظرة الإسلام لشخصية المسيح عليه السلام، والعقيدة في الله تعالى.. ولكنها تخالف الإسلام بمسألة الوسيط الذي احتاج الله إليه ليشاركه في الخلق، والإسلام نزَّه الله تعالى عن الشريك.

مقاومة رجال الكنيسة لآريوس:

بدأت مقاومة (آريوس) من قبل رئيس كنيسة (ألكسندروس) يقول أسد رستم: (وعلم (ألكسندروس) بما علم آريوس ومنعه عما كان يعلم به)[1].

لكن آريوس استمر بدعوته نشيطاً، واستطاع أن يكسب أعداداً كبيرة من رجال الدين، وكثر مؤيدوه من الأساقفة خارج مصر (وبين هؤلاء أساقفة كل من: نيقوميدية قيصرية فلسطين، بيسان، اللد، صور، بيروت، اللاذقية، عين زرية في قلقيلية)[2].

وتبعه عدد كبير من غير الأساقفة، وكان هذا التأييد دافعاً قوياً لآريوس للاستمرار بدعوته وحركته.

وعندما رفض (آريوس) أوامر سيده (ألكسندروس) الذي نهاه عن أقواله (استدعى أسقف الإسكندرية بعض الأساقفة وألفوا مجمعاً حرموا فيه (آريوس)

---

(١) كنيسة مدينة الله، د. أسد رستم: ١/١٩٣.

(٢) نفس المرجع: ص ١٩٤.

ومذهبه، فقام آريوس وجمع مجمعاً حضره كثير من الأساقفة أثبت فيه مذهبه وحرم من خالفه)[1].

لكن يبدو من كلام (أسد رستم) أن آريوس لم يتمكن من عقد مجمعه في الإسكندرية، لأن ألكسندروس تمكَّن من نفيه، ونفي أسقفين وستة قساوسة وستة شمامسة معه، فقصد قيصرية فلسطين، وكان أسقفها (أفسابيوس المؤرخ) يؤيد مذهب (آريوس) لكنه لا يجاهر به، ثم ذهب آريوس إلى نيقوميدية، وأقنع أسقفها برأيه، فعقد مجمعاً محلياً اتخذ فيه قراراً بوجوب قبول (آريوس) وجماعته ووجوب الكتابة إلى (ألكسندروس) ليرفع عنهم الحرمان، وكلف المجمع (آريوس) أن يكتب ذلك، فكتب رسالة دعاها(التالية) ضمنها آراءه في الثالوث فراجت رواجاً ملموساً)[2].

وبعثوا الكتاب إلى أسقف الإسكندرية (لكنه رفض ذلك فاجتمع بعض الأساقفة الأنطاكيّين في قيصرية فلسطين، ومنحوا آريوس وجماعته حق الرجوع إلى ممارسة الأسرار)[3].

وهذا يدل على الرواج السريع الذي لاقته فكرة آريوس بين الأوساط المسيحية التي لا زالت ليومها لم تنحرف كثيراً عن التوحيد.

ومع هذا الرواج الملموس لم تعد القضية خلافاً بين آريوس وألكسندروس فحسب، بل باتت مشكلة خلافية تهدد أمن الإمبراطورية الرومانية وسلطة الكنيسة.

إن أفكار (آريوس) أدت إلى انقسام رجال الدين إلى فريق مؤيد له ولأفكاره التوحيدية، وفريق مؤيد لألكسندروس وآرائه المؤلهة واحتدم الصراع، (وترددت في المدائن أصداء الضجيج، والاضطرابات حتى كان المسيحي كما يقول

(١) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ١٠/٢٠٣.
(٢) كنيسة مدينة الله، د. أسد رستم: ١/١٩٤ ــ ١٩٥.
(٣) نفس المرجع: ١/١٩٦.

(يوسيبوس): موضع السخرية الدنسة من الوثنيين حتى في دور التمثيل نفسها)[1].

وكان هذا الخلاف موضع اهتمام الإمبراطور (قسطنطين)، الذي كان يهمه بالدرجة الأولى أمن دولته واستقرارها. وهو الذي اعتنق النصرانية أصلاً لهذا الغرض، كما يميل كثير من المؤرخين. فهيَّأ الأمور لعقد مؤتمر ديني كبير يضم رجال الدين من كافة أنحاء الدولة فكان (مجمع نيقية سنة ٣٢٥م).

وقد حاول الإمبراطور من قبل إنهاء الخلاف، فبعث إلى كل من (ألكسندروس) و(آريوس) بوجوب التآلف ونبذ الخصام، وكما يقول أسد رستم: (فإن الإمبراطور ألمح في كتبه إلى وجوب طاعة الرئيس، وأشار إلى أن الاختلاف العقائدي أمر فلسفي دقيق لا يستوجب ذلك الاهتمام)[2].

وبذلك يصرح الإمبراطور قسطنطين أن الأمور الدينية أمور فلسفية دقيقة لا أهمية لها.

وقد عقد الإمبراطور (مجمع نيقية سنة ٣٢٥م) بناء على اقتراح تقدم به (هوسيوس) أسقف إسبانيا الذي أرسله الإمبراطور لحل القضية في الإسكندرية بين آريوس ورئيسه، فلم يفلح)[3].

وجَّه الإمبراطور الدعوة إلى جميع الأساقفة في الدولة الرومانية، وعيَّن نيقية مركز الاجتماع.

أما عن عدد الذين حضروا هذا المجمع فتختلف الروايات التاريخية في ذلك، فصاحب (قصة الحضارة) يذكر أن عدد الأساقفة لا يقل عن (٣١٨) أسقفاً يصحبهم حشد كبير من رجال الدين الأقل منهم درجة)[4].

وصاحب (تاريخ الأقباط) يذكر أنه قد حضر (٣١٨) أسقفاً من كل أنحاء

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٣٩٣.

(٢) الروم، أسد رستم: ١/٥٧.

(٣) نفس المرجع: ص ٥٧.

(٤) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٣٩٤.

العالم المسيحي، وفي مقدمتهم البابا (ألكسندروس بطريرك الإسكندرية) وبصحبته أثناسيوس رئيس شمامسته، وأسقف إنطاكية، وأسقف قيصرية فلسطين، وأسقف القدس وحضر مع آريوس أتباعه أساقفة نيقوميدية، ونيقية، وفلقيدونية، ومعهم عدد من المفكرين والفلاسفة، وقد بلغ مجموع الحاضرين نحو الألفين)[1].

أما المؤرخ أسد رستم فيذكر عدة روايات في عدد المجتمعين (فهم مائتان وسبعون في رواية (أفستاتيوس) أسقف أنطاكية، وثلاثمائة في عرف أثناسيوس الإسكندري)[2].

كما يذكر في كتابه الروم: (أنهم ثلاثمائة وثمانية عشر في رواية القديس هيلاريوس)[3].

ويقول المؤرخ المسيحي ابن البطريق: (بعث الملك قسطنطين، فجمع البطاركة والأساقفة فاجتمع في نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة)[4].

ويظهر لنا من مجموع هذه الروايات أن عدد المجتمعين كان يزيد على الألفين من رجال الدين من البطاركة والقساوسة وغيرهم.

افتتاح المؤتمر:

يذكر الدكتور أسد رستم أن المجمع افتتح في العشرين من أيار سنة ٣٢٥م ودامت جلساته سبعة وتسعين يوماً[5].

واجتمع تحت رياسة (قسطنطين)، وافتتح هو المناقشات، كما يرجح ذلك صاحب (قصة الحضارة)[6].

---

(١) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١٥٤/١.
(٢) كنيسة مدينة الله، أسد رستم: ١٩٩/١.
(٣) الروم، أسد رستم: ٥٧/١.
(٤) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٣٨، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ، مطبعة المدني ـ القاهرة.
(٥) الروم، أسد رستم: ٥٧/١.
(٦) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٩٤/١١.

وذهب كثير من المؤرخين إلى أن الإمبراطور تدخل في قضايا النقاش وكان يفرض رأيه أحياناً، وقد نقل ذلك (أسد رستم) عن المؤرخ (أفسابيوس) حيث يقول: (إن الإمبراطور تدخل مراراً في البحث لإقرار السلم والوفاق) كما نقل قول (روفينوس): (إن بعض الفلاسفة الوثنيين حضروا الجلسات وناقشوا الأساقفة)[1].

مع أن أسد رستم المؤرخ المسيحي الذي يعتبر مؤرخ كنيسة أنطاكية لا تعجبه هذه الآراء، ويقول بأن رجال الاختصاص يردون هذين القولين)[2].

لكن السرد التاريخي المجرد لأحداث المؤتمر تبين لنا اهتمام الإمبراطور بما كان يدور فيه من نقاش، وأنه استعمل سلطانه كإمبراطور لفرض الآراء المؤلهة التي دافع عنها الفلاسفة الوثنيون، والتي تعتبر أقرب إلى عقيدته الوثنية.

كما أن جو الرعب والخوف من السلطان كان يخيِّم على هذا المؤتمر لأن الإمبراطور منذ دخوله المؤتمر أعطى جوّ الهيبة هذا، ويصف لنا الأستاذ (رستم) المجتمعين وهم ينتظرون وصول الإمبراطور منصتين، ثم أعطيت الإشارة بوصوله، فانتصبوا إحرام وإجلالاً، ودخل (قسطنطين) بالأرجوان والذهب ووراءه بعض الحاشية)[3].

ورغم اختلاف الروايات التاريخية في عدد الأساقفة الذين أيدوا آريوس، إلاَّ أننا لو صدَّقنا بعض المؤرخين المسيحيين القائلين بأنه لم يؤيد (آريوس) سوى عشرين أسقفاً كما يقول (أسد رستم)[4] وسبعة عشر أسقفاً كما يقول (ول ديورانت)[5].

فإننا لا نعتبر ذلك دليلاً على أن جميع الأساقفة قد أيدوا التثليث، ودافعوا عنه، لأن العامل الأساسي لموقفهم هذا خوفهم من سلطان الإمبراطور، ويؤيد هذا

---

(١) كنيسة مدينة الله، أسد رستم: ١/ ٢٠١.
(٢) نفس المرجع: ١/ ٢٠١.
(٣) نفس المرجع: ١/ ٢٠٠.
(٤) الروم، أسد رستم: ١/ ٥٨.
(٥) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٣٩٥.

ما أورده (ول ديورانت) (بأن خمسة من الأساقفة قد رفضوا التوقيع على الصيغة التي خرج بها المجمع، نقصوا آخر الأمر إلى اثنين)[1].

والسبب واضح هو الخوف من بطش الإمبراطور، ومما لا شك فيه أننا لا نتوقع من جميع المخالفين أن يصبروا، ويضحوا بأنفسهم في سبيل ما يعلمون صحته، وقليلون هم أولئك الناس الذين يزهدون بالحياة في سبيل عقيدتهم.

على أن ما يرويه المؤرخ (ابن البطريق)، يختلف تماماً عن هذه الروايات، فهو يتحدث طويلاً عن هذا المؤتمر، ويصف أحوال المجتمعين وآراءهم فيقول: (إن منهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلٰهان من دون الله. ومنهم من كان يقول إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار، انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، ومنهم من كان يقول: إن مريم لم تحبل به تسعة شهور، وإنما مرَّ في بطنها كما يمرّ الماء في الميزاب، ومنهم من كان يقول: إن المسيح قد خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلٰهية، وحلّت فيه المحبة والمشيئة، ولذلك سمي (ابن الله)... ومنهم من كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تزل صالح وطالح وعدل بينهما، ومنهم من كان يقول: بألوهية المسيح وهي مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً)[2].

ولقد سمع الإمبراطور كل هذه الآراء بالإضافة إلى رأي (آريوس) وأتباعه.

وعالج القضية من وجهتين:

الأولى: أن همَّه الرئيسي إزالة الخلاف الذي يهدد أمن الإمبراطورية.

الثانية: إرضاء غالبية شعب الإمبراطورية من الوثنيين إضافة إلى أن فكره لا يزال وثنياً.

---

(١) نفس المرجع: ص ٣٩٦.

(٢) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٣٨.

وبناء على ذلك فقد رجح رأي الذين يقولون بألوهية المسيح، فصمم على أن ينجح هذا الرأي، وينتشر، وهو صاحب السلطة، فرأى بذكائه وحنكته أن يعقد مؤتمراً خاصاً للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأي، وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة، وهذا ما قاله مؤرخهم (ابن البطريق) حيث يقول:

(وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس في وسطه، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه، فدفعها إليهم وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية. .)[1].

وخرج هذا المجمع بعدة قرارات كان منها قرار (تأليه المسيح)، أو ما سمي فيما بعد (وثيقة الأمانة) أو (قانون الإيمان النيقاوي).

على أن نص قانون الإيمان المعروف عند النصارى اليوم لم يكن كله في مؤتمر نيقية، فقد تتابعت مجامع أخرى أضافت له نصوصاً. والتثليث لم يكتمل بشكله الحالي إلاَّ في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م وسيأتي ذكره إن شاء الله حيث كان فيه تأليه الروح القدس.

أما قرار مجمع نيقية، فهذا نصه كما أورده (الدكتور أسد رستم):

(نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل، خالق كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، مولود من الآب أي من جوهر الآب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق مساو للآب في الجوهر الذي به كان كل شيء ما في السماء وما في الأرض، الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل، وتجسد، وتأنس، وتألم، وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وسيجيء ليدين الأحياء والأموات وبالروح القدس)[2].

وأقر هذا القانون وفرض على النصارى، رغم أن الذين وافقوا عليه ـ إرضاء

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٣٩.

(٢) كنيسة مدينة الله، أسد رستم: ١/٢٠٣.

للسلطان ـ ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، من مجموع ألفين وثمانية وأربعين كما هي رواية ابن البطريق.

ولنا أن نتساءل.. ماذا كان رأي الذين لم يؤخذ رأيهم؟ (على أن الرواة يقولون: إن آريوس لما اجتمع بهم، وألقى دعوته ونحلته إليهم انضم إلى رأيه من تلك النحل المختلفة)[1].

وبذلك حقق الإمبراطور هدفه في التقريب بين النصرانية والوثنية وفي ذلك توحيد للأمة الرومانية كلها، وهذا ما يسعى إليه الإمبراطور.

أما مصير المعارضين بعد ذلك فيكفي أنهم أصبحوا أعداء الدولة بعد أن كانوا فقط أعداء رجال الكنيسة.

لذلك، فإن (قسطنطين) طلب من المجلس الحكم على آريوس وعلى الأسقفين اللذين رفضا التوقيع على صيغة الأمانة، (فحكم المجلس على هذين الأسقفين وعلى آريوس الذي لم يتزحزح عن عقيدته أو يتوب، حكم عليهم باللعنة والحرمان، ونفاهم الإمبراطور من البلاد، وصدر مرسوم إمبراطوري يأمر بحرق كتب (آريوس) جميعها، ويجعل إخفاء أي كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام)[2]. شأن الطغاة في كل عصر، يلجأون إلى القوة والبطش حين يعجزون عن مواجهة الحق بالمنطق والحجّة.

واستعمل الإمبراطور كل ما يملك من وسائل القمع والإرهاب ضد الآريوسيين، وأتلف كتبهم ومنع تداولها حتى لا يطلع الناس على ما يمليه عليهم رجال الدين المنحرفون.

ورغم كل هذا فلقد بقي (آريوس) وأتباعه صامدين على عقيدتهم لم ترهبهم قوّة السلطان، مع أننا لا ننكر أن لهذا المجمع أثراً عظيماً في تثبيت قواعد عقيدة التثليث.

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٤٠.
(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٣٩٦.

يقول المؤرخ (ول ديورانت): (ولكن الإمبراطور أخطأ إذ ظن أن النزاع قد وقف عند هذا الحد، غير أنه كان على حق حين اعتقد أنه خطا خطوة كبيرة في سبيل وحدة الكنيسة. . وكانت الكنيسة الكاثوليكية، وكانت في الوقت نفسه إيذاناً باستبدال المسيحية بالوثنية وجعلها المظهر الديني والعنصر القوي للإمبراطورية الرومانية)[1].

وبعد سنين متواصلة من مطاردة الأريوسيين، كان لآريوس فيها مؤيدون كثيرون منهم أساقفة كنائس (تمكن الأسقف الأريوسي (يوسيبيوس) أسقف قيصرية فلسطين من إقناع الإمبراطور أنه لا فرق بين إيمان آريوس وإيمان المجمع، فأعاد الإمبراطور آريوس من منفاه وأرسله سنة ٣٣٠م إلى الإسكندرية)[2].

ويذكر ابن البطريق أن (يوسابيوس) استطاع أن يتقرب إلى الإمبراطور حتى جعله بطريرك القسطنطينية، فما أن ولي هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية في الخفاء، فلما اجتمع المجلس الإقليمي في صور، وحضره هو وبطريرك الإسكندرية الذي كان يمثل فكرة ألوهية المسيح ويدعو لها. . انتهز (يوسابيوس) فرصة ذلك الاجتماع، وأثار مقالة آريوس، وكان في ذلك المجمع كثير من الموحدين. . فاشتد النقاش بين رئيس كنيسة الإسكندرية وبين المجتمعين، ولم يكتفوا بالنقاش القولي، بل ضربوه حتى أدموه وكادوا أن يقتلوه)[3].

وهذا يبين لنا مدى حماسة الموحدين من المسيحيين، ونشاطهم في دعوتهم، وفيه إشارة إلى أن معظم المسيحيين في ذلك العصر كانوا من الموحدين، لأن التوحيد هو الأصل، وفكرة التثليث وألوهية المسيح حديثة عهد بهم، تبنتها ودافعت عنها كنيسة الإسكندرية المتأثرة بالمدرسة الأفلوطينيّة الحديثة التي كانت أفكارها تسيطر على الإسكندرية في ذلك الوقت، وكانت تؤمن بنظرية التثليث الفلسفية التي تحدثنا عنها من قبل.

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٩٦/١١.

(٢) الروم، أسد رستم: ٦١/١.

(٣) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٤٣.

يقول ابن البطريق: (في ذلك العصر غلبت مقالة آريوس على القسطنطينية وأنطاكية وبابل)، ويقول: بأن الأريوسيين تغلبوا على كنائس مصر والإسكندرية ووثبوا على (أثناسيوس) بطريرك الإسكندرية (الذي كان رئيس شمامسة ألكسندروس) ليقتلوه، فهرب منهم واختفى، وكذلك وثب أهل بيت المقدس ومن كان منهم أريوسياً على (كوريس) أسقف بيت المقدس ليقتلوه فهرب منهم، فصيَّروا (أراقليوس) أسقفاً على بيت المقدس وكان أريوسيا)[١].

وفاة آريوس:

(أما (آريوس) نفسه فقد عفا عنه الإمبراطور بعد النفي الطويل، وعاد إلى الإسكندرية فاستقبله الناس باحتفال عظيم، وحملوه على أكفهم، فمات فجأة وسط هذا الفرح العظيم، فاتخذ خصومه ذلك حجة على أنه مبطل)[٢].

ويذكر محمد فريد وجدي: (أن القضية فيما بعد أصبحت بين الكنائس الغربية والشرقية، حيث غلب على الغربية طابع التأليه، وعلى الشرقية طابع التوحيد، وعقدت كل من الكنيستين مجامع محلية حرمت بها الأخرى)[٣].

وبعد هذا الحديث عن (مجمع نيقية) ونتائجه، نود الإشارة إلى بقية المجامع المسيحية التي تلت هذا المجمع، نتبين من خلالها أسباب انعقاد هذه المجامع وخطورتها على عقيدة التوحيد، لأن هذه المجامع هي مصدر الانحراف الأساسي، فما من عقيدة يؤمن بها النصارى اليوم إلاَّ وقد أقرَّت في أحد هذه المجامع وما من انحراف حدث إلاَّ بموافقة أحدها عليه.

وما من مضايقة على الموحدين إلاَّ وقد أقرَّت من قبل في مجمع منها.

ولقد كانت هذه المجامع تستعمل أداة بيد السلطان، أو رجال الدين لضرب الحركات التصيحيحية في المسيحية.. فهي التي أمدَّت في عمر التثليث، وسيظهر

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٤٥.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ١٠/٢٠٣.

(٣) انظر المرجع السابق: ص ٢٠٤.

لنا من خلال هذه النظرة السريعة لهذه المجامع وفي المجمع الثاني (القسطنطينية سنة ٣٨١م) ألهوا روح القدس، وفي المجمع الثالث (أفسس الأول سنة ٤٣١م) تم تأليه مريم العذراء باعتبارها والدة الإلّه، كما أن أحد هذه المجامع (مجمع رومة سنة ١٨٦٩) قرر عصمة البابا، وغيره منح الكنيسة حق الغفران والحرمان، وسنقتصر على أهم هذه المجامع وهي:

مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م:

يقول صاحب (تاريخ الأقباط): (كان الغرض من عقد هذا المجمع (محاكمة أصحاب البدع ومنهم (مقدونيوس) و(يوسابيوس) و(أبوليناريوس)، وكان الأول أسقفاً أقامه الأريوسيون على القسطنطينية سنة ٣٤٣م ثم عزل سنة ٣٦٠م، لمناداته ببدعة جديدة هي (إنكار لاهوت الروح القدس)، إذ قال بأنه مخلوق كسائر المخلوقات، وقد ناقشه المجمع وحرمه وأسقطه من رتبة الأسقفية. وكان الثاني ينكر وجود الثلاثة أقانيم، ويقول: إن الثالوث ذات واحدة وأقنوم واحد، فناقشه المجمع ثم قطعه وأسقطه من رتبته. وكان الثالث أسقفاً على اللاذقية والشام، وقد أنكر وجود النفس البشرية في المسيح، واعتقد أن لاهوته قام مقام الروح الجسدية في احتمال الآلام والموت، وقال بتفاوت العظمة بين الأقانيم، فالآب أعظم من الابن والابن أعظم من روح القدس. وقد حكم المجمع بحرمه وإسقاطه من رتبته. ثم وضع المجمع تكملة لقانون الإيمان الذي وضعه (مجمع نيقية)، ابتدأت التكملة بعبارة: (ونؤمن بالروح القدس الرب المحيي المميت)، وتنتهي بعبارة: (وحياة الدهر الآتي آمين)[1].

ويعتبر هذا المجمع من المجامع المهمة عند النصارى لأنه كان مكملاً لمجمع نيقية، ووثيقة الإيمان التي تؤمن بها الكنائس اليوم وضعت في المجمعين كما قلنا، حيث أقرَّ هذا المجمع ألوهية روح القدس ليتم الثالوث.

ويقول ابن البطريق في بيان قرارهم: (زادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة

---

(١) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/١٧٦.

والثمانية عشر أسقفاً الذين اجتمعوا في نيقية: الإيمان بروح القدس الـرب المحيـي المنبثق من الآب الـذي هو مـع الآب والابن مسجـود لـه وممجـد، وثبَّتـوا أن الآب والابن والروح القدس ثلاثة أقـانيم وثلاثـة وجوه وثـلاث خواص، وحـديَّة في تثليث وتثليث في وحديَّة)[1].

وتلاحظ في هذا المجمع أسلوب القطع والحرمان لكـل مخالف، وهـذا يشير إلى السيـاسة التي اتخـذتها الكنيسـة ضد مخـالفيها حتى استـطاعت أن تثبت أركان عقيدة التثليث الغريبة.

مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م:

الغرض من عقد هذا المجمع كما يقول صـاحب (تاريـخ الأقباط): (محاكمة أصحـاب البدع التي ظهـرت في ذلك الحين ومنهم (بيـلاجيوس) و(نسـطور)، أمـا الأول: فيعتقد أن خطيئة آدم قاصـرة عليه، وبـذلك أنكـر قضية الخـلاص والفداء، فناقشه المجمع ثم قطعه وأسقطه من رتبته.

وأما (نسطور) فقد كان أسقفاً على القسطنطينية، وما لبث أن نادى بـأن طبيعة المسيح اللاهوتية منفصلة عن طبيعتـه الناسـوتية.. ورغم أن نسـطور قد حضـر إلى المجمع ومعه أربعون أسقفاً من أتباعه إلاَّ أن المجمع حرمه وأسقطه من رتبتـه وفرزه من كل خدمة كنسية)[2].

و(نسطور) وإن كان يعتقد أن المسيح فوق البشر إلاَّ أنه أنكر ألوهيته وقد جاء في تـاريخ الأمـة القبطيـة عن نحلته مـا نصَّه: (أمـا هـرطقـة نسـطور هـذه فلم تكن كغيـرها، نشـأت عن اختلاف في العقـائـد التي وضعهـا الآبـاء والأحبـار، بـل هي جـوهريـة، ذلك أن نسـطور ذهب إلى أنَّ ربنا يسـوع المسيح لم يكن إلَـهـاً في حـدِّ

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٤٩.

(٢) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/١٧٧.

ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو ملهم من الله لم يرتكب خطيئة)[1].

أما أهم قرارات المجمع، فهو تأليه مريم العذراء، وذلك رداً على (نسطور) الذي قال بأن مريم لم تلد الإآله.

(وقد بلغ عدد أعضائه نحو مائتين من الأساقفة، وقرروا كما ذكر ابن البطريق: (أن مريم العذراء والدة الله، وأن المسيح إآله حق وإنسان، معروف بطبيعتين متوحد في الأقنوم)[2].

ومع نفي (نسطور) وطرده فقد انتشر مذهبه، يقول ابن البطريق: (تكاثرت النسطورية في المشرق والعراق والموصل والفرات والجزيرة)[3].

وطبيعي أن ينتشر هذا المذهب، لأن الناس في ذلك الوقت لم يكونوا على اقتناع بألوهية المسيح.

مجمع أفسس الثاني سنة ٤٤٩م:

(حكم ببراءة (أوطاخي) الذي كان رئيساً لدير بالقرب من القسطنطينية، تطرف في تعبيره في مجال الجدال مع الأريوسيين، فحكم عليه أسقف القسطنطينية بقطعه في مجمع مكاني، فعقد هذا المجمع استئنافاً للحكم، فحكم ببراءته بعد اعترافه بتمسكه بالإيمان النيقاوي)[4].

وأهم ما نلمسه من هذا المجمع أن رجال الكنيسة المؤيدين للتثليث يقفون بالمرصاد لحرمان كل مخالف، وبذلك انتشرت آراؤهم بالقوة والرهبة.

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٥٠.
(٢) نفس المرجع: ص ١٥١.
(٣) نفس المرجع: ص ١٥١.
(٤) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/ ١٧٨.

مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م:

يعتبر هذا المجمع من المجامع المهمة في تاريخ المسيحية، ذلك لأن موضوعه في صلب العقيدة، فهو يتعلق بطبيعة السيد المسيح عليه السلام، وقد كان هذا المجمع حاداً، فقد تعددت فيه الآراء والاختلافات، وقد طرد منه بطريرك الإسكندرية (ديسقورس) بالقوَّة، فكان هذا المجمع أساس الانشقاق بين الكنائس إلى يومنا هذا.

وقد حضره كما يروي صاحب (تاريخ الأقباط) أساقفة روما، وحضره البابا (ديسقورس) بطريرك الإسكندرية ومعه أساقفته، وقد اشتد الخلاف بين الفريقين في اليوم الأول، حتى إذا كان اليوم الثاني منع (ديسقورس) وأساقفته بالقوَّة من حضور الجلسة، واجتمع أساقفة روما مع بعض أساقفة المشرق، وحكموا بعزل (ديسقورس) ونفيه، ونادوا بعقيدة الطبيعيتين والمشيئتين مخالفين بذلك قانون الإيمان.. وقد رفض (ديسقورس) أمر الإمبراطور (مريكان المتوفى سنة ٤٥٩م) فأمر بنفيه، ومات، وظلت الكنيسة القبطية محافظة على الإيمان الذي استشهد في سبيله، لذلك فإن الكنيسة القبطية لا تعترف بهذا المجمع ولا بقراراته)[١].

وأصدر هذا المجمع بياناً يذكره (ابن البطريق) بقوله: (قالوا إن مريم العذراء ولدت إلّهنا، ربنا يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلّهية، ومع الناسوت في الطبيعة الإنسانية، وشهدوا أن: المسيح له طبيعتان، وأقنوم واحد، ولعنوا (نسطور) و (ديسقورس) ومن يقول بمقالته ونفوه، ولعنوا المجمع الثاني الذي كان بأفسس ونفي ديسقورس إلى فلسطين)[٢].

فهذا المجمع الذي يعتبر رأي أساقفة روما أو ما سمي بالكنيسة الغربية يؤمن بأن للمسيح طبيعتين: إنسانية وإلّهية (وهو بذلك يخالف (نسطور) الذي قال: بأن الأقنوم الابن عنصر إنساني فقط، ويخالف قرار المجمع الثاني في أفسس، الذي

---

(١) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/١٧٩.

(٢) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٥٣.

قال: إن المسيح طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتي من الروح القدس فصار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة)[١].

لقد كان هذا المجمع كما قلنا سبباً في انشقاق الكنيسة القبطية عن كنيسة روما، وينقل لنا الشيخ محمد أبو زهرة ــ رحمه الله ــ سبب ذلك عن صاحبة كتاب (تاريخ الأمة القبطية): التي تقول: (لما طرق مسامع المصريين ما لحق ببطريركهم من الحرمان والعزل، هاجوا وغضبوا واتفقوا على عدم الاعتراف بقرار المجمع الذي أصدر هذا الحكم.. وأعلنوا أن إيمان بطريركهم هو إيمانهم، ولو خالفه جميع أباطرة القسطنطينية وبطاركة روما)[٢].

ما الذي حدث بعد ذلك؟ (نشأ الخلاف وصار في ربوع الدولة الرومانية دعاة للمذهب المصري، ودعاة لمذهب روما، أو المذهب الملكي، كما سماه العرب من بعد، وقد استشهد من دعاة المذهب المصري (يعقوب البرادعي) وقد كان نشيطاً في دعوته، يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية، حتى أطلق على هذا المذهب الذي يقول بأن للمسيح طبيعة واحدة باليعقوبية)[٣].

ومن المعلوم أن هناك مجامع كثيرة عقدها النصارى غير التي ذكرناها، وقد ذكر صاحب كتاب (سوسنة سليمان) أنه قد أحصى المجامع العامة من القرون الأولى للمسيحية حتى سنة ١٨٦٩م فكانت عشرين مجمعاً)[٤].

وكان آخر مجمع مسكوني (عام) عقده النصارى سنة ١٩٦٤م وهو الذي أقروا فيه وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح.

لا نريد استقصاء هذه المجامع، واقتصرنا على المجامع الأولى المهمة، وكان يهمنا المجامع التي ناقشت قضية التثليث أو طبيعة المسيح.

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٥٤.
(٢) نفس المرجع: ص ١٥٤.
(٣) نفس المرجع: ص ١٥٥.
(٤) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٢٣.

وقد رأينا موضوع الخلاف الشديد حول عقائد النصارى الأساسية وأسلوب الكنائس في الرد على مخالفيها. . . ورأينا كيف أن هذه المجامع كان يلعن بعضها بعضاً أحياناً.

ودراستنا لهذه المجامع ما كانت إلاّ لنثبت مدى خطورتها في إقرار العقائد الفاسدة، أو نرى موقف رجال الكنيسة السلبي من عقيدة التوحيد، فكان هذا الموقف أهم أسباب انحراف النصرانية عن التوحيد.

استمرار الحركة الآريوسية:

رغم استمرار الحركة الآريوسية بعد موت آريوس إلاّ أن الكنيسة الكاثوليكية وهي ربيبة الدولة والناطقة باسمها، استطاعت فيما بعد أن تقضي على هذه الحركة، واستطاعت أن تعمم أفكارها المنحرفة على الناس، حتى نسي النصارى التوحيد واعتقدوا أن التثليث عقيدة أصلية في النصرانية، ولنا أن نتساءل عن مصير الآريوسية، كيف انتهت هذه الحركة؟ ومتى كان ذلك؟

ولدى مراجعة المصادر التاريخية نجد أن تاريخ الآريوسية، أصبح مجهولاً بعد القرن الرابع الميلادي حيث سيطرت الكاثوليكية، فاضطر معظم الأريوسيين إلى التستر والظهور بأنهم من الكاثوليك، وبقي هذا الاضطهاد الشديد من الكاثوليكية لكل من يظهر أفكاراً آريوسية حتى فاجأتهم الفتوحات الإسلامية. فماذا كان موقف الإسلام من الآريوسية؟

إننا لا نجد في التاريخ الإسلامي الحديث عن هذه الحركة، لأن معظم هؤلاء على ما يبدو دخلوا في الإسلام، وقد كانوا عوناً للفاتحين لأنهم وجدوا فيهم خلاصاً من ظلم الكنيسة الكاثوليكية.

ومن المعلوم لدينا أن رسول الله ﷺ قد كتب لجميع الملوك المعاصرين له كتباً يدعوهم فيها للإسلام، وكان ممن كتب لهم (هرقل) ملك الروم، وكان نصرانياً من علماء النصرانية، وقد ورد كتاب رسول الله ﷺ إلى (هرقل) في صحيح البخاري في حديث طويل، كان استفساراً من هرقل لأبي سفيان عن محمد ﷺ

ودعوته وفي هذا الحديث: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به (دحية) إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدىٰ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسين)[1]، وفي رواية صاحب الفتح بلفظ (الأريسيين)[2].

ونريد الآن أن نعرف معنى كلمة: (الأريسيين أو اليريسين) الواردة في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم.

يقول الحافظ ابن حجر في الفتح: (قوله: (الأريسيين) جمع أريسي وهو منسوب إلى أريس بوزن فعيل، وقد تقلب همزته ياء كما جاءت به رواية أبي ذر والأصيلي وغيرهما. قال ابن سيِّده: الأريسي: الأكّار أي الفلاح (عند ثعلب)، وعند كراع: الأريسي هو الأمير. قال الجوهري: هي لغة شامية، وأنكر ابن فارس أن تكون عربية.

ويرجح ابن حجر أنها بمعنى: الأكارين أي الفلاحين. مستدلاً برواية مرسلة (فإن عليك إثم الفلاحين).

وقال الخطابي: إنما أراد: إنما عليك إثم الضعفاء والأتباع إذا لم يسلموا تقليداً له.

وقد ورد تفسير الأريسيين بمعنى آخر، فقال الليث بن سعد عن يونس فيما رواه الطبراني في الكبير من طريقه: الأريسيون: العشارون، يعني أهل المكس.

لكن ابن حجر يرجح الرأي الأول بقوله: (والأول أظهر)[3].

---

(١) صحيح البخاري: ١/٦. (باب بدء الوحي) طبعة دار الفكر العربي للطباع والنشر ـ عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول.

(٢) فتح الباري، ابن حجر: ١/٤٢. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٧٨هـ.

(٣) فتح الباري بشرح البخاري، ابن حجر العسقلاني: ١/٤٢ ـ ٤٣.

أما ابن الأثير في (النهاية): فقد أورد ألفاظ (الأريسيين) ومعانيها فقال: قد اختلف في هذه اللفظة صيغة ومعنى، فروي: الأريسين بوزن الكريمين، ورُوي: بوزن الشِّريبيين، ورُوي: الأريسيين بوزن العظيميِّن، ورَوى: بإبدال الهمزة ياء مفتوحة البخارى.

أما معناها فقد قال أبو عبيد: هم الخدم والخول.

وقال ابن الأعرابي: أرس، يأرس، إرساً، فهو أريس. وأرَّس، يورِّس، تأريساً، فهو أريس. وجمعها: أريسون، وأريّسون، وأرارسة وهم الأكارون.

قال بعضهم: (إن في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية فجاء على النسب إليهم)[1].

ومن هذه المعاني التي أوردها الإمام ابن حجر، والإمام ابن الأثير لهذه اللفظة نستطيع القول بأن علماء الحديث لم يتفقوا على ضبطها، ولا على معناها، وقصر معناها على (الأكارين) لم يثبت عن الرسول ﷺ إلاَّ بروايات مرسلة أو ضعيفة. ونحن نرجح أن كلمة (الأريسيين) التي وردت في هذا الحديث إنما تدل على الفرقة الأريوسية، وأن الرسول ﷺ قد أبلغ هرقل بأنه إن لم يسلم، فإنما عليه إثم هذه الفئة التي كانت تشكل غالبية قومه، وكانوا يؤمنون ببشرية المسيح وينكرون ألوهيته وكانوا يكرهون على القول بالتثليث من قبل دولة الروم.

ويؤيد هذا المعنى ما نقل عن ابن فارس أن الكلمة غير عربية، وما نقله ابن الأثير عن بعضهم: (أن الكلمة تعني أن في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية، فجاء على النسب إليهم)[2].

وفي ختام هذا الموضوع الطويل نقول: إن الحركة الأريوسية رغم كل

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي: ٣٨/١. دار إحياء الكتب العربية، الحلبي ١٣٨٣هـ.

(٢) إلى هذا المعنى ذهب الدكتور معروف الدواليبي في مقال له نشرته مجلة الإصلاح التي تصدر في دولة الإمارات العربية، العدد الحادي عشر ربيع أول ١٣٩٩هـ.

الاضطهادات، إلَّا أنها كانت تظهر بين الفينة والأخرى بأسماء متعددة، لكنها تحمل نفس الفكرة، فكرة إنكار ألوهية المسيح.

وينقل لنا الأستاذ العقاد: (أن دعاة الإصلاح قد أعادوا البحث فيها خلال القرن السادس عشر، فوقف الأكثر منهم عند التعبيرات القديمة، وخالفهم، سوسنس (Socinus) في مسألة الطبيعة الإلّهية، فنفى عن المسيح كل إلّهية، وتفرع على مذهبه مذهب الموحدين (Unitarains) الذي نشأ في (بولونية) وقرر أن الإلّه لا يحل في البشر، وأن السيد المسيح إنسان كسائر البشر)[1].



(١) الله، العقاد: ص ١٧٥.



الفصل الثالث

التَّثْلِيثُ وَأُلوهِيَّةُ المَسِيْحِ عِنْدَ النَّصارى

المبحث الأول : نشأة التثليث عند النصارى.

المبحث الثاني : اختلاف النصارى وآراؤهم حول طبيعة المسيح.

المبحث الثالث : معنى الأقانيم والثالوث عند النصارى.

المبحث الرابع : التثليث في الكتاب المقدس.

المبحث الخامس: فكرة ألوهية المسيح ومنشؤها.

المبحث السادس: ألوهية الروح القدس.

المبحث السابع : بطلان عقيدة التثليث.

المبحث الثامن : الرد على أزلية المسيح وبنوَّته.



المبحث الأول

نشأة التثليث عند النصارى

ذكرنا فيما مضى أن التثليث عقيدة طارئة على المسيحية، ولقد كانت بذرته الأولى ظهور فكرة ألوهيَّة المسيح عليه السلام، والفكرة كما ذكر إنجيل برنابا ظهرت زمن المسيح نفسه، حيث أشاعها جنود الرومان، وولادة المسيح من غير أب ساعدت على تصديق هذه الإشاعات. لكن الفكرة نمت وترعرعت من بعده، وحمل لواءها بطريرك الإسكندرية المتأثر بفلسفة مدرسة الإسكندرية «الأفلاطونية الحديثة» التي قالت بفكرة الأقانيم الثلاثة كما أسلفنا. . . وقامت حركات معارضة تنادي بالتوحيد وإنكار ألوهيَّة المسيح عليه السلام[1]، لكن هذه الحركات ما كتب لها النصر في أفكارها، فسادت أفكار المؤلهة.

ولم تسد هذه الأفكار لمنطقيتها، أو لأن الناس قد تقبلوها، ولكنها سادت بسلطة الدولة، وبقوة الإمبراطور الذي أعجب لهذه الأفكار لاقترابها من أفكاره الوثنية، فتدخل شخصياً لحل النزاع بين الموحدين والمؤلهين، فعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م (الذي تحدثنا عنه)، وبهذا المجمع انتقلت فكرة ألوهيَّة المسيح عليه السلام إلى مرحلة أخرى هي مرحلة الأقانيم الثلاثة، لكننا نستطيع القول إن التثليث لم يكتمل تماماً في مجمع نيقية لأن هذا المجمع أُلِّه الآب والابن، أما روح القدس فقد أُلِّه في مجمع لاحق هو مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م، وبمجموع قرارات هذين المجمعين اكتملت عقيدة التثليث عند النصارى.

ورغم اختلاف النصارى في أسس عقيدتهم إلاَّ أنهم متفقون على ما يسمُّونه

---

(١) راجع حركة آريوس في مبحث أثر رجال الكنيسة على الانحراف.

بقانون الأمانة، أو وثيقة الأمانة، التي صيغت أحرفها الأولى في مجمع نيقية، ثم جاءتها إضافات في المجامع اللاحقة، وتختلف صيغة هذه الوثيقة اختلافاً بسيطاً بين كنيسة وأخرى، وسنثبت هنا النص الذي يعتبر عقيدة كنيسة أنطاكية، التي يسمونها (كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى)، ونصّها:

(أومن بإلّه واحد آب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إلّه حق من إلّه حق مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء الذي من أجله نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء، وتجسَّد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنَّس وصلب عنا على عهد (بيلاطس) النبطي، وتألم وقبر ونام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الرب، وأيضاً يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه. وبالروح القدس الرب محي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له، ومجَّد الناطق بالأنبياء، وبكنية واحدة جامعة مقدسة رسولية، واعترف بسموريَّة واحدة لمغفرة الخطايا، وأثر قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي)[١].

والكنائس الثلاثة اليوم[٢]: تؤمن بهذا القانون وتعتبره أساس عقيدتها، وإن كان نص هذا القانون يختلف قليلاً في النص الكاثوليكي عن هذا النص، لأن كنيسة أنطاكية أرثوذوكسية، ولا داعي لإثبات هذا الفرق، وقد وضع مجمع أفسس سنة ٤٣١ مقدمة لهذه الأمانة وهي (نعطيك يا أم النور الحقيقة ونمجدك أيتها العذراء

---

(١) كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، د. أسد رستم: ط ١ ص ١.

(٢) الكنائس الثلاثة هي:

(أ) الكنيسة الكاثوليكية ومركزها روما.

(ب) الكنيسة الأرثوذوكسية ومركزها القسطنطينية والإسكندرية وهي تمثل الأقباط والحبشة وتركيا وروسيا والأرمن وكنيسة أنطاكية.

(ج) الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية.

المقدسة والدة الإله، لأنك ولدت لنا مخلص العالم، أتى وخلد نفوسنا، المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح، فخر الرسل إكليل الشهداء، تهليل القديسين، ثبات الكنائس، غفران الخطايا، نبشر بالثالوث المقدس، لاهوت واحد، نسجد له ونمجده، يا رب ارحم، يا رب ارحم، يا رب بارك آمين)[1].



(١) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/١٧٨.


http://kotob.has.it

المبحث الثاني

اختلاف النصارى وآراؤهم حول طبيعة المسيح عليه السلام

إن الحديث عن طبيعة السيد المسيح عند النصارى إنما هو الحديث عن أساس عقيدتهم التي دارت كلها حول شخصيته عليه السلام. ولقد دار حول هذه القضية جدل قديم، وانعقدت بسببها عدة مجامع، ودارت حولها معظم بحوثهم وخلافاتهم.

لقد عاش عيسى عليه السلام بين تلامذته وحوارييه نبياً كغيره من الأنبياء عليهم السلام يأكل ويشرب معهم، ويكابد في دعوته، ويكابدون معه، وما عرف هؤلاء التلاميذ غير ذلك إذ إن الأمر في البداية لم يكن على النحو الذي نراه اليوم في عقيدة النصارى.

يقول الأستاذ (جيني بير): (وإذا ما توقفنا في نهاية العهد الحواري عند منحدر القرن الأول وجدنا أنه كان من السهل الميسور على الإنسان أن يعتنق المسيحية، كان يكفيه لذلك الشهادة بأن عيسى **المصلوب** هو المسيح الذي وعد الله به أمته، وبأنه مات من أجل **خطاياها**[1] وبأنّه سوف يعود في الأجل القريب ليقضي بين الأحياء والأموات ولينشىء مملكة الله حيث يعيش الصالحون، فإذا ما آمن الإنسان به أقيمت له مراسم التعميد)[2].

---

(١) الإيمان بأن عيسى عليه السلام مصلوب، وأنه مات من أجل خطاياهم هذا كلام خطأ من الأستاذ (جيني بير) إذ إن الحواريين قالوا إن الله رفع عيسى إليه، ولم تكن فكرة الخطيئة قد تبلورت بعد.

(٢) المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٤٨.

وسرعان ما تبدل الأمر بانقضاء هذا الجيل، فانحرفت النصرانية عن مسارها الذي أوضحه المسيح عليه السلام وسار عليه الحواريون، وبدأت الإضافات في الإيمان تدخل إلى النصرانية، فيجد الذي يعتنق النصرانية نفسه أمام أفكار فلسفية معقدة يصعب عليه هضمها، وأخذت هذه الإضافات كما يقول الأستاذ (جيني بير): تنمو وتزداد في تصورات ثلاثة رئيسية لـ(السيد)، قابلة للبحث والتنقيب[1].

١ ـ **تصوُّر بولس**: وخطوطه الأساسية هي: كان عيسى إنساناً سماوياً أي إنساناً سبقت عناصره الروحية في الوجود وجوده الجسدي، ومبدأ حياته الروح الإلٓهية نفسها فعيسى هو الروح. وجاء عيسى إلى الأرض لينشىء إنسانية جديدة هو آدمها، يحررها من أثقال الخطايا بقبوله أن يعيش هيئة الإنسان، ويموت ميتة الإثم المشينة، إنه صورة الله الخفية، وهو أول الخلق... فشخصه إذاً هو المكان الميتافيزيقي الذي يجتمع فيه الله والخليقة.

٢ ـ **النظرة اليوحانية**: التي تعرف المسيح بـ(اللوغوس) وهذا يبدو لأول وهلة قريباً من عبارة بولس بأن (السيد) هو الروح، ولكنه أكثر عمقاً وميتافيزيقية حيث إن (اللوغوس) وهو فيض الله يمكن في نهاية البحث أن يكون تعبيراً عن الله، والقول بأن السيد (اللوغوس) يكاد يكون مرادفاً للقول بأن السيد هو الله، وهذا القول مقبول لدى اليونانيين القائلين بتدرج الآلهة.

٣ ـ **التصور الظاهري**: بأن السيد لم يكن إنساناً إلَّا ظاهرياً، وهذه المدرسة تحاول بقولها هذا أن تخرج من التلازم المشين بين الكائن الإلٓهي وبين الجسد.

ويعلق الأستاذ (جيني بير) على هذه التصوّرات بقوله: (إن هذه النظريات الثلاث في شخص عيسى تهدف إلى نتيجة واحدة: هي الخروج بالمسيح عن نطاق البشرية بتقريبه من الله)[2].

ومقابل هذه التصورات والإضافات نجد معارضين لها يقولون ببشرية المسيح، ويسلبون عنه كل خصيصة إلٓهية، ومن هؤلاء (آريوس) وأتباعه.

---

(١) انظر: المسيحية، جيني بير: ص ١٥٠.

(٢) المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٥٠.

وازداد الاختلاف بعد ذلك وتعددت الآراء حول طبيعة السيد المسيح، ورغم قرارات المجامع المتعددة حول هذه القضية إلَّا أن النصارى لم تجتمع كلمتهم على قول واحد فيها، وسأتحدث هنا عن الفرق القديمة والحديثة مبيناً رأيها في هذا الموضوع مستبعداً الفرق القديمة الموحدة، لأن الحديث هنا عن الفرق التي أخرجت المسيح عن دائرة البشرية إلى دائرة الإلٓهية.

هذه الفرق نشأت مع بداية الخلاف حول طبيعة المسيح عليه السلام، ذلك الخلاف الذي بقي مستمراً لأن موضوعه بقي مبهماً لم يستقر فيه النصارى على رأي، وكثرة الآراء والاختلافات عند النصارى معروفة، ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: (ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشر نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولاً، وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولاً وامرأته قولاً، وابنه قولاً ثالثاً)[1].

وسنقتصر أيضاً عن الفرق المشهورة وهي كما يقول ابن حزم ثلاث فرق:

١ ـ **أعظمها**: فرقة الملكانية (ويسميها الشهرستاني الملكائية)[2].

(وهي مذهب جميع ملوك النصارى وأهل ممالكهم حيث كانوا حاشا الحبشة والنوبة)[3]، والكاثوليكية اليوم امتداد لهذه الفرقة.

أما رأي هذه الفرقة في طبيعة المسيح فقد قالوا: (إن الكلمة اتَّحدت بجسد المسيح وتدرَّعت بناسوته، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، وبروح القدس أقنوم الحياة)[4].

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية: ٢/١٥٥. مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر سنة ١٣٨٣هـ.

(٢) الملل والنحل (أبو الفتح الشهرستاني: ٢/٦٢ مطبوع على هامش الفصل لابن حزم).

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ١/٤٨ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٥هـ ـ بيروت.

(٤) الملل والنحل، الشهرستاني: ٢/٦٢.

(وقالوا: بأن الله تعالى عبارة عن ثلاثة أشياء: آب وابن وروح قدس، كلها لم تزل، وأن عيسى عليه السلام إلّه تام وإنسان تام كله ليس أحدهما غير الآخر، وأن الإنسان منه، وهو الذي صلب وقتل، وأن الإلّه منه لم ينله شيء من ذلك، وأن مريم ولدت الإلّه والإنسان وأنهما معاً شيء واحد ابن الله)(١).

ويفهم من هذا أن الملكانية تقول بأن للمسيح عليه السلام طبيعتين لاهوتيَّة وناسوتيَّة، وهذا مذهب الكاثوليك الذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة متميزون ومنفصلون: الآب ــ والابن ــ والروح القدس.

وينقل لنا الدكتور (السقا) قول الكاثوليك في شرح الآية الأولى من إنجيل يوحنا عند قوله: (والكلمة كان عند الله) يعني: (أن (الكلمة) متميز عمن ولده، فالآب غير الابن والابن غير الآب، ومع ذلك فهما شيء واحد في الطبيعة والذات)(٢).

وهذا هو الذي يفهم من قانون الإيمان الذي وضعوه فهو يفصل بين الأقانيم الثلاثة ويجعل كل أقنوم منها متميزاً عن الآخر.

٢ ــ النسطوريَّة: أصحاب (نسطور) الذي كان أسقفاً على القسطنطينية وقد حرمه مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م(٣)، (وقالوا: للمسيح أقنومان وطبيعتان، جوهر قديم وجوهر محدث، إلّه تام وإنسان تام، والصلب وقع من حيث الناسوت)(٤).

(وقالوا: بأن مريم لم تلد الإلّه وإنما ولدت الإنسان وأن الله تعالى لم يلد الإنسان وإنما ولد الله)(٥).

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ٢/٤٩.

(٢) أقانيم النصارى، د. أحمد حجازي السقا: ٦٨ نقلاً عن حواشي على الكتاب المقدس.

(٣) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/١٧٧.

(٤) الملل والنحل، الشهرستاني: ٢/٦٤ ــ ٦٥.

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ٢/٤٩.

وهذه الفرقة انقرضت لأن المجامع حرمت نسطور، وكان ذلك في مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م.

٣ ـ **اليعقوبيَّة**: وهم أصحاب يعقوب البراذعي. قالوا: بالأقانيم الثلاثة، إلاَّ أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإِلّه هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو هو، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم بقوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾[1].

(وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد (أقنوم واحد) إلاَّ أنه من جوهرين، وربما قالوا طبيعة واحدة من طبيعتين، فجوهر الإِلّه القديم وجوهر الإِنسان المحدث، تركبا كما تركبت النفس والبدن، فصارا جوهراً واحداً أقنوماً واحداً، وهو إنسان كله وإلّه كله، فيقال: الإِنسان صار إلّهاً، ولا ينعكس كالفحمة تطرح في النار فيقال: صارت الفحمة ناراً، ولا يقال: صارت النار فحمة... وقالوا: إن مريم ولدت إلّهاً، والقتل وقع على الجوهر الذي هو من جوهرين[2]، (جوهر الإِلّه القديم وجوهر الإِنسان الحادث).

ونسبة هذه الفرقة لـ (يعقوب البراذعي) لأنه من أنشط الدعاة إلى هذا المذهب، لا لأنه مبتدعه ومنشئه، فإن ذلك المذهب أسبق من يعقوب هذا، وأول من أعلنه بطريرك الإسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي، أما يعقوب (فقد وجد في القرن السادس الميلادي)[3].

ولقد جاء مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م مخالفاً لآراء هذه الفرقة كما ذكرنا وكان ذلك سبب انفصال الكنيسة القبطية عن الكنيسة الرومانية.

والكنيسة الأرثوذكسية اليوم امتداد في رأيها لما ذهبت إليه هذه الفرقة، فقد لخص صاحب كتاب (تاريخ المسيحية في مصر) عقيدة الكنيسة القبطية ـ وهي

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٧٢.

(٢) الملل والنحل، الشهرستاني: ٢/٦٦ ـ ٦٧.

(٣) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٧٥.

جزء من الكنيسة الأرثوذوكسية ـ ونقله لنا الشيخ محمد أبو زهرة فقال: (كنيستنا المستقيمة الرأي التي تسلمت إيمانها من (كيرلس) و (ديسغورس) ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية والسريانية والأرثوذوكسية، تعتقد بأن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم، أقنوم الآب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس، وإن الأقنوم الثاني أي أقنوم الابن، تجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء فصيَّر هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة بريئة من الانفصال وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة)[1].

ومع أن ما ذهبت إليه الكنيسة الكاثوليكية، والذي يفهم من قانون الإيمان الذي يقرون به جميعاً إلَّا أن الكنيسة الأرثوذوكسية تستدل على مذهبها بقول القديس بولس في رسالته الأولى إلى (تيموثاوس): (وبالإجماع، عظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد، تبرر في الروح، تراءى لملائكة، كرز به بين الأمم، أومن به في العالم، رفع في المجد)[2].

هذه خلاصة عقيدة النصارى اليوم في طبيعة المسيح عليه السلام، فهما رأيان ينتشران عند النصارى اليوم، رأي تتزعمه الكنيسة الغربية الكاثوليكية، ملخصه أن الآلهة ثلاثة متميزون ومنفصلون تسمى بالأقانيم الثلاثة: هي (الآب، والابن، والروح القدس) نصّ قانون الإيمان على الإيمان بها كل واحدة على حدة ومع هذا التميز بين كل أقنوم وآخر، وعلى ذلك يكون للمسيح طبيعتان للآب وهي طبيعته الإلهية وطبيعة الابن وهي طبيعته البشرية، ومع ذلك فهما شيء واحد في الطبيعة والذات.

والمذهب البروتستانتي موافق تماماً لمذهب الكاثوليك في هذا الأمر.

ورأي آخر تتزعمه الكنيسة الأرثوذكسية، يقرّ بهذه الأقانيم الثلاثة إلَّا أنه يقول في اتحادها في طبيعة واحدة، فالمسيح هو الله، وهو ابن الله وهو روح القدس.

---

(١) نفس المرجع: ص ١٥٦.

(٢) تيموثاوس الأولى: ٣/ ١٦.

والقرآن الكريم أشار إلى هذين المذهبين فرد على ما ذهبت إليه الملكانية، وسارت عليه الكاثوليكية، والبروتستانتية بقوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة وما من إلَه إلاَّ إلَه واحد﴾[1].

ورد على ما ذهبت إليه اليعقوبية والأرثوذوكسية بقوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾[2].

أما قوله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمِّيَ إلَهين من دون الله﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿بديع السموات والأرض أنّى يكونُ له ولد ولم تكن له صاحبة﴾[4]. فهما ردّ على الذين يقولون بألوهية مريم وهم (المريميون).

ويذكر القمص (زكريا بطرس) (أن هذه الفرقة ظهرت في القرن الخامس الميلادي، وكان أصحاب هذه البدعة من الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية، وكانوا في وثنيتهم يعبدون الزهرة، ويقولون عنها ملكة السماء، وعندما اعتنقوا المسيحية حاولوا التقريب بين ما كانوا يعبدون وبين العقيدة المسيحية، فاعتبروا (مريم) ملكة السماء أو إلَهة السماء بدلاً من الزهرة ولذلك ألقوا على أنفسهم اسم (المريميين))[5].

(وهذه الفرقة يسميها (ابن حزم) البربرانيَّة، ويبيِّن أنهم يقولون إنّ عيسى وأمه إلَهان من دون الله عز وجلّ، ويقول بأن هذه الفرقة قد بادت)[6].

ومع أن النصارى يقولون بانقراض هذه الفرقة، وأن الكنيسة لا تعترف بألوهية

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠١.

(٥) الله واحد في الثالوث القدوس، القمص زكريا إبراهيم: ص ٤١، الطبعة الرابعة مركز الشبيبة، السوسي ـ مصر (لم يذكر سنة الطبع).

(٦) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ٢/٤٨.

مريم وتؤمن بأن العذراء مريم إنسانة بشرية[1]، إلاَّ أن تقديس النصارى لمريم جاء في أحد مجامعهم وهو مجمع (أفسيس) الأول ٤٣١م، الذي وضع مقدمة لقانون الإيمان تبدأ بقولهم: (نعظمك يا أم النور الحقيقي ونمجدك أيتها العذراء المقدسة والدة الإلّه)، كما قدمنا ويؤكد ذلك الأب (عبد الأحد داود) صاحب كتاب (الإنجيل والصليب) وهو آشوري عراقي، كان نصرانياً برتبة خوري، ثم أعلن إسلامه، وكتب هذا الكتاب بالتركية، ونقله إلى العربية مسلم عراقي لم يذكر اسمه فيقول: (كانت الكنيسة تأمرني بوسيلة شفعاء آخرين لا يحصون عدداً، وكانت تفرض عليّ ابتغاء الوسيلة إلى ميكائيل وجبرائيل مع الملائكة الآخرين والحواريين. . . والكنيسة تعتبر أن رئيستهم مريم، ولو ترون كتاب (دينوسه) أي بمعنى إلاهة، وقد محيت أسماء الله مثل (يهوه) و (قدير) من كتب المزامير التي يخاطب بها الله تعالى، وأثبت بمكانها اسم مريم، وأذكر هنا إحدى آيات (الزبور) التي في حفظي لأجل المثال (احمدوا الله يا أولاد)، فالكاثوليك لأجل إظهار عبوديتهم لمريم، طووا من الزبور هذا، وأضافوا إليه بعض الآيات تعمداً بقصد تحويلها إلى عبادة مريم (احمدوا مريم يا أولاد). وهذه الكنيسة كلما صلّي فيها مرة واحدة بالصلاة الربانية (أبانا. . .) يصلى فيها بالصلاة المريمية عشرين مرة. .)[2].

هذا ما قاله نصراني أنعم الله عليه بالإسلام فتخلص من العبوديَّة لغير الله تعالى، فالكاثوليك يقدسون مريم، ويقدمونها في العبادة على الله تعالى، وإن ادعوا في كتبهم أن مريم إنسانة ولدت الإلّه.



(١) الله واحد في الثالوث القدوس، زكريا إبراهيم: ص ٤٢.

(٢) الإنجيل والصليب، عبد الأحد داود: ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ـ القاهرة ١٣٥١هـ.

المبحث الثالث

معنى الأقانيم والثالوث عند النصارى

إن النصارى أنفسهم لا يدركون حقيقة عقيدة التثليث، فهم علاوة على اختلاف فرقهم في هذا الموضوع، فإنهم لا يدركون هذه العقيدة ـ واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد ـ لأنها تصطدم مع العقل البشري، ولا يستطيع هضمها وإدراكها، بالإضافة إلى أنها لا تجد لها سنداً من الوحي والنصوص الأصلية المنزلة، ومع ذلك فإنهم يؤمنون بها سماعاً وتقليداً لما ورثوه عن آبائهم، بل لا يسمحون لعقولهم بالتعمق في كنهها وهذا صاحب (تاريخ الأقباط) يقول: (وهذه حقيقة تفوق الإدراك البشري الذي لا يفهم إلاَّ أن الطبيعة الواحدة إنما تتضمن أقنوماً واحداً، أي ذاتاً واحدة. وأن تعدد الأقانيم أو الذات إنما يستوجب تعدد الطبائع)[1].

واعترافات النصارى بعدم قبول العقل لعقيدة التثليث كثيرة، وينقل لنا صاحب كتاب (الله واحد أم ثالوث) بعض هذه الاعترافات ومنها: (يقول القس (توفيق جيد) في كتابه (سر الأزل): (إن الثالوث سرٌّ يصعب فهمه وإدراكه، وإن من يحاول إدراك سر الثالوث تمام الإدراك كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها في كفِّه). . .

(ويقول (باسيليوس إسحاق) في كتابه (الحق): (أجل إن هذا التعليم عن التثليث فوق إدراكنا، ولكن عدم إدراكه لا يبطله). . .

ويقول الأستاذ عوض سمعان في كتابه (الله ونوع وحدانيته): (لقد حاول كثيرون من رجال الفلسفة توضيح إعلانات الكتاب المقدس عن ذات الله، أو بالأحرى عن ثالوث وحدانيته، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا)[2].

---

(١) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/٢٣٧.

(٢) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ٧٠ ـ ٧١.

وهنا يتساءل (محمد مجدي مرجان) فيقول: (ترى إذا كان الفلاسفة والعلماء قد عجزوا عن فهم الثالوث، فمن يا ترى يستطيع فهمه؟ وما موقف البسطاء والعامة إذا ما حاولوا الفهم، وإذا لم نستطع إدراك عقائدنا الدينية بعقولنا وأفهامنا فبماذا يمكننا إدراكها؟ وإذا كنا نحن وهم لا ندرك هذا الثالوث فكيف يمكن لكل منا أن يتبعه أو يسير عليه؟)(١).

ومعلوم أنَّه لا بد للمرء أن يفهم عقيدته حتى تكون عبادته على بصيرة، والتدين تلبية لنداء الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فإذا كان هذا الدين معقداً لا يمكن فهمه وإدراكه فكيف تلبى هذه الفطرة؟

أما صاحب رسالة (الأصول والفروع) (القس بوطر) فيقول بعد أن استعرض عقيدة التثليث وشعر بغموضها وإبهامها: (قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل، حيث ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات والأرض، وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه الكفاية)(٢).

وفي معرض حديثه عن إبطال التثليث بالأدلة العقلية، ينقل لنا الشيخ (رحمة الله الهندي): (أنَّه تنصَّر ثلاثة أشخاص وعلمهم أحد القسيسين العقائد الضرورية سيّما عقيدة التثليث أيضاً، وكانوا في خدمته، فجاء محب من أحبّاء هذا القسيس وسأله عمن تنصر، فقال: ثلاثة أشخاص تنصروا، فسأل هذا المحب، وهل تعلموا شيئاً من العقائد الضرورية، قال: نعم، وطلب واحداً منهم، فسأله عن عقيدة التثليث، فقال: إنك علمتني أن الآلهة ثلاثة، أحدهم: الذي هو في السماء، والثاني تولد في بطن مريم العذراء، والثالث: الذي نزل في صورة الحمام على الإله الثاني بعدما صار ابن ثلاثين سنة، فغضب القسيس وطرده، وقال: هذا مجهول، ثم طلب الآخر منهم وسأله، فقال: إنك علمتني أن الآلهة كانوا ثلاثة، وصلب واحد منهم، فالباقي إلهان، فغضب عليه القسيس أيضاً وطرده، ثم طلب

---

(١) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ٧١.

(٢) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ٧١.

الثـالث وكان ذكيـاً بالنسبـة إلى الأوَّلين، وحريصـاً في حفظ العقائـد، فسألـه فقال: يـا مولاي، حفـظت مما علمتني حفـظاً جيداً، وفهمت فهمـاً كـامـلاً بفضـل الـرب المسيح أن الواحـد ثلاثـة والثلاثـة واحد، وصلب واحـد منهم ومات، فمـات الكل لأجل الاتحاد، ولا إلٰه الآن وإلاّ يلزم نفي الاتحاد)[1].

ورغم هذا التعقيد الذي تتصف به هـذه العقيدة واعتـراف أصحابهـا بذلـك، فإننا في هذا المبحث سنحاول بيان مقصود النصـارى في هذه العقيـدة مبيِّنين بشيء من الاختصار معنى الثالوث والأقانيم.

(كلمة الثالوث تطلق عند النصارى على وجود ثلاثة أقانيم معاً في اللاهـوت، تُعرف بالآب والابن والروح القدس، هذا التعليم هو من تعاليم الكنيسة الكاثوليكيـة والشرقية وعموم البروتستانت إلاّ ما ندر)[2].

(والأقانيم كلمة سريانية الأصل مفردها (أقنوم) وهو الشخص الكـائن المستقل بذاته)[3].

يقول الأستاذ (محمد فريد وجدي) في دائـرة معارفـه: (والأقانيم هي الأصـل الأول من أصـول النصرانيـة وأعظم أسـرارها، ويحـدّه اللاهـوتيون بقـولهم: (الإلٰـه الواحد في ثـلاثة أقـانيم متميزين، (آب وابن وروح قـدس) كل أقنـوم قائم بـذاته، طبيعتهم واحـدة وجوهـرهم واحد، وهم أزليّـون على حد سـواء، ولكن بـاختـلاف المنشأ، فالآب موجود بنفسـه لم يأخـذ الوجـود من سواه، والابن متـولد من الآب، والروح القدس منبثق من كليهما، ويمثل النصارى الآب بشيخ هرم قد جلَّله الشيب عابس الوجـه على وشك الانتقـام، والابن بشاب وديـع يقدم نفسـه ضحيَّة لـلآب، والروح القدس بحمامة بيضاء مستقرة على كليهما، هذا التحـديد هـو الأكثر شيـوعاً

---

(١) إظهـار الحق، رحمة الله الهنـدي، تحقيق الـدكتـور أحمـد السقـا: ١/٣٣٧ ــ ٣٣٨، دار التراث العربـي للطباعة والنشر بمصر ١٣٩٨هـ.

(٢) دائـرة المعارف، بـطرس البستاني: ٦/٣٠٥، مؤسسـة مطبـوعـاتي إسمـاعيليـان ــ طهـران ١٨٨٢م.

(٣) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ٩.

بين الطوائف النصرانية ويخالفه الروم الأرثوذوكس في مسألة انبثاق الروح القدس، وقد أجمعوا على أن هذا من الأسرار التي لا يجوز لأحد الخوض فيها)[1].

فكلمتا الثالوث، و (الأقانيم) مترادفتان، فالثالوث هو ثلاثة أقانيم منفصلة عند بعض طوائف النصارى، متحدة ممتزجة عند طوائف أخرى.

ومحاولة في إيضاح مفهوم الثالوث عند النصارى، لا بد لنا من الاطلاع على ما كتبه فلاسفتهم، وعلماء اللاهوت عندهم آملين أن نوضح مفهوم هذا الاعتقاد مع أن فلاسفتهم وعلماءهم مقرّون أنهم لم ولن يصلوا إلى حقيقة كنهه.

وقد جمع الأستاذ (محمد مجدي مرجان) ــ وكان نصرانياً فأسلم ــ جمع بعض تفسيرات دعاة التثليث فقال: (يرى فلاسفة المسيحية أن الله سبحانه يتكون من ثلاثة أقانيم أي ثلاثة عناصر أو أجزاء: الذات، والنطق، والحياة، فالله موجود بذاته ناطق بكلمته حي بروحه. وكل خاصيَّة من هذه الخواص تعطيه وصفاً معيناً فإذا تجلى الله بصفته ذاتاً سُمي الآب، وإذا نطق فهو الابن، وإذا ظهر كحياة فهو الروح القدس)[2].

ويتساءل الأستاذ (مرجان) عن سرّ هذه التسمية فيقول: (لماذا أطلق على الله الموجود لفظ (الآب) وعلى الله الناطق لفظ (الابن) وعلى الله الحي لفظ (الروح القدس))[3].

الجواب جاء به من قول القس (توفيق جيد) في كتابه (سر الأزل) الذي يقول: (إن تسمية الثالوث باسم الآب والابن والروح القدس، تعتبر أعماقاً إلٓهية وأسراراً سماويّة لا يجوز لنا أن نتفلسف في تفكيكها وتحليلها، ونلصق بها أفكاراً من عنديّاتنا)[4].

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ١٠/١٩٨، الطبعة الثانية ١٣٤٢هـ.

(٢) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ٩.

(٣) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ١٠.

(٤) نفس المرجع: ص ٩ ــ ١٠.

(ويرى فلاسفة المسيحية أن الإنسان خلق على صورة الله، فكما أن الله مثلث الأقانيم كذلك فإن الإنسان مكوَّن من ثلاثة عناصر، فالإنسان بذاته كائن على صورة الله ومثاله، وناطق على صورة الله ومثاله، وحيّ على صورة الله ومثاله)[١].

وفي ذلك يقول القمص (إبراهيم إبراهيم) في كتابه التثليث والتوحيد: (لا يصح مطلقاً نفي التثليث، لأنه بانتفائه تنتفي أنت، إذ هو أنموذجك ومصدر صفاتك الذاتية الثلاثية، الذات والنطق والحياة، وآثارها غير مفقودة، فكيف يصح انتفاؤك وأنت موجود، بنفي الأقانيم الإلّهية)[٢].

ويؤكد هذا الأستاذ يّس منصور في رسالته (التوحيد والتثليث) فيقول: إن الإنسان قد خلق على صورة الله، فقد وضع الله صورته في البشر، وأفاض عليهم ألواناً ثابتة من صفاته، فظهر الخليفة العاقلة، المشابهة والمماثلة لله، ليس إلاّ صورة مصغرة له تعالى ظاهرة في مرآة الخليقة)[٣].

ولعل ما ذهب إليه (يس منصور) كان من باب تقريب مفهوم الثالوث للعقل، فراح يشبِّه الله تعالى بالإنسان، فاستوى الإنسان عنده مع الله في صفاته وصورته، وهو يعترف بذلك فيقول: (إنه لا يمكننا أن نفهم الله إلاّ عن طريق تصوره بالصورة البشرية)[٤].

ولتقريب هذا المفهوم كثرت التمثيلات والتشبيهات عند النصارى، فقد مثله بعضهم بالتفاحة، فكما أن التفاحة لها ثلاث خواص هي: الذات والطعم والرائحة، ويمكن التمييز بين هذه العناصر، ولو أنها تفاحة واحدة، فالرائحة مثلاً غير الذات والطعم، والذات هي علة الطعم والرائحة، كذلك لا يمكن تصور الآب بدون الابن والروح القدس. . . وكذلك شبّه آخرون الله الثالوث بالشمس، فالشمس أيضاً كالله تماماً تتكون من ثلاثة عناصر أو أجزاء هي: جرم الشمس، وشعاع الشمس، وحرارة

---

(١) نفس المرجع: ص ١٠.

(٢) نفس المرجع: ص ١٠.

(٣) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ١٣.

(٤) نفس المرجع: ص ١٤.

الشمس. فالشعاع منبعث من الجرم، والحرارة منبعثة من الشعاع والجرم، والكل شمس واحدة، وكذلك مثل بعض آخر الله بالشجرة فهي ذات أصل وساق وثمر، والشجرة واحدة)[1].

ويذهب بعضهم إلى تفسير آخر، يحاولون به حل لغز الثالوث، وفي هذه المرة كان التفسير عاطفياً دار حول المحبة، فقالوا: الله محبة، وحتى تحقق هذه المحبة السعادة لا بد أن تكون بين اثنين على الأقل فلا بد من آخر يهبه الله هذه المحبة ليجد السعادة، فكان الابن الذي ولده من الأزل نتيجة لحبه إياه، وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الآب والابن كانت الروح القدس، هذا خلاصة ما قاله بولس الياس في كتابه يسوع المسيح تبريراً لعقيدة الثالوث[2].

والتعبير عن الله بالمحبة، ورد كثيراً في العهد الجديد، يقول (بولس) في رسالته إلى رومية: (ولكن الله بيَّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا)[3]، وتظهر فلسفة المحبة هذه واضحة في رسالة يوحنا الأولى في أكثر من موضع، منها قوله: (أيها الأحباء، ليحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله، وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله، ومن لا يحب لا يعرف الله، لأن الله محبة، بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم كي نحيا به)[4].

الله محبة، ومن يثبت في المحبة يثبت في الله، والله فيه[5].

وبنفس الرأي تقريباً، يدلي القس (توفيق جيد) فيقول: (إن الوحدانية دون الثالوث تجعل الله في الأزل بدون موضوع للمحبة، فالواحد من كل وجه لا يقدر أن يحب غير نفسه، وبدون الثالوث والتمييز الأقنومي لا يبقى لله في أزليته سوى ذاته

---

(١) نفس المرجع: ص ١٦.

(٢) نفس المرجع: ص ١٧.

(٣) رومية: ٥/٨.

(٤) رسالة يوحنا الأولى: ٤/٧ ــ ٩.

(٥) رسالة يوحنا الأولى: ٤/١٦.

ليحبها، وتنزيهاً لله عن محبة الذات فقد وجد الثالوث، حتى تتجه محبة الأقنوم الإلّهي نحو الأقنوم الآخر)[1].

ومفاد هذه النظرية كما يقول الأستاذ (مرجان): (أن الله عبارة عن عائلة تتكون من ثلاثة كائنات، وكل كائن منها غير الآخر، ولكن بين أعضاء هذه الأسرة الإلّهية علاقات وأواصر متينة ظاهرة وخفية، عاطفية وحسية أيضاً، وقد نتج عن العلاقة بين أقنومي الآب والابن ثمرة هي الأقنوم الروح القدس)[2].

ويعقب الأستاذ (مرجان) على هذه النظرية بسخرية رائعة فيقول: (ومن يدري فقد تعقب هذه الثمرة ثمرات أخرى، يتزايد فيها عدد أفراد الأسرة الإلّهية، فقد يشتاق الآب إلى ابنة أيضاً، يبثها محبته وحنانه، وتكون أختاً حانية للابن، ويمكن أيضاً مع الزمن تصور إضافة أعضاء جدد للأسرة الإلّهية يتم بها نموها، ويكثر عددها فمع الزمن يصبح الأب جداً والابن أباً والابنة أماً، وينجبون ثمرات وأحفاداً تتم بهم البهجة، ويقتصر الحب الإلّهي عليهم. . أما البشر عبيد الله، فلا حب ولا حنان لهم، وإنما حنان الله وحبه مقصوران على أفراد جنسه الإلّهي وعلى أعضاء عائلته السماوية)[3].

وهناك تعليل آخر لكشف سر الثالوث كتبه (رمسيس ونيس) في كتابه (هل الله موجود؟) يقول فيه: (إن الله جوهر واحد في ثلاثة أقانيم. . . والإيمان بهذا الخالق القادر تشترك فيه كل الديانات، وقد تعدى البشر شريعة الله، وكسروا وصيته، كما أن البشر لا يستطيعون الوفاء بما عليهم لعدل الله، لذلك كان لا بدَّ لعلاج الأمر من وجود وسيط وفادٍ إلّهي، ليسدد الدين، وينفذ القصاص، والبشر لا يستطيعون أن يجددوا صورة الله في طبيعتهم الساقطة بجهودهم البشرية، لذلك اقتضى الأمر أيضاً لتجديد طبيعة نحو البر والصلاح وجود مقدس إلّهي)[4].

---

(١) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ١٨.

(٢) نفس المرجع: ص ١٩.

(٣) نفس المرجع: ص ١٩.

(٤) هل الله موجود، رمسيس ونيس: ص ١٦.

وهذا التعليل يقوم على أن البشر مدينون لله تعالى وهو يطالبهم بذلك لكنهم لم يستطيعوا الوفاء فكان الابن وسيطاً وفادياً إلّهياً، تحمل عناء الصلب ليسد الدين عن البشر، كما أن الأمر قد اقتضى وجود مقدس إلّهي تظهر فيه صورة الله للبشر (وهو المسيح الابن) لأن البشر لا يمكنهم تجديد صورة الله في طبيعتهم الساقطة، وهذا التعليل يدل على أن الأب هو الذي خلق الابن لحاجته إليه، وليقوم بدور الوسيط بينه وبين خلقه. ثم يستطرد (رمسيس ونيس) فيقول: (هذا التعليم المستمد من الواقع يوضح الله الخالق، والله الفادي، والله المقدس (الأب، والابن، والروح القدس)، هذه الأقانيم الثلاثة هي جوهر واحد وإن اختلفت في الوظائف والأعمال، فتنسب بعض الخواص إلى الأب كالعناية والرعاية، وينسب الفداء إلى الابن، كما ينسب التجديد والتقديس إلى الروح القدس.. وعلى هذا فالأقانيم الثلاثة هي ثلاثة مظاهر لحياة جوهر واحد غير منفصل ولا منقسم ولا مجزأ)[1].

وإلى نفس هذا التفسير ذهب القس (اسكندر جديد) فقال: (ولذلك كانت النظرية القائلة بأن تعليم التثليث هو تعليم عقلي فقط خطأً جسيماً، ويؤيد ذلك ما لهذا التعليم في نظام الفداء الذي أعده الله من تأثير شديد في قلوب جميع المؤمنين، حتى أن البسطاء منهم يفرحون به فرحاً لا يوصف، فإنهم إذ آمنوا بالله أنه هو الخالق والقدوس الذي تعدوا على وصاياه ولا يقدرون أن يوفوا ما عليهم لعدله، ولا أن يجددوا صورته التي كانت لهم قبل السقوط[2]، اقتضى أن يؤمنوا أيضاً بفادٍ إلّهي ومقدس إلّهي، أي أن شعورهم الباطني ما يدعوهم إلى التمسك بتعليم التثليث)[3].

ولقد تاه النصارى في خضم مسألة التثليث والأقانيم، وتنوعت معتقداتهم في حقيقتها وتساءلوا، هل هذه الأقانيم هي نفس الذات؟ أو هي صفات لذات الله

---

(١) هل الله موجود، رمسيس ونيس: ص ١٧.
(٢) المقصود بصورة إنسان التي كانت قبل السقوط ـ في اعتقادهم ـ صورة آدم الإلّهية قبل وقوعه في الخطيئة.
(٣) هل الله في ثلاثة أقانيم، اسكندر جديد: ص ٤، منشورات مركز الشبيبة ـ بيروت.

تعالى، ثم هل هي منفصلة متميزة أو أنها ممتزجة متحدة، ومع أن القس (اسكندر جديد) يشير إلى اتحاد هذه الأقانيم، واشتراكها في ألقاب وصفات إلّهية واحدة فيقول: (حين نتأمل بعمق في المسيحية نجد أن لكل من الأقانيم الثلاثة ـ الأب والابن والروح القدس ـ ما للآخر من الألقاب والصفات الإلّهية والمحبة والإكرام والثقة)[1]، إلاّ أنه يعود ليقول: (إن أسماء الثالوث الأقدس ـ الآب والابن والروح القدس ـ ليست كنايات عن نسب مختلفة بين الله وخلائقه كما زعم البعض، كلفظة خالق وحافظ ومنعم، الذي تنفيه الإعلانات التالية:

(أ) إن كلاً من الآب والابن والروح القدس، يقول عن ذاته (أنا).

(ب) إن كلاً منهم يقول للآخر في الخطاب (أنت) وفي الغيبة (هو).

(ج) إن الآب يحب الابن، والابن يحب الآب، والروح القدس يشهد للابن. فيظهر من ذلك أن بين كل من الآب والابن والروح القدس من النسب ما يدل على تمييز الأقنومية وأنه يوجد إلّه واحد في ثلاثة أقانيم)[2].

وقوله هذا يدل على التمييز بين الأقانيم، وأن كل أقنوم قائم بنفسه منفصل عن الآخر غير متحد به، فكيف كان الاشتراك التام في الألقاب والصفات الإلّهية بينها مع هذا التمييز والانفصال؟

ويؤكد كثير من النصارى في كتاباتهم أن الأقانيم متغايرة في أفرادها وشعبها، لكنها في جوهرها غير متغايرة، فالعلاقة بين الآب والابن هي علاقة المحبة والاتحاد في الجوهر.

يقول القس (بوطر) في رسالة الفروع والأصول: إن في اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوين في الكمالات الإلّهية، وممتازين في الاسم والعمل، والكلمة والروح القدس اثنان منهم، ويدعى الأقنوم الأول (الآب)، ويظهر من هذه التسمية أنه مصدر كل الأشياء ومرجعها، وأن نسبته للكلمة ليست صورية، بل شخصية

(١) هل الله في ثلاثة أقانيم، اسكندر جديد: ص ٥.

(٢) نفس المرجع: ص ٦.

حقيقية. . ويدعى الأقنوم الثاني (الكلمة)، لأنه يعلق مشيئته بعبارة وافية، وأنه وسيط المخابرة بين الله والناس، ويدعى أيضاً (الابن)، لأنه يمثل للعقل نسبة المحبة، والوحدة بينه وبين أبيه، والتمييز بين نسبته هو إلى أبيه، ونسبة كل الأشياء إليه. ويدعى الأقنوم الثالث (الروح القدس) للدلالة على النسبة بينه وبين الآب والابن، وعلى عمله في تنوير أرواح البشر وحثهم على طاعته)[١].

وهذا الثالوث الذي تحدث عنه القس (بوطر) تظهر فيه المغايرة بين أقانيمه الثلاثة.

والخلاف بين النصارى في طبيعة الأقنوم الثاني (الابن) ألمحنا إليه من قبل، وموجزه أن الكنيسة الكاثوليكية تقول بأن له طبيعتين، أما الأرثوذكسية ومنها الكنيسة القبطية، ومعظم كنائس المشرق فتقول بأن الأقنوم الابن طبيعة واحدة من طبيعتين: (ومن هذا ترى أن الكنائس كلها تعتقد التثليث، وهذا موضع اتفاق، ولكن موضع الخلاف هو العنصر الإلهي في المسيح، أهو الجسد الذي تكون من روح القدس ومن مريم العذراء، الذي باختلاطه بالعنصر الإلهي صار طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، أم أن الأقنوم الثاني له طبيعتان ومشيئتان)[٢].

وتحت عنوان (خلاصة العقيدة القبطية) يحاول الآب (زكي شنودة) توضيح مفهوم الأقانيم فيقول: (وقد فهمنا من كلام السيد المسيح الذي دفعنا بمعجزاته إلى الإيمان بألوهيته، أن الأقانيم الثلاثة الذين في الله، وإن اتحدوا جوهراً وطبعاً وذاتاً، وصاروا واحداً إلاَّ أنهم ثلاثة لا واحد من حيث الأقنومية، فالآب ليس هو الابن، والروح القدس ليس هو الآب ولا الابن، غير أن لكل ما للآخرين من الألقاب والصفات الإلهية، وكل ما ينسب إلى أحدهم من صفات اللاهوت الكاملة ينسب إلى الآخر بمعنى واحد، ذلك لأن الطبيعة واحدة، ولأن الأقانيم الثلاثة هم واحد دون تعدد أو تركيب أو تأليف، وإلاَّ كان في الذات العلية ثلاثة آلهة، وذلك ما تنكره المسيحية وترفضه لأنها تؤمن بالإله الواحد الوحيد)[٣].

---

(١) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١١٠.

(٢) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١١٢.

(٣) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/٢٤١.

وكثيراً ما يعبِّر النصارى عن هذا المفهوم بقولهم: (ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة)، وهم يدركون أن هذا منافٍ للعقل، إذ كيف يمكن للواحد أن يكون ثلاثة، وهو في نفس الوقت واحد، ولا شك أن العدد (واحد) يختلف عن العدد (ثلاثة)، وهو جزء منه ولا يمكن المساواة بين العددين، ولذلك يستدرك الأب (زكي شنودة) فيقول: (غير أن هذا الوحدة ليست نظير الوحدة المادية التى لا يمكن القول عن الواحد منها أنه ثلاثة أو أنه كائن في ثلاثة، وإنما هي وحدة إلٰهية تفوق إدراكنا ولا ينافيها وجود ثلاثة أقانيم، لأن الثلاثة أقانيم ليسوا ثلاثة آلهة ولكنهم إلٰه واحد)[١].

وبذلك يكون الأب (شنودة) قد زاد المسألة إبهاماً عندما حاول توضيحها.

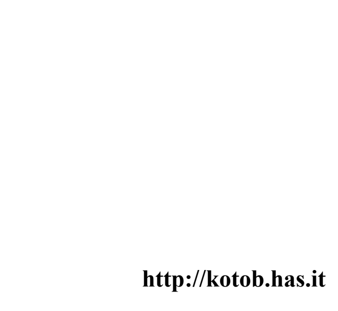
وعن كيفية تكوُّن هذه الأقانيم يقول الأب (شنودة): (وقد دعي الأقنوم الأول أباً أو والداً والثاني ابناً أو مولوداً، وليس المقصود خروج كائن من كائن، وإنما المقصود أن الأقنوم الأول هو بثابة ينبوع أعطى الأقنوم الثاني الصادر عن طبيعته وجوهره كله، فكان الثاني صورة كاملة للأول مساوياً له في الطبيعة والجوهر. . . وقد دعي الأقنوم الثالث (الروح القدس) ليس لأن بينه وبين الأقنومين الآخرين تميزاً في روحانية الجوهر، وإنما لأعماله الخاصة به، والروح القدس وإن كانت له طبيعة الآب وجوهره كالابن، إلَّا أنه لم يدع ابناً، بل يقال له (روح منبثق) صادر عن الآب، وهذا سر من أسرار اللاهوت الغامضة)[٢].



---

(١) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ٢٤١/١.

(٢) نفس المرجع: ٢٤١/١.



المبحث الرابع

التثليث في الكتاب المقدس

تحدثنا من قبل عن نشأة هذه العقيدة، وقلنا: إنها تبلورت عند المسيحيين في القرن الرابع الميلادي، فقد وضع مجمع نيقية سنة ٣٢٥م أساسها، وأكمل مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م بناءها.

ومع أن عقيدة التثليث تعتبر أهم ركن من أركان النصرانية، ولا يعتبر الشخص نصرانياً إلَّا إذا آمن بهذا الثالوث، فإن الكتاب المقدس لا يشتمل لفظ الثالوث أو لفظ الأقانيم، ولكن النصارى يحتجون لذلك بأن تعليم الثالوث مطابق لنصوص في الكتاب المقدس. يقول المعلم (بطرس البستاني) في دائرة معارفه: (ومع أن لفظة «ثالوث» لا توجد في الكتاب المقدس، ولا يمكن أن يؤتى بآية من العهد القديم تصرح بتعليم الثالوث، فقد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء آيات كثيرة تشير إلى وجود صورة جمعية في اللاهوت)[١].

وجاء في دائرة المعارف الفرنسية: (أن عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة في كتب العهد الجديد، ولا في أعمال الآباء الرسوليين، ولا عند تلاميذهم الأقربين، إلَّا أن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانتي التقليدي يدعيان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمان، رغماً عن أدلة التاريخ التي ترينا كيف ظهرت هذه العقيدة، وكيف نمت، وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك)[٢].

وإن من أهم ما يؤيد ذلك أنك لدى مراجعتك نصوص الكتاب المقدس بعهديه فإنك تجده خلواً من لفظة واحدة للثالوث أو الأقانيم.

---

(١) دائرة المعارف، المعلم بطرس البستاني: ٦/٣٠٥.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ١٠/٢٠٢.

ورغم الأدلة التاريخية التي تحدثنا عن تاريخ نشأة هذا الاصطلاح عند النصارى، رغم هذا كله فإن النصارى مصرون على أن هذه العقيدة جاء بها الكتاب المقدس، وهم يحاولون بكل وسعهم جمع النصوص التي يجدون فيها أمارة إلى هذا الثالوث الذي يعتقدونه، ولو بطرف خفي ليتمسكوا بأية حجة، ولو كانت واهية لا تدل على المعنى الذي ينشدونه. وهم ينشرون ذلك في كتبهم ورسائلهم. يقول (رمسيس ونيس): (عقيدة التثليث ليست جديدة على الكتاب المقدس، بل هي خيط قرمزي يبدأ من التكوين إلى الرؤيا[1]، وهذا دليل واضح على أن فكرة التثليث والتوحيد ليس حادثاً من اختراع الكنيسة الأولى بل هو فكر الله منذ الأزل)[2].

ويأتي بنصوص من العهدين يدلل فيها على صحة ما ذهب إليه ومن هذه الأدلة[3]:

١ ـ **من العهد القديم**: في التكوين: (وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا)[4]، وفي سفر العدد: (يباركك الرب ويحرسك، يضيء الرب بوجهه عليك ويرحمك، يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاماً)[5].

ويؤوِّل (ونيس) هذا النص على هواه فيقول: (يباركك الرب ويحرسك (الله الأب) ويضيء الرب بوجهه عليك ويرحمك (الله الابن) ويرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاماً (الله الروح القدس) ويظهر من هذاالتفصيل التكلف الواضح في ليّ أعناق النصوص، حتى توافق هواه، وما ذهب إليه، وإلاَّ فما الدليل على هذا الفصل في معنى الرب في النصوص الثلاثة؟.

---

(١) أي من سفر التكوين الذي يبتدأ به العهد القديم إلى نهاية سفر الرؤيا الذي ينتهي به العهد الجديد.

(٢) هل الله موجود، رمسيس ونيس: ١٧/١٨.

(٣) هل الله موجود، رمسيس ونيس: ١٨.

(٤) تكوين: ١/٢٦.

(٥) العدد: ٦/٢٤ ـ ٢٦.

وفي أشعيا: (والآن السيد الرب أرسلني وروحه)[1]، وعند الرجوع إلى سفر أشعيا نجد الحديث كله في الإصحاح الثامن والأربعين عن خطاب الله لإسرائيل يعقوب، وتلاحظ هذه العبارة محشوة نافرة عن معنى السياق تظهر عليها سمة التحريف والزيادة، يقول (رمسيس ونيس): وتظهر هذه الحقيقة أيضاً في حادثة ظهور الله لإبراهيم (تكوين: ١٨/١ ـ ٣٣) وحادثة ظهور الله في العليقة (خروج: ٣/١ ـ ٢٢)[2].

ولقد قمت بالرجوع إلى القصتين في العهد القديم لأرى عقيدة التثليث فيهما، فلم أجد فيهما مجرد إشارة لذلك وإنما كان استدلاله نابعاً من هوىً في نفسه يستطيع بذلك أن يسخر أي نص يؤوله ويحرفه، فيعتبره دليلاً لما ذهب إليه.

أمّا قصة إبراهيم في سفر التكوين فقد رواها القرآن الكريم: ﴿هل أتاك حديثُ ضيف إبراهيم المكرمين. . .﴾[3].

ورواها هذا الإصحاح مفصلة، ومن نصوص هذا الإصحاح[4]: (. . . فرفع عينيه ونظر فإذا ثلاثة رجال. . فلما نظر ركض لاستقبالهم)، ويتابع الإصحاح قصة إكرامهم وتبشيرهم لسارة بمولود، ثم محاورته معهم حول قوم لوط. . . (وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم، وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب).

فموجز القصة مجيء ملائكةٍ على إبراهيم عليه السلام، ومناجاة إبراهيم لربه، فلا تثليث فيها ولا أقانيم. وكذلك الشأن في حادثة ظهور الله لموسى عليه السلام التي رواها سفر الخروج في الإصحاح الثالث، وهي قصة إرسال الله تعالى لموسى عليه السلام، وابتداء نبوته، ورسالته إلى فرعون وملئه، والقصة أيضاً وردت في القرآن الكريم: ﴿هل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني

---

(١) أشعيا: ٤٨/١٦.

(٢) هل الله موجود، رمسيس ونيس: ١٨.

(٣) سورة الذاريات: الآيات ٢٤ ـ ٣٧.

(٤) راجع: سفر التكوين: ١٨/١ ـ ٣٣.

آنست ناراً. . . فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى. . .﴾[1].

والقصة في هذا الإصحاح لم تشر أيضاً إلى الحديث عن التثليث، ولا إلى الأقانيم، وموجزها أن موسى عليه السلام بينما كان عائداً من (مديان). . ظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة، وإذا العليقة تتوقد بالنار، ولم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم، فناداه الله من وسط العليقة قائلاً له: لا تقترب إلى ها هنا، اخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة، ثم قال: أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحاق، وإله يعقوب. . . وأرسله الله إلى فرعون ليخلص بني إسرائيل من ذل العبودية. . فقال موسى: (ومن أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر، فقال: إني أكون معك وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك)[2].

ولست أدري كيف يستدل هذا القسيس من هذه القصة على التثليث والأقانيم؟

٢ ـ **أدلته من العهد الجديد**: يقول (رمسيس ونيس): (في العهد الجديد يظهر بجلاء هذا التعليم في التبشير بميلاد يسوع المسيح)[3].

ومن الأدلة التي يذكرها (الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك لذلك القديس المولود منك يدعى ابن الله)[4].

وهذا النص خطاب من الملاك لمريم حين جاءها المخاض، والمعنى المتبادر منه مع ما فيه من التحريف أن الملك بشرها وأمرها أن لا تضجر، فإن الروح القدس (وهو جبريل عليه السلام) يرعاها، وقوة الله تعالى تظلها لأنها ستلد نبياً.

---

(١) سورة طه: الآيات ٩ ـ ١٢.

(٢) انظر: الخروج: ٣.

(٣) هل الله موجود، رمسيس ونيس: ١٨.

(٤) لوقا: ١/٣٥.

كما يستدل هذا القسيس على التثليث بما ورد في الأناجيل من عبارة التعميد، وهو يستدل أولاً: بحادثة عماد المسيح التي رويت في الإصحاح الثالث من إنجيل متّى:

(فلما اعتمد يسوع صمد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه)[1].

والنص يدل على بداية نبوة المسيح عليه السلام، ونزول الوحي الأمين عليه، فقد نزل مثل حمامة، وقد كان ينزل على الأنبياء بأشكال كثيرة.

وفي ختام إنجيل متى وردت عبارة التعميد المشهورة: (فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس)[2].

هذه العبارة ـ إذا صحَّ ورودها ـ فإنها لا تدل على التثليث، ولم يكن أتباع المسيح وحواريوه يفهمون منها هذا المعنى، ويمكن حملها على معان أخرى غير التثليث.

وحول هذه العبارة قالت دائرة المعارف الفرنسية: (نعم إن العادة في التعميد كانت أن يذكروا عليه اسم الأب والابن والروح القدس، ولكنا سنريك أن هذه الكلمات الثلاث كان لها مدلولات غير ما يفهم منها نصارى اليوم، وأن تلاميذ المسيح الأولين الذين عرفوا شخصه وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأركان الثلاثة المكونة لذات الخالق، وما كان (بطرس) حواريه يعتبره أكثر من رجل يوحى إليه من عند الله)[3].

ويرد الشيخ (عبد الله العلمي) على عبارة التعميد هذه فيقول: (هذه العبارة ليس فيها أدنى دلالة على ما يفهم أهل التثليث من أن الواحد الفرد هو ثلاثة أقانيم،

---

(١) متى: ٣/١٦.

(٢) متى: ٢٨/١٩.

(٣) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ١٠/٢٠٢. (نقلاً عن دائرة المعارف الفرنسية).

بل هي صريحة في أن كل واحد من هذه الثلاثة هو غير الآخر تماماً، لأن العطف يقتضي المغايرة، أي عمدوهم باسم كل واحد من هذه الثلاثة المتغايرة، فالآب هو الله، وهو أب لكل الأنبياء والأولياء والقديسين، بل لعموم المؤمنين كما هو مصرح في الإنجيل، والابن الذي يراد منه المسيح، كما أطلق على المسيح فقد أطلق أيضاً على إسرائيل وآدم وداود وسليمان، وعلى كل صالح، كما هو مصرح في الأناجيل أيضاً، إذ ليس هو خاص بالمسيح، وأما روح القدس فهو ملك الوحي أو الوحي نفسه الذي يتنزل على المسيح وأمثاله من الأنبياء لا على خصوص المسيح)[1].

كما بين (ابن تيمية) عند هذا النص أن الآب هو الله، والابن هو المسيح، وروح القدس هو جبريل عليه السلام، والمراد بعبارة التعميد عنده: (مروا الناس أن يؤمنوا بالله ونبيه الذي أرسله، وبالملك الذي أنزل عليه الوحي الذي جاء به، فيكون ذلك أمراً لهم بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا هو الحق الذي يدل عليه صريح المعقول وصحيح المنقول)[2].

ويقول عن هذا التفسير: (وهذا تفسير ظاهر ليس فيه تكلف ولا هو من التأويل)[3]، وبذلك فإن عبارة التعميد التي يحتج بها النصارى لا تدل على الثالوث المقدس عندهم، وكان الناس في العصر المسيحي الأول يفهمونها على بساطتها، لأن فكرة ألوهية المسيح أو ألوهية الروح القدس لم تكن قد عرفت بعد، وبذلك تقول دائرة المعارف الفرنسية: (كان الشأن في تلك العصور أن إنسانية عيسى كانت غالبة مدة تكون الكنيسة الأولى من اليهود المتنصرين، فإن الناصريين (سكان الناصرة) وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهودية اعتقدت بأن عيسى إنسان بحت مؤيد بالروح القدس).

---

(١) سلاسل المناظرة الإسلامية النصرانية، عبد الله العلمي: ١٧، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٠هـ.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين بن تيمية: ٩٨/٢، مطبعة المدني (المؤسسة السعودية بمصر) سنة ١٣٨٣هـ.

(٣) نفس المرجع: ٩٩/٢.

وتستشهد دائرة المعارف الفرنسية بأقوال قدماء المؤرخين، فتؤكد صحة ما ذهبت إليه، ومن هؤلاء المؤرخين، جوستن مارستر (مؤرخ لاتيني في القرن الثاني) حيث يقول: (إنه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح، ويعتبرونه إنساناً بحتاً وإن كان أرقى من غيره من الناس، وحدث بعد ذلك أنه كلما نما عدد من تنصر من الوثنيين، ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل).

هذه خلاصة لما ذكرته دائرة المعارف الفرنسية عند كلمة ثالوث، نقلها لنا الأستاذ محمد فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين[1].

وهذه الخلاصة تثبت لنا أن العصر الرسولي وعصر الحواريين من بعده لم تكن فيها عقيدة التثليث معروفة للناس.

هذا والمتتبع للروايات التاريخية يؤكد تأخر هذه العقيدة، والأستاذ (بطرس البستاني) مع أنه يقول: إن الجدال عن الأقانيم في اللاهوت ابتدأ في العصر الرسولي، إلاّ أنه يؤكد تأخر نشأة هذه التعاليم فيقول: (وقد نشأ على الأكثر عن تعاليم الفلاسفة الهيلانيين والغنوصيين، فإن (تيوفيلوس) أسقف أنطاكيا في القرن الثاني استعمل كلمة (ترياس) باليونانية ثم (ترتليانوس) أول من استعمل كلمة (ترينيتاس) المرادفة لها ومعناها الثالوث)[2].

وقول (البستاني): إن الجدال عن الأقانيم ابتدأ في العصر الرسولي لا يعني أن الجدال كان عن الأقانيم كوحدة متكاملة، وإنما كان الجدال حول ألوهية كل أقنوم على حدة، هذا إن صح هذا الكلام، مع أن الحقيقة أن ألوهية المسيح قد انتشرت كشائعة عندما أشاعها جنود الرومان كما أسلفنا، إلاّ إذا اعتبرنا أن العصر الرسولي يمتد حتى (بولس) الذي نشأت في ذهنه فكرة ألوهية المسيح وبنوته، فكانت بذرة وأساساً لفكرة الثالوث.

أما الذين يتكلفون عناء الاستدلال على عقيدة التثليث من الكتاب المقدس،

---

(١) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ١٠/٢٠٢.

(٢) دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٣٠٥.

فـإنهم لن يستفيدوا إلاَّ العنـاء، ولن يصلوا إلى استـدلال ينهض ليصلح حجـة على صحة ما ذهبوا إليه، وحتى النصـوص التي استدلـوا بها فـإنها تـدل على ما يقـولون بـطريق الـظن والاحتمـال لا بـطريق القـطع واليقين، والـدليـل إذا صـاحبـه الـظن والاحتمال بطل.

ورد في دائـرة المعارف الفـرنسية: (جـاء لفظ روح الله ونفخة الله في التـوراة ولـم يقصد بها إلاَّ أصل القدرة الإلَهية أو طريقـة تأثيـر تلك القدرة. . . وقـد جاء في الأنـاجيل ذكـر الآب والابن والروح القـدس، ولكنـه لا يـوجـد فيهـا إشـارة مـا إلى التثليث، ولا إلى ما يشير إليـه العلم اللاهـوتي اليوم، فـالإلَه الـذي كان يتكلم عنـه عيسى عليـه السلام وحـوارييه هـو الله الواحـد رب الأنبياء والأوليـاء الذي تجب لـه العبـادة وحده، وكـان عيسى عليه السـلام يدعـو هـذا الإلَـه بـالآب ولا يـدعـو ربـاً سواه)[1].

والسبب الذي جعل رجال الدين من النصارى يعتنون بـإبراز الأدلـة النقلية من الكتاب المقدس على التثليث، إدراكهم أن الأدلة العقلية وحدها لا تصلح لبيان هذه العقيدة، فهي تصطدم مع أبسط قواعد العقل والمنطق، وقد نقلنا بعض اعترافـاتهم في ذلـك، فلجأوا إلى طـريق النقل، ولكنهم في الحقيقـة لم يفلحـوا أيضـاً، لأنهم لـم يعثروا على نصوص تدل بصريـح اللفظ على التثليث وعقيدة الأقـانيم، بل تفيـد بأبعد أنواع الاحتمالات، ويمكن تأويلها أو صرفها إلى مقصود آخر، هـذا مع العلم أن نصوصهم وكتبهم نفسها ينقصها السند المتصل والثبوت العلمي.



---

(١) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ١٠/١٩٩.

المبحث الخامس

فكرة ألوهية المسيح ومنشؤها

مع أن النصارى يؤمنون بالأقانيم الثلاثة إلَّا أنهم يعظمون الأقنوم الثاني (أقنوم الابن) أكثر من غيره، وحوله معظم معتقداتهم، وفكرة تأليه الابن هي التي بنيت عليها فكرة الأقانيم الثلاثة.

ويعتقد النصارى أن المسيح (هي كلمة الله التي خرجت من الذات فصارت ابناً للذات وصارت الذات أباً للكلمة، وصارت كل من الذات والكلمة أقنوماً قائماً بذاته يدعى الأول (الله الآب) ويدعى الثاني (الله الابن)[1].

والسبب الرئيسي لألوهيته الابن عند النصارى هو فكرة الخطيئة الموروثة، ومحبة الله تعالى للإنسان، فأبو البشر ارتكب الخطيئة فبقي الذنب على ذريته من بعده، ومحبة الله لهذا الإنسان شاءت أن تخلصه من أرجاس هذه الخطيئة فأرسل ابنه الوحيد ليتحمل عناء الألم والصلب، وبذلك يكون قد فداهم بنفسه.

يقول (رمسيس ونيس) : (المسيحية لا تؤله إنساناً، ولا تنادي بإنسان اسمه (يسوع) صار إلّهاً، لكنها تنادي بأن الله في حبه للإنسان تنازل فأخذ صورة إنسان لكي يفدي الإنسان من قبضة ودينونة إبليس)[2].

بمعنى أن الإلّه لم يرتفع قدره بأن انتقل من الإنسانية إلى مرتبة الألوهية، ولكنه على العكس من ذلك انحط قدره فنزل من مرتبة الألوهية إلى مرتبة البشرية، تعالى الله عن ذلك. ولذلك فإن صاحب (تاريخ الأقباط) لم يعتبر عن هذا التجسد

---

(١) الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ١٠٤.

(٢) هل الله موجود، رمسيس ونيس: ص ٢٠.

بهذا الوصف، بل شرح عملية التجسد هذه قائلاً: (حين خالف آدم وصية الله جلب الموت على نفسه وسائر ذريته، وطرد هو ذريته من الفردوس. . لذلك دبرت الحكمة الإلّهية واسطة بها يخلص الإنسان، ويستوفي العدل الإلّهي حقه، وتلك هي ترقية طبيعة الإنسان إلى رتبة الألوهية باشتراكهما مع بيعة الله نفسه حتى يتسنى لها أن تكفر عن معاصيها، ولم يكن ذلك ممكناً إلاَّ بتجسد ابن الله، وتأله طبيعته البشرية حتى تتم المصالحة بين الله والإنسان)(١).

ومع أن المسيح هو ابن الله عند النصارى متولد منه كما يقولون إلاَّ أنهم يقولون بأنه مساوٍ للآب والروح القدس في كل الصفات الألّهية، فيطلقون على المسيح ألقاب الله كلها ويصفونه بأوصاف الله ويعتقدون بأنه يعمل أعمال الله من خلق وتدبير، وأنه يغفر الخطايا ويتوجه إليه العباد بالعبادة.

ويستدل (رمسيس ونيس) و (زكي شنودة) على ذلك بنصوص من العهد الجديد نذكر منها ما يلي(٢):

١ ـ **إطلاق ألقاب الله على المسيح**: ففي إنجيل متى: (ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا)(٣).

ويستدلون منها على أن المسيح هو الله. كما يطلقون عليه (الرب) ويقول (ونيس): (وقد دعي المسيح رباً في العهد الجديد حوالي (٤٠٠) مرة)(٤).

وهو الكلمة، ومن ذلك ما ورد في مستهل إنجيل يوحنا: (وفي البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله هذا كان في البدء عند الله، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس)(٥).

---

(١) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٢) راجع: تاريخ الأقباط، شنودة: ١/٢٤٢ ـ ٢٤٣، وانظر: هل الله موجود، رمسيس ونيس: ص ٢١.

(٣) متى: ١/٢١.

(٤) هل الله موجود: ص ٢١.

(٥) يوحنا: ١/١ ـ ٥.

[2] ـ **المسيح له نفس أوصاف الله:** فهو الأزلي كما في رسالة بولس إلى العبرانيين: (يسوع المسيح هو أمسا واليوم إلى الأبد)[1].

وهو الحاضر في كل مكان: (وليس أحد صعد إلى السماء إلاَّ الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء)[2].

وهو العليم بكل شيء، كما في إنجيل يوحنا: (الآن نعلم أنك عالم بكلّ شيء، ولست تحتاج أن يسألك أحد، ولهذا نؤمن أنك من الله خرجت)[3].

وهو القدوس كما في رسالة بولس إلى العبرانيين: (قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات)[4].

٣ ـ **المسيح يعمل أعمال الله:** فهو الخالق: (كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان)[5].

وهو الذي يغفر الخطايا كما في مرقص: (فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج: يا بني مغفورة خطاياك)[6].

وهو الذي يقيم فالموتى روحياً وجسدياً، كما في إنجيل يوحنا: (لا الحق الحق أقول لكم أنه تأتي ساعة، وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون)[7].

وهذا الأنجيل يروي قصة إحيائه لعازر: (صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجاً، فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات)[8].

---

(١) العبرانيين: ١٣/ ٨.
(٢) يوحنا: ٣/ ١٣.
(٣) يوحنا: ١٦/ ٣.
(٤) العبرانيين: ٧/ ٢٦.
(٥) يوحنا: ١/ ٣.
(٦) مرقص: ٢/ ٥.
(٧) يوحنا: ٥/ ٢٥.
(٨) يوحنا: ١١/ ٤٤.

ويختص المسيح دون الآب بالدينونة، فهو الذي يدين العباد يوم الحساب: (لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن)[1].

فالمسيح عند النصارى هو إله، ففي إنجيل يوحنا أن توما أجاب المسيح قائلاً: (أجاب توما وقال له: ربي وإلهي)[2].

وفي رسالة (تيموثاوس) الأولي: (الله ظهر في الجسد)[3].

والعهد الجديد يحوي نصوصاً كثيرة على هذه المعاني، يستدل بها النصارى على ألوهية السيد المسيح، ولكن النصوص الصريحة منها تجدها في الإنجيل الرابع والرسائل وبخاصة رسائل (بولس).. أما الأناجيل الثلاثة الأولى، فإنها تخلو من نص صريح دال على ألوهية المسيح عليه السلام وقد أشرنا إلى ذلك وبينا الغرض الذي من أجله كتب إنجيل يوحنا. وعلى أية حال فإن النصارى يؤمنون بألوهية المسيح سواء ذكرته الأناجيل الثلاثة الأولى أم لم تذكره، وهم يعتقدون هذا الإيمان سراً عميقاً، لا يدركه إلَّا المؤمنون به.

يقول القس (منيس عبد النور): (عندما نفكر في لاهوت المسيح نقف في خشوع لأننا نتأمل غير المحدود الذي تواضع وأخذ صورة البشر... ولاهوت المسيح سر، وعظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد)[4].

وما دامت مسألة ألوهية المسيح هذه طارئة دخيلة على النصرانية لم يؤمن بها الجيل الذي عاش مع السيد المسيح عليه السلام ولا الجيل الذي يليه، فنودّ هنا أن نشير بإيجاز إلى منشأ هذه العقيدة، ولعل ولادة المسيح من غير أب وهي بلا شك خارقة لمألوف العادات، كانت عاملاً ساعد دعاة الانحراف في استجابة الناس إليهم حتى إذا جاء القرن الرابع وجدت الفكرة قد عمت ورسخت في أذهان الكثيرين في ذلك المجتمع..

---

(١) يوحنا: ٥/٢٢.

(٢) يوحنا: ٢٠/٢٨.

(٣) تيموثاوس الأولى: ٣/١٦.

(٤) ألقاب المسيح، القس (منيس عبد النور)، دار الثقافة المسيحية ـ بمصر.

هـذا بالإضـافة إلى العـوامل الأخـرى التي ذكرنـاها عنـد حديثنـا عن مصـادر الانحراف. وهنالك فكرتان مهّدتا للاعتقاد بألوهية المسيح وهما: بنوة المسيح وأنـه الكلمة، وكلاهما استعملها الكتاب المقدس.

فمسألة ألوهية المسيـح سبقتها فكـرة بنوتـه: (إن منشأ هـذه العقيدة في تـأليه المسيح يرجع إلى ما ذكر عنه بأنه ابن الله الوحيد، وأن المسيح حادثة غير عادية في تاريخ البشرية، ولم تكن هناك حاجة في الأصل لتأكيد غرابة هذه الحادثـة سيما وأن اليهودية السابقة للمسيحيـة قد مهـدت لمجيء المسيح، وكـان مجيئه البـرهان على الدعوى السابقة)[١].

والأناجيل التي أطلقت على المسيح عليه السلام لقب (ابن الله) ورد فيها هذا اللقب أيضـاً على غيـره، وأطلقت البنـوة على المؤمنين لتمييـزهم، وقـد ورد هـذا المعنى العام في رومية: (لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبنـاء الله، إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً لا خوف، بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبـا الأب، الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله)[٢].

ولكن الإنجيل الرابع الذي انفرد ببيان ألوهية المسيح بصريح اللفظ والعبارة، ميز بين بنوة المسيح والبنوة التي وردت بمعناها العام فأطلق على المسيح: (ابن الله الوحيد)، (وإن تفرد الإنجيل الرابع بإطلاق كلمة (الابن) على المسيح وحده واضح ولم تستعمل هذه الكلمة للدلالة على المؤمنين)[٣].

وقد جاء في هذا الإنجيل: (لأنه هكذا أحب الله هـذا العالم كثيـراً حتى بذل ابنه الوحيد)[٤].

---

(١) O. Sydney Baer, from the apostlis father to the apostlis cread. P. 76. Newyork. Oxford univercity press 1964.

(٢) رومية: ٨/١٤ ـ ١٦.

(٣) O. Sydney Baer. P.77.

(٤) يوحنا: ٣/١٦.

ويحاول بولس أن يخرج من الاشتراك اللغوي بين ابن النسب وابن المحبة والاعتبار، فيقول في رسالته إلى (كرنثوس): (لنا إله واحد الأب الذي منه جميع الأشياء ونحن له، ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به)(١).

وعلى كلٍّ فإن كلمة (الوحيد) التي أضيفت إلى (ابن الله) عن المسيح عليه السلام تشير إلى المصطلح المسيحي اللاهوتي الذي يجعل من المسيح ابناً وحيداً لله، وهذه الكلمة هي القاعدة التي اعتمد عليها مجمع نيقيا فأطلق على المسيح: (الابن الوحيد المولود من الآب).

والأمر الثاني الذي اعتمد عليه لبيان ما يسمى بألوهية المسيح، القول بأن المسيح كلمة الله: (وهذا هو الاصطلاح اليوناني للكلمة سواء أكانت منطوقة أم مكتوبة، وهي على كل حال شيء معقول: وهي تنقل المعاني، كما أنها ناتجة عن فكرة منطقية، وسواء في التراث الديني اليهودي أو الهيليني فإن الكلمة (logos) لها أهمية كبيرة، لأن اليهود وغيرهم من الأمم لهم اعتقاد بأن الذات الإلٓهية لها نوع تنزل أو كشف أو خلق، والكلمة هي الوسيط لمثل النشاط الإلٓهي أو الكشف الذاتي)(٢).

وأوضح نص ورد به لفظ (الكلمة) ما استهل به يوحنا إنجيله: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله)(٣).

وهذا النص بلا شك تظهر من خلاله الصيغة الفلسفية التي لا تجدها في نصوص الأناجيل اليونانية وفلسفتها المنتشرة آنذاك.

ونختم حديثنا عن بنوَّة المسيح بقول الأستاذ (شارل جيني بير): والنتيجة الأكيدة لدراسة الباحثين هي: (أن عيسى لم يدَّع قط أنه هو المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه قط أنه (ابن الله) وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل بالنسبة إلى

---

(١) كورنثوس الأولى: ٨/٦.

(٢) O. Sydney Baer, Apostlis father. P.78.

(٣) يوحنا: ١/١.

اليهـود سوى خـطأ لغوي فـاحش. . . كذلـك لا يسمـح لنـا أي نص من النصـوص الإنجيلية بإطـلاق لفظ (ابن الله) على عيسى، فتلك لغة لا يفـرقها إلَّا الـذين تأثـروا بالثقافة اليونانية، إنها اللغة التي استخدمها القـديس بولس، كمـا استخدمهـا مؤلف الإنجيـل الرابـع، فقد وجـدا فيها معـاني عميقة، وعلى قـدر من الوضـوح بالنسبـة إليهما)[1].

ثم يبين الأستاذ جيني بير تـطور هذا اللفظ (ابن الله) فيقـول: (يمكن ليهودي أن يعتبر نفسه عبداً ليهوه لا ابناً ليهوه، ونعتقد أنه من المحتمـل أن يكون عيسى قـد تصـور نفسه (عبـد الله) وتقدم للنـاس بهذه الصفـة، والكلمة العبـرية (عبـد) كثيـراً ما تترجم إلى اليونانية، بكلمة تعني (خادماً) و(طفـلاً) على حد سـواء وتطور كلمـة (طفل) إلى كلمة (ابن) ليس بـالأمر العسيـر، ولكن مفهوم (ابن الله) نبـع من العالم الفكري اليوناني)[2].



(١) المسيحية نشأتها وتطورها، شارل جيني بير: ص ٣٩.

(٢) نفس المرجع: (هامش ٣٩).



المبحث السادس

ألوهية الروح القدس

يعتقد النصارى ألوهية الروح القدس، (الأقنوم الثالث) من أقانيم الثالوث المقدس، وقد أقرت ألوهيته في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م، وكان هناك خلاف حول هذا الأقنوم فقال هذا المجمع بألوهيته.

يقول صاحب تاريخ الأقباط عن الروح القدس: (وهو الأقنوم الثالث من اللاهوت المقدس، وهو مساو للآب والابن في الذات والجوهر والطبع، وهو روح الله وحياة الكون ومصدر الحكمة والبركة ومنبع النظام والقوة، ولذلك فهو يستحق العبادة الإلَهية)(١).

فالروح القدس إله مستقل بنفسه عندهم، يقول الأستاذ يس منصور: (إن الروح القدس والله الأزلي فهو الكائن منذ بدء الخليقة، والخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء والحاضر في كل مكان، وهو السرمدي غير المحدود)(٢).

ولا خلاف بين النصارى في ألوهية الروح القدس، ولكن الخلاف في انبثاقه (فمجمع نيقية ومجمع القسطنطينية حكما بأن الابن والروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت وأن الابن ولد منذ الأزل من الآب، وأن الروح القدس منبثق من الابن أيضاً، وقد قبلت الكنيسة اللاتينية هذه الزيادة وتمسكت بها، أما الكنيسة اليونانية فمع أنها كانت في أول الأمر ساكنة لا تقاوم، إلَّا أنها أقامت الحجة فيما بعد على تغيير القانون حاسبة ذلك بدعة)(٣)، وعلى ذلك الكنيسة الأرثوذكسيَّة

---

(١) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/٢٤٦.

(٢) الله واحد أم ثالوث، مجدي مرجان: ١١٦ (نقلاً عن رسالة التثليث (التوحيد: ٤٥).

(٣) دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٦/٣٠٥.

ومنها القبطية، فصاحب (تاريخ الأقباط) يقول: (والروح القدس منبثق من الأب وحده فالابن ليس له انبثاق)[1]. ومع أن النصارى يعلمون أن ألوهية الروح القدس ما عرفت إلاَّ في القرن الرابع، حتى أن مجمع نيقيا لسنة ٣٢٥م لم يتعرّض لها، وبقيت موضع خلاف عندهم حتى عند مجمع القسطنطينية سنة٣٨١م، ومع ذلك فإنهم يحاولون الاستدلال على ألوهية الروح القدس من الكتاب المقدس.

ولقد قدر صاحب تاريخ الأقباط مجموعة من نصوص أسفار العهد الجديد، واعتبرها أدلة على ألوهية الروح القدس[2].

ولدى مراجعة هذه النصوص في الكتاب المقدس لم أجد فيها نصاً واحداً يدل على ما ذهب إليه، ومن هذه النصوص التي استدل بها، ما ورد في (أعمال الرسل) فقال بطرس: (فالكذب على الروح القدس كذب على الله)، ولا يعني أنَّ روح القدس هو الله، وما ورد في إنجيل يوحنا: (وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر، يمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه)[3].

وهذا النص لا يدل على روح القدس وإنما هو بشارة بنبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، فلفظ (المعزي) ورد في طبعات أخرى بلفظ (فارقليط)، وهذا اللفظ تعريب لكلمة (بيريكليتوس) اليونانية، ومعناها: الذي له الحمد الكثير، ويحدثنا الشيخ عبد الوهاب النجار أنه كان طالباً بدار العلوم، وكان يجلس بجانبه في درس اللغة العربية العلامة الدكتور (كارلو نيلينو) المستشرق الإيطالي، وكان يحضر درس اللغة العربية بتوصية من الحكومة الإيطالية، فانعقدت أواصر الصحبة المتينة بيْنهما وفي ليلة السابع والعشرين من رجب دار بينهما نقاش عن المعراج وصعود المسيح، ويقول الشيخ (النجار): (ثم سألته وأنا أعلم أنه حاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اليهود القديمة، ما معنى (بيريكليتوس) فأجابني بقوله:

---

(١) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/٢٤٧.

(٢) نفس المرجع: ١/٢٤٧.

(٣) يوحنا: ١٤/١٦ ـ ١٧.

إن القسس يقولون: إن هذه الكلمة معناها (المعزي) فقلت إني أسأل الدكتور (كارلو نيلينو) الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة، ولست أسأل قسيساً، فقال: إن معناها الذي له حمد كثير، فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من (حمد) فقال: نعم. فقلت: إن رسول الله ﷺ من أسمائه (أحمد) ثم ازددْتُ بعد ذلك تثبتاً في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[1][2].

فهذا هو معنى لفظ (الفارقليط) الذي ورد خمس مرات في إنجيل يوحنا، يحاول النصارى ترجمته بمعنى (المعزي) وفسروه بالروح القدس، صرفاً لهذا اللفظ عن معناه الحقيقي وهو اسم نبينا محمد ﷺ.

ويستدل (زكي شنودة) لذلك على ألوهية الروح القدس بخاتمة إنجيل متى: (فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم باسم الآب والابن والروح القدس)[3].

وقد ذكرنا من قبل ما ذكرته دائرة المعارف الفرنسية عن المعنى المقصود لهذه العبارة الذي كان يعرفه الناس في العصر الأول، كما تقول هذه الدائرة: (جاء في مواطن من الإنجيل ما يسوّغ هبة روح القدس شخصية مستقلة، كما ورد في تعميد المسيح، فقد ذكر فيه الآب والابن وروح القدس لثلاث شخصيات متميزة، وخص الروح القدس بالذكر، فقيل إنها نزلت على عيسى بشكل حمامة)[4].

ومن كل ما مضى يتبيَّن لنا أن الحجج والأدلة التي استدل بها النصارى على ألوهية المسيح عليه السلام أو ألوهية الروح القدس إنما هي حجج واهية، لا تنهض لأن تكون أدلة قاطعة على صحة ما ذهبوا إليه، وإنما هي أدلة احتمالية ظنية.

ولذلك كانت عقيدة التثليث بأقانيمها الثلاثة موضع خلاف طويل بين النصارى

---

(١) سورة الصف: الآية ٦.

(٢) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار: ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨. (الهامش) الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٣) متى: ١٩/٢٨.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدي: ١٠/١٩٩ نقلاً عن دائرة المعارف الفرنسية.

أنفسهم في شتى العصور، ولقد عمدت الكنيسة إلى تكفير كل من يخرج على تعاليمها وحرمانه، والذي يود أن يتعرف على هؤلاء الخارجين على تعاليم الكنيسة المخالفين لآرائها ومعتقداتها وبخاصة فيما يتعلق بلاهوت المسيح أو لاهوت الروح القدس، فما عليه إلَّا أن يقرأ ما تسميه الكنيسة بالهرطقة أو الأرطقة. (والهراطقة أناس خرجوا عن الإيمان، أرادوا أن يخضعوا حقائق الإيمان لمقاييس العقل البشري، فألقوا بأنفسهم في التهلكة أمثال آريوس ومقدونيوس ونسطور)[1].

هكذا يعرفهم القس زكريا بطرس، وبهذا الوصف يصفهم رجال الكنيسة دائماً، وكلما حاول شخص مخالفة الكنيسة رموه بهذه التهمة، تهمة الهرطقة كناية عن الزندقة والإلحاد.

وكل هذا يدل على أن العقائد الأساسية في النصرانية لم تحظ بالاجتماع عندهم، وأكثر مسألة ظهر فيها المخالفون هي عقيدة الثالوث، وقد تحدثنا عن الحركة الآريوسية وثورتها على ألوهية السيد المسيح ومساواته للآب، وبقيت هذه الحركة تظهر وتختفي بين الفينة والأخرى رغم المعارضة الشديدة من الكنيسة لها، وقول بطرس البستاني في دائرة معارفه: (وكتب اللوثريين والكنائس المصلحة أبقت تعليم الكنيسة الكاثوليكية للثالوث على ما كان عليه دون تغيير، ولكن قد ساد ذلك منذ القرن الثالث عشر جمهور كبير من اللاهوتيين، وعدة طوائف جديدة كالسوسانيين والجرمانيين والموحدين والعموميين وغيرهم)[2].

فهذه الفرق كلها تنكر تعليم الكنيسة بشأن التثليث ولا تؤمن به وهذا كان في القرن الثالث عشر، والنصرانية قد قطعت فترة طويلة بعد إقرار عقائدها.

ثم يتابع المعلم بطرس البستاني فيقول: (وانتصار مذهب العقليين في الكنائس اللوثرية والمصلحة أضعف مدة من الزمان اعتقاد الثالوث بين عدد كبير من اللاهوتيين الجرمانيين)[3].

---

(١) الله واحد في الثالوث القدوس، زكريا بطرس: ص ٥٣.

(٢) دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٦/٣٠٦.

(٣) دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٦/٣٠٦.

ثم يذكر لنا (البستاني) تفسيرات الفلاسفة اللافانين تلك التفسيرات المخالفة لما ذهبت إليه الكنيسة وفرضته على المؤمنين بها فيقول: (وقد ذهب (كنت) إلى أن الآب والابن والروح القدس إنما تدل على ثلاثة صفات أساسية في اللاهوت وهي القدرة والحكمة والمحبة، أو على ثلاثة فواعل عليا هي: الخلق والحفظ والضبط، وقد حاول كل من (هيجن) و (شلنغ) أن يجعلا لتعليم الثالوث أساساً تخيلياً، وقد اقتدى بهما اللاهوتيون الجرمانيون المتأخرون وحاولوا المحاماة عن تعليم الثالوث بطرق مبنية على أسس تخيلية ولاهوتية، وبعض اللاهوتيين الذين لا يعتمدون على الوحي لا يتمسكون بتعليم استقامة الرأي الكنائسية، بالتدقيق كما هي مقررة في مجمعي (نيقيا سنة ٣٢٥ ـ والقسطنطينية سنة ٣٨١) المسكونين)[١].

هذا كله يدل على أن مسألة التثليث لم تكن موضع التسليم عند النصارى أنفسهم في يوم من الأيام، بل كثرت حولها الآراء، وتعددت الفرق، وثار حولها الجدل، وحرم من أجلها الكثيرون، وهذا وحده يكفي دليلاً على عدم صلاحيتها لتكون عقيدة دينية لا بد من الإيمان بها.

وسنفرد الآن مبحثاً خاصاً لبيان بطلان هذه العقيدة من الناحية العقلية علاوة على أنها لا تجد لها سنداً يؤيدها من نصوص الكتاب المقدس نفسه.



(١) نفس المرجع: ٣٠٦/٦.

المبحث السابع

بطلان عقيدة التثليث

عرفنا فيما مضى أن عقيدة التثليث لا سند لها في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. . وما استدل به النصارى من أمارات تدل على ذلك، بينا أنها لا تصلح دليلاً على التثليث، فمحاولاتهم في الاستدلال لهذه العقيدة باءت بالفشل، لأنها عقيدة متأخرة عن كتابة الأناجيل، ولم تكن معروفة عند الأجيال الأولى التي عاشت مع المسيح عليه السلام أو مع حوارييه وتلاميذه، كما أن العهد القديم لم يعرف هذه العقيدة إطلاقاً.

البراهين العقلية على بطلانها:

وبعد هذه الرحلة مع نصوص الكتاب المقدس التي اعتبرناها أدلة نقلية على بطلان التثليث، سنرى هنا تهافت هذه العقيدة أمام الأدلة العقلية، وذلك بإيراد البراهين العقلية التي تبرهن على بطلان هذه العقيدة وتناقضها، ولا بد لنا في هذا الموضع من الاستفادة مما كتبه علماء المسلمين الذين ردوا على عقائد النصارى الباطلة، واستعملوا في الرد سلاح العقل والعلم مثبتين أن هذه العقائد لا يمكن لرسول أو نبي أن يأتي بها، ونزهوا المسيح عليه السلام عن كل هذه الضلالات.

ومن أبرز هؤلاء الأعلام شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كتب كتابه المشهور (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)، وتلميذه ابن القيم وكتابه (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى)، والإمام القرطبي وكتابه (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام)، وقد حققه الدكتور (أحمد حجازي السقا)، والإمام أبو محمد بن حزم صاحب (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، وأبو الفتح الشهرستاني صاحب (الملل والنحل)، ولعل أروع ما كتب في الرد على النصارى

كتاب (إظهار الحق) الذي كتبه الشيخ رحمت الله الهندي (١٢٣٣ ــ ١٣٠٨هـ)، وما كتبه الإمام الفخر الرازي في تفسيره، وغير هؤلاء كثيرون، ولقد كان الرد على عقيدة التثليث الموضوع الأساسي في كل هذه الكتب، حيث بينوا عقيدة النصارى فيها، وردوا عليها، ولقد اطلعت على هذه الكتب إلَّا أنني لم أدوِّن في هذا البحث عن الجميع وذلك لأن أدلتهم تتشابه في كثير من الأحيان.

ومن البراهين العقلية على إبطال التثليث ما يلي:

١ ــ (عقيدة الثالوث عقيدة اجتهادية بحتة مصدرها فهم بعض رؤساء الدين لا غير. . . وكما أن التثليث لم يتضح في العهد القديم فإنه لم يتضح أيضاً في العهد الجديد، وإنما هو نتيجة أفهام بعض الرؤساء غير المعصومين)[١]، ولا يصح في منطق العقل أو الشرع أن تكون أمور العقائد من وضع البشر المنقطعين عن الوحي فأمور العقيدة يقررها الله تعالى، أو الرسل الذين يتلقون الوحي عنه.

٢ ــ النصارى يقولون ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة، ويدعون أنهم يعبدون إلٰهاً واحداً في ثلاثة أقانيم، (والتثليث يعني الكثرة التي لا يمكن عند ثبوتها توحيد وإلَّا لزم اجتماع الضدين، والواحد الحقيقي ليس له ثُلث صحيح، والثلاثة لها ثلث صحيح، وهو الواحد. والثلاثة مجموع آحاد ثلاثة، والواحد ليس مجموع آحاد، والواحد جزء من الثلاثة، فلو اجتمعا في محل واحد، لزم كون الجزء كلاً والكل جزءاً وهذا يستلزم كون الله مركباً من أجزاء غير متناهية بالفعل لاتحاد حقيقة الكل والجزء على هذا التقدير، والكل مركب فكل جزء من أجزائه مركب)[٢].

٣ ــ إذا كان المسيح عليه السلام أحد الأقانيم الثلاثة، ومعروف أنه تلحقه الأعراض البشرية، كالجوع والعطش والشبع والأكل، وغير ذلك من صفات خلْقية، بينما الأب والروح القدس لا يلحقهما شيء من هذا، فكيف يكون واحداً من تلك الثلاثة، ويلحقه ما ليس يلحقهما؟ وعلى هذا الاستفهام يجيب صاحب مقامع

(١) سلاسل المناظرة الإسلامية النصرانية، عبد الله العلمي: ص ٣٢٠ ــ ٣٢١.
(٢) إظهار الحق، رحمت الله الهندي، تحقيق د. السقا: ص ٣٣٥.

الصلبان فيقول: (فإن قلتم إن نصفه هو إلّه تام والنصف الآخر ليس الإلّه، يلزمكم إذا دعوتموه أن تقولوا: يا نصف الله ارحمنا، وإذا قيل لكم من إلّهكم؟ فقولوا: هو نصف المسيح، فيكون نصفه خالقاً ونصفه معبوداً لنصفه وليس بإلّه تام، على أنكم لم تفعلوا شيئاً من ذلك بل بدنه لديكم معبود.. فإذا جعلتموه كله إلّهاً فأنتم لا محالة تعبدون غير الله، ولا فرق عندكم بين الله وبين مخلوقاته)[1].

٤ ــ (لو وجد في ذات الله ثلاثة أقانيم حقيقية يلزم أن لا يكون الله حقيقة محصلة بل مركباً اعتبارياً، فإن التركيب الحقيقي لا بد فيه من الافتقار بين الأجزاء، فإن الحجر الموجود بجنب الإنسان لا يحصل بينهما أحدية، فإذا لم يفتقر بعض الأجزاء إلى بعضها، لم تتألف منها الذات الأحدية، على أن يكون الله في الصورة المذكورة مركباً، وكل مركب يفتقر في تحققه إلى كل جزء من أجزائه، والجزء غير الكل بالبداهة، فيلزم أن يكون الله ممكناً لذاته)[2].

٥ ــ (الآب إما أن يكون هو الابن أو هو غيره، فإن قالوا هو غيره سئلوا: من الملتحم في مشيمة مريم المتحد مع طبيعة المسيح، الآب أم الابن؟ فإن قالوا: الابن بطل أن يكون هو الآب، وخالفوا يوحنا إذ يقول في أول إنجيله: (وكان الكلمة الله)[3] فإذا كانت هي الله، والتحمت في مشيمة مريم، فالله تعالى نفسه التحم في مشيمة مريم، وفي أمانتهم أن الابن هو الذي التحم، وهذه وساوس لا نظير لها.. وإن قالوا: بل الآب فقد بطل أن يكون هو الابن، وخالفوا بذلك يوحنا والأمانة، وإن قالوا هو الآب وهو الابن، تركوا قولهم أن الابن يقعد عن يمين أبيه، وأن الآب يعلم وقت القيامة، والابن لا يعلمها، وقولهم في يوحنا الآب فوض أمره لابنه، والآب أكبر من الابن)[4].

٦ ــ (إذا ثبت الامتياز الحقيقي بين الأقانيم فالأمر الذي حصل به هذا

---

(١) مقامع الصلبان، الخزرجي: ص ٨٤ ــ ٨٥.

(٢) انظر: إظهار الحق، رحمت الله الهندي: ص ٣٣٥.

(٣) يوحنا: ١/١.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ١/٥٥.

الامتياز، إما أن يكون من صفات الكمال أو لا يكون، فعلى الشق الأول لم يكن جميع صفات الكمال مشتركاً فيه بينهم، وهو خلاف ما تقرر عندهم أن كل أقنوم متصف بصفات الكمال، وعلى الشق الثاني فالموصوف به يكون موصوفاً بصفة ليست من صفات الكمال وهذا نقص)[1].

٧ ـ (الاتحاد بين الجوهر اللاهوتي والناسوتي، لو كان حقيقياً لكان أقنوم الابن محدداً متناهياً، وكل ما كان كذلك كان قبوله للزيادة والنقصان ممكناً، فيكون أقنوم الابن محدثاً، ويستلزم حدوثه حدوث الله)[2].

بعد ذكر هذه البراهين السبعة أود أن أفرد رداً خاصاً ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقد ذكر مقالة النصارى في التثليث، ثم ردّ عليها من وجوه ستة، وبعد ذلك ذكر قانون الإيمان الذي وضع في مجمع نيقيا سنة ٣٢٥م، ثم ردّ عليه، وبيَّن تناقضه، وعدم صحته، ومخالفته للعقل والنقل، بأسلوب رائع وبمنطق فكري معقول.

لقد ذكر ابن تيمية قولهم بأن الأقانيم إنما هي ثلاثة أسماء: إلّه واحد ورب واحد وخالق واحد، ولكنها مسمى واحد لم يزل ولا يزال شيئاً ناطقاً أن الذات والنطق والحياة، فالذات هي الآب الذي هو ابتداء الاثنين، والنطق الابن الذي هو مولود منه كولادة النطق من العقل، والحياة هي روح القدس. وأجاب ابن تيمية رحمه الله عن هذه المقالة بوجوه منها[3]:

الأول: أن أسماء الله كثيرة، والاقتصار على ثلاثة منها باطل.

الثاني: قولهم: الآب ابتداء الاثنين، والابن النطق الذي هو مولود منه ولادة النطق من العقل كلام باطل، فإن صفات الكمال لازمة لذات الرب عز وجل أولاً وآخراً، لم يزل ولا يزال عالماً قادراً، لم يصر حياً بعد أنْ لم يكن حياً ولا عالماً بعد أنْ لم يكن عالماً.

---

(١) إظهار الحق، رحمت الله الهندي: ص ٣٣٦.

(٢) نفس المرجع: ص ٣٣٦.

(٣) انظر: الجواب الصحيح، ابن تيمية: ٢/١١٢ ـ ١١٥.

الثالث: قولهم أن الابن مولود من الله، إن أرادوا به أنه لا صفة لازمة له كذلك الحياة صفة لازمة له، فيكون روح القدس أيضاً ابناً ثانياً، وإن أرادوا به أنه حصل منه بعد أن لم يكن، لزم أن يكون عالماً بعد أن لم يكن، وهذا مع كونه كفراً وباطلاً فيلزم مثله في الحياة.

الرابع: تسمية حياة الله بالروح القدس، أمر لم ينطق به شيء من كتب الله المنزلة، فهو من تبديلهم وتحريفهم.

الخامس: أنهم يدعون أن المتحد بالمسيح هو الكلمة الذي هو العلم، فإن أرادوا به نفس الذات العالمة كان الابن هو الآب، وكان المسيح نفسه هو الآب وهو الابن وهو روح القدس، وهذا عندهم وعند جميع الناس باطل، وإن قالوا: المتحد به العلم، فالعلم صفة لا تفارق العالم، ولا تفارق الصفة الأخرى التي هي الحياة فيمتنع أن يتحد به العلم دون الذات ودون الحياة.

السادس: أن العلم أيضاً صفة والصفة لا تخلق ولا ترزق، والمسيح نفسه ليس هو صفة قائمة بغيرها باتفاق العقلاء، وأيضاً فهو عندهم خالق السموات والأرض، فامتنع أن يكون المتحد به صفة، فإن الله المعبود هو الإله الحي القادر، وليس هو نفس الحياة، ولا نفس العلم والكلام، فلو قال قائل: يا حياة الله أو يا علم الله أو يا كلام الله اغفر لي كان هذا باطلاً في صريح العقل. . . وكلمات الله كثيرة لا نهاية لها، وفي التوراة أنه تعالى خلق الأشياء بكلامه، وكان في أول التوراة أنه قال: ليكن كذا، ليكن كذا)[1].

السابع: وفي هذا الوجه ذكر لنا ان تيمية قانون الإيمان النيقاوي، ثم قال بعد ذلك: ففي هذه الأمانة التي جعلتموها أصل دينكم ذكر الإيمان بثلاثة أشياء: بإله واحد خالق السموات والأرض وكل شيء. . وهو الذي لا إله غيره وهو الذي دعت جميع الرسل لعبادته وحده لا شريك له.

---

(١) تجد في أول التوراة: قال الله ليكن نور فكان نور. . . وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. . . (انظر: التكوين، الإصحاح الأول).

ثم قلتم: وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، فصـرحتم بالإيمـان مع خالق السموات والأرض برب واحد. . . وقلتم: (هو إلّه حق من إلّه حق من جوهـر أبيه) وهذا التصريح بـالإيمان بـإلّهين أحدهمـا من الآخر. . . ولا يسـاوي الآب في الجوهر إلّا جوهر، فوجب أن يكون الابن جوهراً ثـانياً، وروح القـدس ثالثـاً، وهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر وثلاثة آلهة، ويقولون مع ذلك إنما نثبت جوهراً واحـداً، وهذا جمع بين نقيضين، فهو حقيقة قولهم. فهم يجمعون بين جعل الآلهة واحـداً، وإثبات ثلاثة آلهة، وبين إثبات جوهر واحد وإثبات ثلاثـة جواهـر، وقد نـزّه الله عن ذلك نفسه بقوله: ﴿قـل هو الله أحـد. الله الصمد. لم يلد ولم يـولد. ولم يكن لـه كفواً أحد﴾[1].

فنزه نفسه عن قولهم بأنـه الآب، فقال: (لم يلد) ونـزه نفسه عن قـولهم بأنـه الابن المولود فقال: (ولم يولد)[2].

وعلى قول النصارى: إن الله (أحدي الذات ثلاثي الصفات) يـرد (ابن تيمية) فيقول: (قد صرحتم في وثيقة الأمانة بإثبات إلّه حق، وأنه مساو للأب في الجوهر، وهذا تصريح بإثبات جوهر ثان، لا إثبات صفة. . .)، أما قولكم هذا بمنزلة قولك: (زيد الطبيب الحاسب الكاتب)، ثم تقول: (وزيد الحـاسب وزيد الكـاتب). . وقد يفسرون هذا الأقنـوم بهذا فيقـولون هـو الذات مـع الصفة، فـالذات مـع كل صفـة أقنوم، فصارت الأقانيم ثلاثة، لأن هذا المثال لا يطابق قولكم، فإن زيداً هنا جـوهر واحد له صفات الطب والحساب والكتابة، وليس هنا ثلاثة جواهر، ولكن لكل صفة حكم ليس للأخرى ولا يقول عاقل: إن الصفة مساوية للموصوف في الجـوهر، ولا أن الذات مع هذه الصفة تساوي الذات مع الصفة الأخرى في الجوهر، لأن الذات واحدة، والمساوي ليس هو المساوى)[3].



(١) سورة الإخلاص.
(٢) انظر: الجواب الصحيح، ابن تيمية: ٢/١١٧.
(٣) نفس المرجع: ٢/١١٩.

المبحث الثامن

الرد على أزلية المسيح وبنوته

يؤمن النصارى بأزلية الكلمة التي هي المسيح، كما يؤمنون باتحاد هذه الكلمة مع الله، ومن هنا كان قولهم بلاهوت الكلمة. ولعل النص الوحيد الذي يستند إليه النصارى في ذلك هو مقدمة إنجيل يوحنا، الذي ما كتب إنجيله إلاَّ لنشر فكرة ألوهية المسيح عليه السلام، فكتب في بداية إنجيله يقول: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله، هذا كان في البدء عند الله)[1].

ورغم إشارتنا إلى عدم صحة سند هذا الإنجيل، وما أوردته دائرة المعارف البريطانية في التشكيك به وبمؤلفه، ومعرفتنا أن الإنجيل قد خلا من مثل هذه العبارات الفلسفية إلاَّ أننا سننقل أقوال بعض الباحثين الذين رأوا أن لهذه العبارات تفسيرات أخرى غير التي يفهمها النصارى، وتقرها كنائسهم.

وقد نقل لنا الشيخ عبد الله العلمي عن الدكتور وليم أدلي الأمريكي في كتابه (شرح الأناجيل الأربعة) تفسيرات تستبعد معها أزلية المسيح أو اتحاده، فقال: (وعبارة يوحنا كما تحتمل القول بأزلية الكلمة التي هي المسيح، وأقنوميته واتحاده مع الأب ولاهوته، فهي تحتمل عندنا تفسيراً آخر صورته أن يقال: (في البدء) أي في بدء تنزل الوحي العتيق على أنبياء الناموس، كان الكلمة وهو المسيح، كان مبشراً به ومنتظراً ومسطوراً في الأسفار القديمة باسم الكلمة الصالحة (ها أيام تأتي يقول الرب وأقيم الكلمة الصالحة التي تكلمت بها إلى بيت إسرائيل وإلى بيت يهوذا)[2]، (وسمي أيضاً بذلك على ألسنة اليهود المنتظرين ظهوره)[3].

---

(١) يوحنا: ١/١ ــ ٢.

(٢) أرميا: ٣٣/١٤.

(٣) سلاسل المناظرة الإسلامية النصرانية، عبد الله العلمي: ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦.

ويبين لنا الشيخ العلمي أن (البدء) لا يشترط أن تحتمل معنى الأزل فقط، فهي تحتمل معاني أخرى جاءت بها نصوص من الأناجيل، فقد تكون بمعنى ابتداء خدمة المسيح كما في إنجيل لوقا: (كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء، معاينين وخداماً للكلمة)[1].

والمقصود بـ (منذ البدء) هنا بداية خدمتهم للمسيح، ووردت بهذا المعنى كذلك في إنجيل يوحنا: (لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون، ومن هو الذي يسلمه)[2].

(وقد عنى هنا بقوله (من البدء) ابتداء خدمته وإتيان التلاميذ إليه)[3]، ومن قول يوحنّا: (والكلمة كان عند الله) يستدل النصارى على أزلية المسيح قائلين بأن هذه العندية تعني (القدم) لأنه عند القديم، كما تعني الاتحاد مع الله، وهذا الاتحاد أعطى المسيح صفة اللاهوتية.

وردّ على ذلك الشيخ (العلمي) بقوله: (عندية المسيح في قول يوحنا، هي عندية معنوية لا محسوسة، ولا عندية اتصال واتحاد، لاستحالة ذلك على الله تعالى)[4].

ويورد الشيخ (العلمي) على هذا المعنى نصوصاً من القرآن الكريم ومن العهد القديم، ومن هذه الأدلة: ما ورد في القرآن الكريم في وصف إسماعيل: ﴿وكان عند ربه مرضياً﴾[5]، فهذه الآية لا تعني العندية المكانية الحسية لإسماعيل عليه السلام عند ربه. وفي قول امرأة فرعون: ﴿رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة﴾[6].

---

(١) لوقا: ١/٢.

(٢) يوحنا: ٦/٦٤.

(٣) انظر: سلاسل المناظرة، العلمي: ص ٣٠٦.

(٤) نفس المرجع: ص ٣٠٧.

(٥) سورة مريم: الآية ٥٥.

(٦) سورة التحريم: الآية ١١.

وهذا المعنى أيضاً نظير ما في سفر التكوين: (وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت (قابيل) وقالت: اقتنيت رجلاً من عند الرب)[1].

وكلمة (من عند الرب) هنا لا تعني بأي حال الأزلية أو العندية الحسية، وإنما تعني عندية مكانة وتفخيم. (يقول د. (وليم إدي) في شرحه لإنجيل يوحنا: يحق للمسيح أن يسمى (كلمة) لأن الله كلمنا به كما جاء في رسالة (بولس) إلى العبرانيين: (الله بعدما كلَّم الآباء بالأنبياء قديماً، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه)[2]، فالمسيح أعلن لنا عن الله بتعاليمه وبسيرته وبأعماله، وهذا الاحتمال في معنى الكلمة، تؤيده الأسفار القديمة والجديدة من تسمية الوحي (كلمة))[3].

وعلى هذا المعنى ما ورد في سفر أرميا: (وصارت إلي كلمة الرب..)[4]. بمعنى الوحي وفي سفر التثنية نجد: (بل الكلمة قريبة منك جداً في فمك وفي قلبك لتعمل بها)[5].

وعلى ذلك فإنه لا وجه لاختصاص المسيح بإطلاق الكلمة عليه دون غيره، فهي قد أطلقت على الوحي، والقرآن يذكرها لآدم: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾[6]، وأطلقتها التوراة بمعنى خلق الأشياء كلها: (وقال الله ليكن نور فكان نور)[7].

فالكلمة هي كلمة (التكوين) وذلك لأن أمر الخلق والتكوين بيد الله، أما عن سبب إطلاقها على المسيح عليه السلام فيجيب الشيخ العلمي بما يلي بنقطتين، هما[8]:

---

(١) التكوين: ٤/١.

(٢) العبرانيين: ١/١ ـ ٢.

(٣) انظر: سلاسل المناظرة، العلمي: ص ٣٠٧.

(٤) أرميا: ٢/١.

(٥) التثنية: ٣٠/١٤.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٧) التكوين: ١/٣.

(٨) سلاسل المناظرة، العلمي: ص ٢٦٠.

١ ــ الكلمـة أطلقت على المسيح لفقـد تكـوينـه من عنـاصـر علوق الجنين المعتادة فأضيف هذا التكوين إلى كلمة الله . .

٢ ــ للإشارة إلى بشارة الأنبياء به فهو قد عرف بكلمة الله أي بوجيه للأنبياء .

وردّاً على ادعاء النصارى أن الكلمـة في قول يـوحنا يـراد بها الأقنـوم الثاني ، وهو المسيح يذكر الشيخ العلمي دليلين على بطلان هذا الادعاء هما[١] :

١ ــ ليس في الأسفار ذكر صريح لحمـل لفظ (الكلمة) على الأقنـوم الثاني ، فكثيراً ما أطلق وأريد به كلمة الوعد والبشرى ، كما قيل : لأنـه ذكر كلمـة قدسـه مع إبراهيم عبده[٢] ، ومـا ورد في أخبار الأيـام الأول : (اذكروا إلى الأبـد عهده الكلمـة التي أوصى بها إلى ألف جيل)[٣] .

٢ ــ بـطلان كون المسيـح متحداً مـع الله أو مساويـاً له في الجـوهر لمجـرد إطـلاق لفظ الله عليـه ، إذ أطلق هـذا اللفظ على أشخـاص آخـرين غيـر المسيـح ، فـأطلقها سفـر الخروج على المـلاك : (وظهر لـه مـلاك الـرب بلهيب نـار من وسط عليقة . . . ناداه الله من وسط العليقة)[٤] .

وفي سفر القضاة : (حينئذٍ عرف (منوح) أنه ملاك الرب ، فقال (منوح) لامرأته نموت موتاً لأننا قد رأينا الله)[٥] .

وأطلقت كلمـة الله على القاضي في سفـر الخروج (يقـدم صاحب البيت إلى الله ، . . . تقدم إلى الله دعواهمـا)[٦] ، كما أطلقت على الشـريف وعلى القوي في سفـر التكوين : (وحـدث لما ابتـدأ الناس يكثـرون على الأرض وولد لهم بنـات أن

---

(١) سلاسل المناظرة ، عبد الله العلمي : ص ٢٦١ ــ ٢٦٢ .

(٢) مزمور : ١٠٥ ــ ٤٢ .

(٣) الأيام الأول : ص ١٥ ــ ١٦ .

(٤) خروج : ٣/٢ ــ ٤ .

(٥) قضاة : ١٣/٢١ ــ ٢٢ .

(٦) خروج : ٢٢/٨ ــ ٩ .

أبناء الله رأوا بنات الناس أنهنّ حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . . . وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً)[1].

مما تقدم يتبين لنا أنه لو فرضنا جدلاً صحة ما جاء به يوحنا في مقدمة إنجيله، فإن هذه الألقاب التي راح يطلقها على المسيح عليه السلام، لا تختص به وحده، ولا تدل على لاهوته، بل أطلقتها أسفار الكتاب المقدس على غيره، ومن الممكن أن تؤول هذه الألقاب إلى معانٍ أخرى غير المعاني التي حصرها النصارى لها.

الرد على بنوة المسيح لله تعالى:

لا شك أن المسيح عليه السلام وصف في الأناجيل بأنه (ابن الله) في نصوص كثيرة منه. كما وصف الله تعالى في هذه الأناجيل بأنه الآب، ومن ذلك ما ورد في إنجيل متى: (فكل من يعترف بي قدّام الناس أعترف أنا أيضاً به قدّام أبي الذي في السموات)[2]، (أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض)[3]، (وكل شيء قد دفع إلي من أبي وليس أحد يعرف الابن إلاَّ الأب. . .)[4].

وعلى ذلك يعتمد النصارى في أدلتهم على إطلاق لقب الابن على المسيح عليه السلام، لكن المتتبع لنصوص الأناجيل يجد أن وصف الله بالآب لم يقتصر على علاقة خاصة مفردة بين الله والمسيح، وكذلك وصف الابن لم يقتصر في الأناجيل على المسيح أيضاً.

كما أننا نجد المسيح عليه السلام في هذه الأناجيل يطلق على نفسه ألقاباً أخرى مثل لقب (ابن الإنسان) (ابن داود) كما وصف بأنه (إنسان) وسنذكر هذه المواضع في الفصل القادم إن شاء الله.

---

(١) تكوين: ٦/١، ٢، ٤.
(٢) متى: ١٠/٣٢.
(٣) متى: ١١/٢٥.
(٤) متى: ١١/٢٧.

فلفظ الآب جاء وصفاً عاماً لعلاقة الله بالمؤمنين جميعاً، ويكـاد أن يقصد بـه ما يقصد بالرب بوجه عام: (ويمجدوا أباكم الذي في السموات)[1].

فهـو أب للمؤمنين جميعـاً: (فكـونـوا أنتم كـاملين كمـا أنَّ أبـاكم الـذي في السموات هو كامل)[2]. ويقول الدكتور فتحي عثمان: (والتعبير عن العلاقـة بين الله وعباده بالأبوة شاع بين اليهود قبل المسيح، كما حكت الأناجيل المتـداولة والأسفـار اليهودية المتداولة أيضاً، فقد قيـل عن أشعيا: (هـو ذا فتاي الـذي اخترتـه، حبيبـي الذي سرت به في نفسي أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق)[3].

وقـد تردد وصف أفـراد بابن الله وجمـاعات بـأبنـاء الله في الأسفـار اليهـوديـة بمـواضع عـديدة، فقـد وصف بذلـك يعقوب عليـه السلام: (هكـذا يقـول الـرب: إسرائيل ابني البكر، فقلت له أطلق ابني ليعبدني)[4].

ووصف المسيح المنتظر مسيا (MESSIAH) من اليهود قبيل بعثه المسيح بأنـه ابن الله وهكذا كان أطلق هذا الوصف على المسيح في أول الأمر وصيفيـاً على حد تعبيـر اللاهـوتي الكاثـوليكي (درمون لين) وإنمـا جاء اقتـران هـذا اللفظ بـإشـارات ميتافيزيقية متأخراً في الفترة الهلنستية)[5].

والكتاب المقدس يطلق لقب (ابن الله) على أناس كثيـرين، فهو يـطلقه على كل بار، ولذلك جاء في إنجيل مرقص وصف المسيح بأنه إنسان بار (.. قال: حقاً كان هذا الإنسان باراً)[6].

---

(١) متى: ٥/١٦.
(٢) متى: ٥/٤٨.
(٣) متى: ١٢/١٨.
(٤) الخروج: ٤/٢٢ ــ ٢٣.
(٥) مقـال الدكتـور فتحي عثمان، تحت عنـوان: التثليث والنصرانيـة، في مجلة (هذه سبيلي): ص ٣٥٠ ــ ٣٥١.
(٦) مرقص: ١٥/٩.

وأطلق لفظ (ابن الله) في حق الصالح (وابن إبليس) في حق الطالح: (طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون)[1].

وإنجيل يوحنا يورد حواراً بين عيسى عليه السلام وبين اليهود حين قالوا له: (أبونا هو إبراهيم)، قال لهم يسوع: (لو كنتم أولاد إبراهيم كنتم تعملون أعماله، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله، هذا لم يعمله إبراهيم)[2]. وحين قالوا له: (لنا أب واحد وهو الله فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قبل الله، وأتيت لأني لم آت من نفسي، بل ذاك أرسلني... أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا)[3].

وليس عيسى وحده هو المولود من الله كما جاء في الأناجيل، فقد جاء في رسالة يوحنا الأولى: (كل من يحب فقد ولد من الله)[4].

(كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله)[5].

(إني أصعد إلى أبي وأبيكم)[6].

واليهود والنصارى يقولون إنهم أبناء الله، ففي أسفار العهد القديم يقول الله ليعقوب: (إيتِ ببني من بعيد وببناتي من أقصى الأرض)[7].

وفي العهد الجديد يرد في إنجيل لوقا: لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة)[8].

---

(١) متى: ٥/٩.
(٢) يوحنا: ٨/٣٩ ـ ٤٠.
(٣) يوحنا: ٨/٤١ ـ ٤٤.
(٤) يوحنا الأولى: ٤/٧.
(٥) يوحناالأولى: ٥/١.
(٦) يوحنا: ٢٠/١٧.
(٧) أشعيا: ٤٣/٦.
(٨) لوقا: ٢٠/٣٦.

وفي سفر الرؤيا: (من يغلب يرث كل شيء، وأكون له إلَهاً وهو يكون لي ابناً)[1].

والقرآن الكريم يذكر ذلك بقوله: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾[2].

وأمثال هذه النصوص في الكتاب المقدس كثيرة، مما يجعلنا نؤكد أن صلة بنوَّة المسيح لله تعالى مجازية لا حقيقية كما يدعي النصارى.

يقول الشيخ (عبد الوهاب النجار): (معلوم أن لفظ الابن بمعناه الحقيقي باتفاق لغات أهل العالم أنه المتولد من نطفة الأب الملقحة لبيضة الأم، وذلك محال على الله أن تكون له صاحبة أو يوجد له ولد، يتولد من نطفته ـ تعالى الله عما يقولون ـ فلا بدَّ من الحمل على معنى مجازي يناسب شأن المسيح عيسى بن مريم، بحيث لا يحط من قدر الله، ولا يرفع المسيح فوق قدر نفسه)[3].

ويقول الشيخ (النجار) بعد ذكره لمن أطلق الكتاب المقدس عليهم لفظ (ابن الله) يقول: (.. ولو كان كل ما يسميه الله ابناً يحمل على البنوة الحقيقية ويكون إلَهاً مستوجباً للعبادة لكان كل بني إسرائيل آلهة، لأن الله أطلق على شعب إسرائيل بني)[4].

أما المعنى الذي يراه شيخ الإسلام (ابن تيمية) مناسباً لعلاقة البنوة بين الله وعيسى، فيذكره بعد أن يورد نصوص الأناجيل فيقول: (فإن كان هذا صحيحاً، فالمراد بذلك أنه الرب المربي الرحيم، فإن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، والابن هو المربى المرحوم، فإن تربية الله لعبده أكمل من تربية الوالدة لولدها، فيكون المراد بالأب الربّ، والمراد بالابن عنده المسيح الذي رباه)[5].

---

(١) الرؤيا: ٢١/٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٨.

(٣) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار: ص ٤٥٨.

(٤) الخروج: ٤/٢٢.

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية: ٢/٩٧.

يقول الدكتور (نظمي لوقا) وكان نصرانياً فأسلم في كتابه (محمد ﷺ الرسالة والرسول): (وأما البنوَّة لله عز وجل فما ورد لها ذكر إلاَّ على سبيل المجاز المطلق، وبمعنى يشمل البشر كافة حين أوصى أن تكون صلاة الناس إلى بارئهم بقوله: (أبانا الذي في السماء) وحين طالب أتباعه وجميع الناس أن يسلكوا طريق البر كي يكونوا جديرين بنسبتهم إلى الله، فالمسيح رفع خصوصية البر عن اليهود الذين قالوا: إن أبناء إبراهيم وحدهم هم الناجون، لأن الناس كافة أبناء الله ما سلكوا طريق البر وأحبوا الله. . . وما أقرب هذا أن يجعل رعاية الأبوة شاملة لجميع الكائنات، وما أبعده أن يكون السر أو اللغز المعقد الذي اختلفت فيه أقوال المفسرين من أساطين الكهان وعلماء اللاهوت)[1].

ومما تجدر ملاحظته مما ذكرناه: أننا نجد أنفسنا أمام قسمين من نصوص الكتاب المقدس: القسم الأول: يصرح بأن المسيح هو ابن الله، والقسم الثاني: يطلق هذا اللفظ على غير المسيح ويعتبره عاماً يشمل المؤمنين جميعاً، ولقد كان هذا التضارب سبباً من أسباب الخلاف، وتعدد الآراء الذي شهدته المسيحية في عصورها الطويلة حول هذا المفهوم، وغيره ولا زالت تشهده.

وقد أصدرت البابوية في روما تعاليم سنة ١٩٦٤م تحاول أن تبرر ما ورد في الأناجيل المتداولة عن بنوَّة المسيح وبشريته جنباً إلى جنب مع الإشارات إلى بنوَّته بالتفسير اللاهوتي الميتافيزيقي الذي تعتنقه الكنيسة فذكرت أن هناك ثلاث مستويات من الرواية انتهت إلى الأناجيل في صورتها القائمة المتداولة. أولها: كلمات المسيح وأفعاله الأصلية ذاتها التي نقلت عن طريق وسائل العرض والإقناع التي كانت سائدة في ذلك الوقت، والكنيسة تشير بذلك إلى قصور الوسائط الثقافية وقتذاك، ولكنها إشارة تؤكد أن الصياغة اللاهوتية لمعتقدات بنوة المسيح لله، والتثليث على نحو ما عرفت من بعد، كانت أمراً طارئاً متأخراً، وليست هي الأصل.

---

(١) محمد ﷺ الرسالة والرسول، الدكتور نظمي لوقا: ٤٢/٤١، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩م، الشركة العربية للطباعة والنشر ــ القاهرة.

ثم جاء المستوى الثاني للرواية كما تطرحه تعاليم البابا الصادرة سنة ١٩٦٤م، وهذا المستوى جاء ممثلاً في الإعلام الشفوي لحواريي المسيح أو تلاميذه عن حياة المسيح وموته (في اعتقاد الكنيسة) وقيامته، وهو يمثل مرحلة من الفهم الإنساني للوقائع في ضوء ما انتهت إليه حياة المسيح، وتختلط في الصورة الأدبية المختلفة للتعبير عن ذلك الفهم من محاورات وقصص وروايات شهود عيان وتراتيل ودعوات.

ثم يأتي المستوى الثالث للرواية بتصنيف ما بلغه الحواريون في صورة الأناجيل المكتوبة المتداولة الآن، وهكذا تداخلت محاولات الفهم والتفسير مع رواية الوقائع والأحداث على مر الأجيال[١].

والكنيسة إذ تحاول بيان سبب الاختلاف البين بين الأناجيل، وقل إن شئت التناقض الواضح بين نصوصها، فترجع سبب ذلك كله إلى طريقة النقل لأقوال المسيح وأفعاله، وهي تشير ولو بإشارة خفية إلى أن هذا النقل لم يحظَ بالطريقة العلمية الدقيقة وهي السماع والحفظ الذي تؤيده الكتابة المباشرة، وهذه هي الطريقة التي نقل بواسطتها إلينا القرآن الكريم، ولم تتوفر هذه الطريقة للأناجيل فإن الكتابة جاءت مرحلة متأخرة عن مرحلتي العرض والإقناع، والإعلام الشفوي، (واللاهوتيون المسيحيون يفسرون التأكيد على بشرية المسيح في الأناجيل المتداولة بأن ذلك كان بتأثير البيئة اليهودية التي بعث فيها المسيح، والتي لا تفهم غير إلّه متعالٍ، ونبي بشر)[٢]، وهذا ما تلمسه واضحاً في أسفار العهد القديم، التي يعتبرها النصارى جزءاً من الكتاب المقدس.

وعلى ذلك فإن القول ببنوة المسيح لله تعالى قول لا تجد له سنداً تاريخياً، ولا أدلة قطعية من أسفار الكتاب المقدس، بل هو قول اجتهادي دخيل طارىء على النصرانية، فهو مخالف للنصوص النقلية، ومخالف لأبسط قواعد العقل.

---

(١) النصرانية والتثليث، مقالة للدكتور فتحي عثمان، مجلة (هذه سبيلي) يصدرها المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض، السنة الأولى سنة ١٣٩٨هـ، عدد ١: ص ٣٥٢ ـ ٣٥٤.

(٢) نفس المقال.

يقول صاحب (الفارق بين المخلوق والخالق): (أما من جهة العقل فإن الإلّـه يجب أن يكـون واجب الوجـود لذاتـه، فولـده إمـا أن يكـون أيضـاً واجب الـوجـود أو لا يكون، فإن كان مستقل بنفسـه قائم بـذاته لا تعلق لـه في وجوده بـالآخر، ومن كان كذلك لم يكن مولوداً البتة، لأن المولوديـة تشعر بـالفرعيـة والحاجـة، وإن كان ذلك الموجود ممكن الوجود لذاته فعندئذٍ يكون وجوده بإيجاد واجب الوجود لذاتـه، ومن كان كذلك يكون مخلوقـاً لا ولداً. . . ثم إن الـولد يحتـاج أن يقوم مقـام والده بعد فنائه، وهذا يعقل في حق من يفنى، أما من تقدس عن ذلك فلا يعقل الولد في حقه، ثم إن الولد لا بد وأن يكون متولداً من جزء من أجزاءِ الوالـد، وهذا لا يعقـل إلَّا في حق من يكون مركبـاً، ويمكن انفصال بعض أجـزائه عنـه، وهذا في حق الله محال)[1]، هذه ردود عقلية ثلاثة أثبت فيها صـاحب الفارق استحـالة كـون المسيح عليه السلام ابناً لله بالمعنى الذي فهمه النصارى، واعتقدوه:

أولها: أن الله واجب الوجود لذاته، وما تولد منـه إن كان مثله واجب الـوجود لذاته فهـو إلّه آخـر مستقل، وبـالتالي أصبحنـا أمام إلّهين اثنين، يستقـل كل واحـد منهما عن الآخر، ولا يحتاج إليه، وهذا خلاف لما قال به النصارى أنفسهم. أما إن كـان الأب ممكن الوجـود لذاتـه فهـو محتـاج إلى واجب الـوجـود، وهـذه صفـات المخلوق.

ثانيها: لا يعقل الولد في حق الله لأنه لا يفنى، والمحتاج إلى ولد يقوم مكانه بعد فنائه، هو الفاني المحدث.

ثالثها: الولادة لا بد وأن تكون ناشئة عن جزء من الـوالد، وهـذا لا يعقل في حق الله، لأنها لا بد وأن تصدر عن مركب يمكن انفصال بعض أجزائـه ــ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ــ.



---

(١) الفارق بين المخلوق والخالق، باجة أفندي: ص ١١٧.



الفصل الرابع

الأَدِلَّةُ الإِنْجِيلِيَّةُ عَلَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ... عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ

المبحث الأول : رسالة عيسى عليه السلام وعبوديته لله في أسفار العهد الجديد.

المبحث الثاني : إنجيل برنابا.. وأدلته على بشرية المسيح ورسالته.



المبحث الأول

رسالة عيسى عليه السلام وعبوديته لله في أسفار العهد الجديد

لقد مكث المسيح عليه السلام فترة محدودة في دعوته لا تعدو ثلاث سنوات، وما كان الناس في تلك الفترة يعرفونه أكثر من كونه نبياً من أنبياء بني إسرائيل.

وكان الجيل الأول من النصارى من أتباع المسيح وحوارييه الذين عاشوا معه موحدين لله، معترفين بأن المسيح عليه السلام لا يعدو أن يكون بشراً أرسله الله تعالى إليهم، كما أرسل من قبله كثيراً من إخوانه المرسلين عليهم السلام.

وإن الذي يراجع الأناجيل الثلاثة الأولى ـ بوضعها الحالي رغم ما لحقها من التحريف والتبديل ـ لا يجد فيها ما يصرِّح بأن عيسى عليه السلام إلّه أو ابن إلّه، بل إنها تحتوي على مئات النصوص التي تدل صراحةً على أنه رسول بشر.

إننا لا نجد وصف المسيح بالألوهية إلّا في الإنجيل الرابع، إنجيل يوحنا الذي ينسب إلى (يوحنا بن زبدي) أحد تلاميذ المسيح عليه السلام.

وقد أنكر جمهور كبير من النصارى نسبة هذاً الإنجيل إليه، وهذا الإنكار قديم (فإن العلماء بالمسيحية في آخر القرن الثاني الميلادي أنكروا نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري، وكان بين ظهرانيهم (أرينيوس) تلميذ (بوليكارب) تلميذ يوحنا الحواري، ولم يرد عليهم بأنه سمع من أستاذه صحة هذه النسبة. . قال (استادلن) في العصور المتأخرة: إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية، ولقد كانت فرقة (الوجين) في القرن الثاني تنكر هذا الإنجيل وجميع ما أسند إلى يوحنا)[1].

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ٥٤.

فالتشكيك في هذا الإنجيل قديم ومن النصارى أنفسهم.

وقد اختلف في تاريخ تدوين هذا الإنجيل، وحتى الذين ينسبونه ليوحنا الحواري فإنهم لم يتفقوا على سنة تدوينه، وينقل لنا الشيخ محمد أبو زهرة هذا الاختلاف ويذكر (أن الدكتور (بوست) يرجح أنه كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ وقيل سنة ٩٦)[1].

وكذلك الخلاف حاصل في الغرض من تدوينه، وإلى ذلك أشار الأب (بطرس فرماج) بقوله: (وحيث لم يبقَ من الرسل على الأرض غير القديس يوحنا طلب إليه المؤمنون شرقاً وغرباً بمزيد الإلحاح أن يفنِّد أقوال الذين ينكرون ألوهية المسيح.. وحينئذٍ بأمر من الروح القدس أخذ يكتب الإنجيل المقدس، لأن الثلاثة الإنجليين الآخرين كانوا قد أوردوا كل ما يتعلق بناسوت السيد المسيح، وكان جلُّ غرضه من كتابة إنجيله أن يثبت لاهوته)[2].

هذا الكلام وإن كان الأب (بطرس فرماج) يحاول به أن يقنع النصارى عاطفياً بصحة هذا الإنجيل، وبأنه كان بأمر الروح القدس رداً على المخالفين إلَّا أنه غير مقبول من الناحية العلمية، وفيه التصريح الواضح أن الغرض الأساسي من كتابته هو إثبات لاهوت السيد المسيح، خلافاً للأناجيل الثلاثة الأولى التي لم تتعرض لهذه القضية.

فيبدو أن رجال الدين الذين نادوا بفكرة ألوهية المسيح، أزعجهم أن الكتاب المقدس لا يضم نصوصاً تؤيد فكرتهم، فراحوا يفكرون بوضع إنجيل يحوي هذه الأفكار، فكتبوه ونسبوه إلى أحد الحواريين.

فأساقفة بعض الكنائس هم الذين رأوا الحاجة ملحة لإنجيل مثل هذا الإنجيل يضم أفكارهم اللاهوتية.

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ٥٧.

(٢) مروج الأخيار في تراجم الأبرار، بطرس فرماج: ص ٨١٨، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين ــ بيروت سنة ١٨٧٧م.

يقول (يوسف الدبس الخوري) في مقدمة تفسيره (من تحفة الجيل): (إن يوحنا صنف إنجيله في آخر حياته بطلب من أساقفة آسيا وغيرها، والسبب أنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح، فطلبوا منه إثباته، وذلك ما أهمله متى ومرقص ولوقا من أناجيلهم)[1].

ويظهر من ذلك أن هؤلاء الأساقفة قد اعتنقوا ألوهية المسيح من قبل وجود أي إنجيل يصرح بها، فما سندهم يا ترى في هذا الاعتقاد؟

إن علماء النصارى أنفسهم يشكك كثير منهم في نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري، وبعضهم يعتبره تصنيف طالب من مدرسة الإسكندرية (ولقد قال (استادلن) في العصور المتأخرة: (إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية، ولقد كانت فرقة (الوجين) في القرن الثاني تنكر هذا الإنجيل وجميع ما أسند إلى يوحنا)[2].

(ولقد جاء في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه: (أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزوَّر أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض، وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادعى هذا الكاتب المزوِّر في متن الكتاب أنه الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصاً مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه. وإنّا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي الذي ألَّف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنا الصياد الجليل، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدًى لخبطهم على غير هدى)[3].

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ٥٧.
(٢) نفس المرجع: ص ٥٤. عن دائرة المعارف البريطانية.
(٣) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ٥٤.

وبعـد هذا الكـلام عن هذا الإنجيـل، هل يصلح لـلاستنـاد عليـه في الأمـور العقدية التي لا بد لها من الأدلة القطعية الثبوت؟

ومع أننا ندرك أن الأناجيل الثلاثة الأولى لم تخلُ أيضاً من التحريف والتـزوير إلَّا أننـا سنخصص هـذا المبحث لإيـراد بعض النصـوص الإنجيليـة (من الأنـاجيـل الأربعة المتداولة اليوم بين النصارى) التي تدل صراحة على أن المسيح عليه السلام بشر رسول من عند الله وعبد طائع لـه، وكان استـدلالنا بهـا لأن النصارى يعتبـرونها نصوصاً مقدسة.

النصوص الدالة على بشرية المسيح عليه السلام:

عشرات الأدلة الإنجيلية تدل على بشرية المسيح عليه السلام وعبوديتـه. ومن هذه الأدلة:

١ ــ وصفه بـ (ابن الإنسان) أو (الإنسان):

(ورد في الإنجيـل إطلاق (الإنسـان) و (ابن الإنسان) على المسيـح أكثـر من سبعين مرة كما يعلم ذلك من النظر في قاموس الكتاب المقدس)[١].

ولن نستقصي هذه النصوص وإنما سنقتصر على بعضها. .

ففي إنجيل متى يطلق المسيح على نفسه (ابن الإنسان) فيقول. . : (وأما ابن الإنسان فليس له أن يسند رأسه)[٢]. ويقول: (جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب)[٣].

فهو بشر يأكل ويشرب ويحتاج، وتندرج عليه سائر العـوارض البشريـة، (ومن قـال كلمة على ابن الإنسـان يغفر لـه وأمـا من قـال على الـروح القـدس فلن يغفـر له)[٤]. وهذا يدل على أن المسيح (ابن الإنسان) مغاير لروح القـدس لا متحد معـه كما يقول النصارى.

---

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس، د. بطرس عبد الملك ورفاقه / تقديم فيليب حتي، مكتبـة المشعل الإنجيلية بيروت ١٩٦٤م.

(٢) متى: ٨/ ٢٠.

(٣) متى: ١١/ ١٩.

(٤) متى: ١٢/ ٣٩.

وفي إنجيل مرقص يرد لفظ ابن الإنسان كذلك في الإصحاح التاسع: (وكيف هو مكتوب على ابن الإنسان أن يتألم أكثر ويرذل)[1]. وفي الإصحاح الرابع عشر (وسوف تبصرون ابن الإنسان)[2].

أما في إنجيل لوقا فيرد استعمال هذا اللفظ في مواضع كثيرة، نذكر منها: (طوبى لكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيَّروكم وأخرجوا اسمكم كشرّير من أجل ابن الإنسان)[3].

(لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص)[4]. وفي هذا الإنجيل أيضاً يطلق على المسيح لفظ (الإنسان) (فلما رأى قائد المائة ما كان مجد الله قائلاً بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً)[5]. والمقصود بـ (قائد المائة) قائد مجموعة جنود الرومان الذين حضروا مشهد الصلب كما يدل سياق النصوص هنا.

أما في إنجيل يوحنا ففي الإصحاح الأول منه يرد (الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان)[6].

وهذا النص يدل أيضاً على أن عيسى عليه السلام نبي مرسل، لأن ملائكة الله لا تصعد ولا تنزل إلَّا على الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ويرد في هذا الإنجيل وصف المسيح بأنه (إنسان) فيقول المسيح عليه السلام عن نفسه: (ولكنم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله)[7].

---

(١) مرقص: ١٢/٩.
(٢) مرقص: ٦٢/١٤.
(٣) مرقص: ٢٢/٦.
(٤) لوقا: ٥٦/٩.
(٥) لوقا: ٤٧/٢٣.
(٦) يوحنا: ٥١/١.
(٧) يوحنا: ٤٠/٨.

وأي نص أوضح من هذا على بشرية المسيح ورسالته، فهو إنسان مرسل ما كلمهم إلّا بالحق الذي سمعه من الله تعالى.

هذا وقد نقل لنا الشيخ (عبد الله العلمي) عن الأستاذ (إبراهيم الحوراني) في كتابه (شرح الأسفار الخمسة) قوله: (وقد ثبت أن اسم المسيح في اللغة السريانية والكلدانية (بارانوش) أي (ابن الإنسان)[1].

وقد كتب (أميل لودفيغ) كتاباً سماه (ابن الإنسان) ترجمه الأستاذ (عادل زعيتر) إلى العربية، وكان مما قال (لودفيغ) في هذا الكتاب: (ويعدُّ الجميع المعلم الجديد نبياً، ويبدو المعلم الجديد نبياً، ولم يفكر يسوع في أنه أكثر من نبي.. وقد اختار لنفسه كلمة وجدها صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله عن نفسه إنه (ابن الإنسان). وقديماً أراد الأنبياء أن يلفتوا النظر إلى الهوَّة الواسعة التي تفصلهم عن الله فكانوا يسمون أنفسهم (أبناء الإنسان)[2].

بالإضافة إلى النصوص السابقة التي تحدثت بصريح العبارة واصفة المسيح بأنه إنسان أو ابن إنسان، فإننا نجد نصوصاً أخرى دلت في معانيها على بشريته عليه السلام.

ومن ذلك، ما ورد في إنجيل متى في قصة التعميد (حينئذٍ جاء (يسوع) من الجليل إلى الأردن إلى (يوحنا) ليعتمد منه، ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي؟ فأجاب (يسوع) وقال له: اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برّ، حينئذٍ سمح له، فلما اعتمد (يسوع) صعد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه)[3].

هذا النص يدل بوضوح أن عيسى عليه السلام قبل أن يأتي إلى (يوحنا

---

(١) سلاسل المناظرة، عبد الله العلمي: ص ٣٨٥.

(٢) ابن الإنسان، أميل لودفيغ، ترجمة عادل زعيتر: ص ٩٦. دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابلي الحلبي وشركاه ــ مصر ١٩٤٧م.

(٣) متى: ٣/١٣ ــ ١٧.

المعمدان) لم يكن الوحي ينزل عليه، وأن أول ما نزل عليه كان بواسطة روح الله (جبريل) الذي نزل على جميع الرسل عليهم السلام. وفي النص إقرار من عيسى ـ عليه السلام ـ بالعبودية لله، فلو كان إلّهاً لما تعمد من (يوحنا) وهو الخالق له.

وروى الإصحاح الرابع من إنجيل متى قصة تجربة الشيطان للمسيح ـ عليه السلام ـ والنص كما يلي: (ثم أصعد (يسوع) إلى البرية من الروح ليجرَّب من (إبليس)؛ فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً، فتقدم إليه المجرِّب وقال له: إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً، فأجاب وقال: مكتوب ليس بالخبز يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله، ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة، وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك، قال له (يسوع): مكتوب أيضاً لا تجرِّب الرب إلّهك ثم أخذه (إبليس) إلى جبل عالٍ جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذٍ قال له (يسوع): اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب إلّهك تسجد وإياه وحده تعبد، ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه)(١).

هذه القصة ـ إن صحت ـ فإن فيها أدلة كثيرة تدل على أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسول من رسله. ومن هذه الأدلة صيامه عليه السلام فلو كان إلّهاً فلمن يصوم؟ والصوم عبادة يتوجه بها المرء إلى خالقه ومنها أنه يعتريه الجوع الشديد، وهذه من صفات البشر، غير الممكنة على الله تعالى. وثم إذا كان إلّهاً فكيف يجربه إبليس، وكيف يجرؤ (إبليس) اللعين أن يطلب من الله تعالى أن يسجد إليه؟!.

وفي ردود المسيح عليه السلام على (إبليس) تكمن أدلة كثيرة على أن عيسى عليه السلام عبد بشر، فهو يقول للشيطان: (للرب إلّهك تسجد وإياه تعبد). فهو

---

(١) متى: ٤/١ ـ ١١.

يعلن أن السجود والعبادة لله وحده، وما ادعى المسيح في يوم من الأيام: هذا الحق لنفسه، ولا طالب أتباعه يوماً أن يسجدوا له ويصلوا إليه.

وقد ذكرت الأناجيل أكثر من نص يدل على أن (عيسى) عليه السلام كان يصلي، ومنها ما أورده (لوقا) في إنجيله (وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي، وقضى الليل كله في الصلاة لله)(1).

فهو يصلي لله، لأنه عبد له، والعابد غير المعبود، وهذا ينفي كونه إلّهاً، إذ كيف يسجد لنفسه أو يسجد بعضه لبعض، وهذا مستحيل عقلاً، فثبت أن المسيح عليه السلام عبد الله يسجد له، ويعبده ويصلي إليه.

٢ ـ نداؤه (يا معلم):

وقد كثر في الأناجيل نداء المسيح عليه السلام بالمعلم، وخاطبه تلاميذه كثيراً بذلك. ومن هذه النصوص:

(وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية، فقال له: لماذا تدعوني صالحاً، ليس أحد صالحاً إلَّا واحد وهو الله)(2).

والمسيح عليه السلام يطلق على نفسه هذا الوصف، ويوصي تلاميذه قائلاً لهم: (وأما أنتم فلا تدعوا سيدي، لأن معلمكم واحد المسيح، وأنتم جميعاً إخوة، ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماوات، ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح)(3).

وما أوضح هذا النص في التفريق بين المسيح ـ عليه السلام ـ وبين الله تعالى، فهو يعتبر نفسه معلماً، ووظيفة الرسل عليهم السلام أن يكونوا معلمين، والله تعالى يصف نبينا محمداً ﷺ بقوله: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم

---

(1) لوقا: ١٢/٦.
(2) متى: ١٦/١٩ ـ ١٧.
(3) متى: ٨/٢٣ ـ ١٠.

آياتنا ويُزكيكُم ويعلِّمكم الكتاب والحكمة، ويعلمُكم ما لم تكونوا تعلمون﴾[1].

وعبَّر عن الرب بالآب، ونهى تلاميذه أن يدعوا لهم أباً على الأرض لأن الله تعالى في السماء، فهذا النص توحيد مطلق لله تعالى وبيان لوظيفة (عيسى) عليه السلام بوصفه رسولاً من رسل الله تعالى الذين بعثهم الله ليعلموا الناس التوحيد وما يصلحهم في الدنيا والآخرة.

وفي إنجيل مرقص يخاطب يوحنا المسيح بلفظ المعلم (فأجابه يوحنا قائلاً: يا معلم)[2]. (وتقدم إليه يعقوب ويوحنا ابنا زبدي، قائلين: يا معلم نريد أن تفعل كل ما طلبنا)[3].

وكذلك خاطبه (سمعان) فأجاب سمعان وقال له: (.. يا معلم)[4] وكذلك قال (بطرس) ومن معه: (قال بطرس والذين معه: يا معلم)[5]، ولم يكن هذا اللقب مختصاً بتلامذته يخاطبونه به، فقد ورد في إنجيل لوقا عن رجل عادي: (وإذا رجل من المجمع صرخ قائلاً: يا معلم أطلب إليك انظر إلى ابني)[6]، وكان اليهود كلهم يعرفونه بأنه المعلم (فأجاب واحد من الناموسيين وقال له: يا معلم..)[7].

وقد استقبله رجال في إحدى القرى وخاطبوه بهذا الوصف: (وفيما هو داخل إلى قرية استقبله عشرة رجال برص، فوقفوا من بعيد، ورفعوا صوتاً قائلين: يا يسوع، يا معلم ارحمنا)[8].

فهؤلاء يعرفونه معلماً، ويعرفون أن من معجزاته إبراء الأبرص بإذن الله، فطلبوا منه أن يبرئهم.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥١.
(٢) مرقص: ٩/٣٨.
(٣) مرقص: ١٠/٣٥.
(٤) لوقا: ٥/٥.
(٥) لوقا: ٨/٤٥.
(٦) لوقا: ٩/٣٨.
(٧) لوقا: ١١/٤٥.
(٨) لوقا: ١٧/١٣.

وفي إنجيل يوحنا يقرُّ عيسى عليه السلام تلاميذه وصفهم له بالمعلم، فيقول لهم: (أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك)[1].

من مجموعة هذه النصوص يتضح لنا أن المسيح عليه السلام كان يعرف عند تلامذته وفي البيئة التي عاش بها بأنه معلم، ويلقبونه بذلك لأنهم وجدوا هذا الوصف مطابقاً للمهمة التي جاء بها من عند الله تعالى.

٣ ـ النصوص الدالة على نبوته ورسالته:

يقول المسيح لتلاميذه: (من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني)[2].

وهذا يدل على أن (عيسى) عليه السلام مرسل من عند الله، وطاعته من طاعة الله، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[3].

وتسمع في إنجيل متى تضرع المسيح عليه السلام إلى ربه: (أحمدك أيها الأب رب السماء والأرض)[4]، معلناً بذلك عبوديته له وإقراره له بالربوبية.

وفي قصة المرأة الكنعانية التي يرويها هذا الإنجيل يقول المسيح: (لم أرسل إلّا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)[5]، وهذا إقرار بأنه مرسل، فلو كان إلّهاً فكيف يكون مرسلاً، كما فيه دلالة على خصوصية رسالته عليه السلام لبني إسرائيل.

وفي إنجيل يوحنا نقرأ ما نصه: (لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله لأنه ليس بكيل يعطي الله الروح)[6].

وهكذا يعلن أنه نبي مرسل من الله يتكلم بكلامه، كما يعلن أن روح القدس

(١) يوحنا: ١٣/١٣.

(٢) متى: ١٠/٤٠.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٤) متى: ١١/٢٥.

(٥) متى: ١٥/٢٤.

(٦) يوحنا: ٣/٣٤.

لا ينزل عليه وحده وإنما ينزل على جميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا تنزل إلّا عليهم لأنهم يحفظون كلام الله ويؤدونه كما بلغهم روح القدس.

ويقول المسيح عن نفسه: (أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً كما أسمع أدين، ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني)(١)، ويقول: (والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي)(٢).

وحين قام المسيح بإحدى معجزاته قال: (أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني)(٣).

فهو يشكر الله تعالى لأنه هو الذي مكنه من فعل تلك المعجزة، وإلّا فهو بشر لا يستطيع لها فعلاً لولا مشيئة الله تعالى، وقد فعل هذه المعجزة ليؤمن قومه أنه رسول من عند الله، وهذه هي فائدة المعجزة التي تجري على يد رسل الله جميعاً عليهم الصلاة والسلام.

فنبوَّة المسيح عليه السلام ثابتة بنص الأناجيل، رغم أن النصارى لا يعتبرونه نبياً ولا بشراً وإنما هو إله حلّ في جسد ليكوِّن أقنوم الابن.

وتشير الأناجيل إلى ابتداء نبوة عيسى عليه السلام، كما ذكرنا في قصة التعميد التي رواها إنجيل متى(٤). وتؤكد نصوص الأناجيل عند ذكر هذه القصة أن المسيح عليه السلام عندما علم أن (يوحنا المعمدان) قد هلك، ترك الناصرة وذهب إلى الجليل وسكن (كفرناحوم)، وكان يكرز(٥) ببشارة الملكوت، وكان سنه ثلاثين سنة كما روت الأناجيل.

---

(١) يوحنا: ٥/٣٠.

(٢) يوحنا: ٥/٣٧.

(٣) يوحنا: ١١/٤١ ــ ٤٣.

(٤) متى: ٣/١٣ ــ ١٧.

(٥) (يكرز) كرز يكرز كروزاً دخل واستخفى والنصارى يقولون كرز يكرز كرزاً وعظ ونادى ببشارة الإنجيل فهو كارز وعمله الكرازة. انظر: قطر المحيط، المعلم بطرس البستاني: ٢/١٨٣٨، مكتبة لبنان ــ بيروت، نسخة طبق الأصل عن طبعة سنة ١٨٦٩م.

وهـذا كله في الحقيقـة يـدل على نبـوتـه عليـه السـلام ويؤيـد هـذا عشـرات النصوص الإنجيلية الواردة في الأناجيل المتداولة التي تصرح بـوصف المسيح عليـه السلام نبياً ومن هذه النصوص:

ما رواه إنجيل متى: إن عيسى ـ عليـه السلام ـ حينمـا جاء إلى قـومه وبـدأ يعلمهم كذَّبوه، وقالوا: (فمن أين لهذا هذه كلها، فكانوا يعثرون بـه، وأما (يسـوع) فقال لهم: ليس نبـي بلا كرامة إلاَّ في وطنه وفي بيته)[1].

وفي هذا إقرار من المسيح نفسه أنه نبـي، ولا كرامة لنبـي في وطنه، وعـرف النـاس كلهم المسيح على أنـه نبـي كما يـروي إنجيل متى: (ولمـا دخـل أورشليم ارتجت المدينة كلهـا قائلة من هـذا؟ فقالت الجمـوع: هذا يسـوع النبـي الذي من ناصرة الجليل)[2].

فهـذه الجموع شهـدت بأنـه النبـي الذي من نـاصرة الجليـل، ولم يتبادر إلى أذهانهم أنه إلَه ابن إلَه.

وفي إنجيـل (لـوقـا) يبين المسيـح ـ عليــه السـلام ـ أن مهمتــه أن يبشـر بملكــوت الله ولهـذا أرسله الله (إنــه ينبغي لي أن أبشــر المــدن الأخــرى أيضــاً بملكوت الله لأني لهذا قد أرسلت فكان يكرز في مجامع الجليل)[3].

وانظر إلى قولـه: (لأني لهذا قـد أرسلت) فهي نص واضح على أنـه رسول، بعث بمهمـة وعظ الناس، وتبشيـرهم بملكوت الله، وبيَّن النص كـذلك خصـوصيـة رسالته إلى قومه وأبناء وطنه من بني إسرائيل.

وحينما جاءه بعض الفريسيين لينصحوه بالخروج لأن (هيـرودوس) يهم بقتله، قال لهم: (ينبغي أن أسير اليوم وغداً، وما يليه، لأنـه لا يمكن أن يهلك نبـي خارج

(١) متى: ١٣/٥٦ ـ ٥٧.
(٢) متى: ٢١/١٠ ـ ١١.
(٣) لوقا: ٤/٤٣ ـ ٤٤.

أورشليم)[1].

ويروي إنجيل لوقا أن المسيح بعد الصلب ـ كما يزعمون ـ لقي اثنين يتحاوران في شأنه، فسألهما عن الأمور التي يتحاوران بها، فقالا: (المختصَّة بيسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب)[2].

فكان هذا ما وصفاه به (إنسان) نبي، مقتدر في الفعل والقول، ولم يذكر أنه إله أو ابن إله.

وفي الإصحاح الرابع من إنجيل (يوحنا) تروى قصة المرأة السامرية التي طلب منها المسيح أن تسقيه، وكان قد تعب من السفر، وجلس على بئر يعقوب في منطقة السامرة، فأبت أن تسقيه لأنه يهودي، وهي سامرية وأنبأها (يسوع ببعض الأمور الغيبية، فاستغربت حديثه وقالت: يا سيدي أرى أنك نبي)[3]، ثم شهد لها بعد ذلك أنه المسيح، ويذكر هذا الإصحاح أن المرأة: (تركت جمرتها ومضت إلى المدينة، وقالت للناس: هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت، لعل هذا هو المسيح)[4]. ولم ينكر المسيح قولها له: إنه نبي.

ومعلوم أن اليهود كانوا ينتظرون المسيح الذي كانوا يسمّونه (مسيا) وكان الناس كلهم زمن المسيح يعرفونه نبياً. فبينما كان يعظ الجموع ويبشرهم شهدوا له بالنبوَّة كما ورد في إنجيل (يوحنا)، (فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام، قالوا: هذا بالحقيقة هو النبي.. آخرون قالوا: هذا هو المسيح)[5].

فهم بين فريقين: فريق رأى أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل وهم كثر، وفريق قال: بل هو المسيح المنتظر.

---

(١) لوقا: ١٣/٣٣.

(٢) لوقا: ٢٤/١٩.

(٣) يوحنا: ٤/١٩.

(٤) يوحنا: ٤/٢٨ ـ ٢٩.

(٥) يوحنا: ٧/٤٠ ـ ٤١.

وقد أجرى المسيح عليه السلام إحدى معجزاته على رجل أعمى ففتح عينيه فسأله الناس: (ماذا تقول عنه من حيث إنه فتح عينيك، فقال: إنه نبي)[1].

وفي سفر أعمال الرسل يقول عيسى عليه السلام بصراحة: (فإن موسى قال للآباء: إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلٓهكم من إخوتكم له تسمعون)[2]. وأصل النص في سفر التثنية[3]، وذلك يبين أوصاف هذا النبي، وكلها تنطبق على نبينا محمد ﷺ.

هذا النص يدل دلالة واضحة على أن عيسى عليه السلام أحد الأنبياء، وهو مثل موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنص يبشر برسالة نبينا محمد ﷺ، حيث إن موسى قد بشر به من قبل وأخبر اليهود أن الله تعالى سيبعث نبياً من إخوتهم أبناء إسماعيل عليه السلام ـ وهم العرب ـ ، وعيسى عليه السلام هنا يذكرهم بقول موسى في هذه البشارة، وقد ورد ذلك القول كما قلنا في سفر التثنية، وذكر أوصافاً مطابقة لنبينا محمد ﷺ ومن تلك الأوصاف:

١ ــ إنه نبي (أقيم لهم نبياً).

٢ ــ من بني إسماعيل (من وسط إخوتهم).

٣ ــ مثل موسى في المعجزات والانتصار على الأعداء في الحروب (مثلك)[4].

٤ ــ أميّ لا يقرأ، ولا يكتب (وأجعل كلامي في فمه).

٥ ــ ينسخ شريعة موسى (له تسمعون).

٦ ــ أمين على الوحي (فيكلمهم بكل ما أوحيه به).

٧ ــ يقضي على ملك بني إسرائيل.

٨ ــ لا يقتل (وأما النبي الذي يطغى... إلخ).

---

(١) يوحنا: ١٧/٩.

(٢) الأعمال: ٣٧/٧.

(٣) التثنية: ١٨/١٥ ــ ٢٢.

(٤) التثنية: ٣٤/١٠ ــ ١٢.

٩ ـ يتحدث عن غيب يقع في المستقبل كما قال: (وإن قلت في قلبك... إلخ)[1].

٤ ـ وصف المسيح عليه السلام بالعبودية:

أما الشواهد الإنجيلية الدالة على أن المسيح عبد الله، والتي تنفي ادعاء النصارى أنه إله أو ابن إله، هذه الشواهد كثيرة جداً، وقد أحصى منها صاحب كتاب (الفارق بين المخلوق والخالق) مائة وأحد عشر شاهداً، ونكتفي في هذا الموضع بذكر بعض هذه الشواهد، واخترنا أن تكون هذه النصوص التي سنذكرها واضحة صريحة في دلالتها. والأعراض البشرية تظهر من خلال هذه النصوص على المسيح ـ عليه السلام ـ ومن هذه النصوص:

(ثم أخذ معه بطرس وابني زبدي، وابتدأ يحزن ويكتئب فقال لهم: نفسي حزينة جداً حتى الموت)[2].

وهل يمكن للإله أن يحزن ويكتئب ويموت؟

وكانت آخر كلمة قالها المسيح وهو ممثل للصلب ـ كما يزعمون ـ تعلن عن ضعفه وعجزه وعبوديته لله تعالى: (ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: (إيلي إيلي لما شبقتني) أي إلهي إلهي لماذا تركتني)[3].

وفي إنجيل مرقص يعلن المسيح أنه لا يعلم الغيب، فهو بشر لا يعلم إلاَّ ما علمه الله تعالى، ويوم القيامة مما استأثره الله تعالى بعلمه، فيقول: (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد، ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلاَّ الآب)[4].

فالمسيح عليه السلام ليس إلهاً يعلم موعد الساعة، لأن علمها عند الله ولم

---

(١) انظر: أقانيم النصارى، أحمد حجازي السقا: ص ٢٨.

(٢) متى: ٢٦/٢٧ ـ ٢٨.

(٣) متى: ٢٧/٤٥ ـ ٤٦.

(٤) مرقص: ١٣/٣٢.

يطلعه الله تعالى على ذلك، فأعلن لهم عجزه عن معرفة ذلك اليوم، وهذا موافق لحديث جبريل حينما سأل رسول الله ﷺ: (قال: أخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)[1].

فجبريل ملك من الملائكة المقربين، ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء المرسلين، ومع ذلك فهما يستويان في عدم معرفتهما بميقات يوم القيامة.

ويذكر إنجيل (لوقا) قصة الصلب التي (يزعمونها) ويذكر ما قاله المسيح وهو يسلم روحه لربه ـ كما يقولون ـ: (ونادى يسوع بصوت عظيم، وقال: يا أبتاه في يديك أستودع روحي، ولما قال هذا أسلم الروح)[2].

وفي هذا إقرار واضح أن المسيح بشر مخلوق أسلم روحه لله تعالى، فكيف يكون إلَهاً؟.

ويروي إنجيل متى قصة المرأة المجدلية[3] التي رأت المسيح عليه السلام بعد الصلب ـ كما يزعمون ـ فقالت له: (ربوني)[4] الذي تفسيره يا معلم، قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلَهي وإلَهكم)[5].

والنص واضح في دلالته على بشرية المسيح عليه السلام فالمرأة نادته بـ (يا معلم) لأن هذا الوصف بقي الناس يعرفونه له حتى آخر حياته على الأرض، وهو يقر أتباعه بهذا الوصف، ثم إنه قال لها: لا تلمسيني، والجسدية من صفة البشر، فلو كان إلَهاً لما كان له جسد يلمس ويحس، وهذا الأمر كان بعد صلبه ـ كما يزعمون ـ وبعد أن تخلص اللاهوت من الناسوت، ثم قال لها: اذهبي إلى

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الإيمان: ١٨/١. ورواه مسلم في كتاب الإيمان رقم (١): ٣٦/١.

(٢) لوقا: ٤٦/٢٣.

(٣) المجدلية: نسبة إلى المجدل (بلدة في فلسطين بين غزة ويافا).

(٤) ربوني: كلمة عبرية بمعنى يا معلم.

(٥) يوحنا: ١٦/٢٠ ـ ١٧.

إخوتي فهو بشر مثلهم وهم إخوته، وإلاَّ لو كان إلهاً لكان جميع تلاميذه آلهة ثم أخبرها بأنه سيصعد إلى أبيه وأبيهم وإلهه وإلههم، وهذا نص واضح أن الأبوَّة مجازية، ولو كانت حقيقية لكانوا جميعاً مشاركين للمسيح في البنوَّة، وهذا ما لا يقوله النصارى.

والقصة كذلك تدل على أن المسيح عليه السلام لم يصلب وإنما صعد إلى ربه، وأخبر المرأة التي رأته بعد أن نجا من الذين حاولوا صلبه، أخبرها أن تبشر تلاميذه بأن الله أنجاه وسيصعد إلى ربه في السماء.

ويذكر إنجيل (متى) قصة للمسيح عليه السلام، يجري فيها معجزة أمام تلاميذه، هذا نصها: (وفي الصبح إذ كان راجعاً إلى المدينة جاع، فنظر شجرة تين على الطريق، وجاء إليها فلم يجد فيها شيئاً إلاَّ ورقاً فقط، فقال لها: لا يكن منك ثمر إلى الأبد، فيبست في الحال، فلما رأى التلاميذ ذلك تعجبوا قائلين: كيف يبست التينة في الحال؟ فأجاب يسوع، وقال لهم: الحق أقول لكم، إن كان لكم إيمان لا تشكون فلا تفعلون أمر التينة فقط، بل إن قلتم أيضاً لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر فيكون، وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه)(١).

وقد استدل (القرافي) رحمه الله من هذا النص على عبودية المسيح عليه السلام من خمسة وجوه:

الأول: جوعه، وهو ينافي الربوبية ويثبت العبودية.

الثاني: عدم علمه بعدم ثمرة الشجرة، والله بكل شيء عليم، فدل على أنه بشر لا يعلم إلاَّ ما علمه الله.

الثالث: غضبه على الشجرة، لأنه لما انخرم عليه أمله، قوي غضبه، وهذه خاصية البشرية ومنافية للربوبية.

الرابع: تعجب التلاميذ من يبسها بقوله، ولو كانوا يعتقدون ألوهيته لم يعجبوا لذلك.

---

(١) متى: ٢١/١٨ ـ ٢٢.

الخامس: قولهم له: (لو كان إيمانكم بغير شك لطاوعكم الجبل) دلَّ ذلك على أنه إنما ظهرت كرامته في الشجرة بإيمانه الصادق لا بكونه إلّه العالم، وإلَّا كان الجواب: لو كنتم مثل آلهة، وأبناء الله، لفعلتم مثل فعلي، ولا كان يحسن ذكر الإيمان ولا علل به. دل ذلك على أنه نبيه، ودل على إثبات عبوديته وإبطال ألوهيته)[1].

والرسائل التي تعتبر مكملة لأسفار العهد الجديد حوت نصوصاً كثيرة تؤكد بشرية المسيح وعبوديته لله تعالى.

ففي رسالة الأعمال ترد خطبة (بطرس) ومعه بقية تلاميذ المسيح، التي ألقاها وخاطب بها كل الساكنين في (أورشليم) وكان مما جاء في هذه الخطبة: (يسوع الناصري رجل، قد تبرهن لكم من قبل بقوة وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون)[2].

ففي هذه الخطبة يوضح (بطرس) ـ وهو أحد تلاميذ المسيح المعروفين ـ يوضح لليهود حقيقة المسيح عليه السلام، فيذكرهم بأنه رجل من (الناصرة) جاء بآيات ومعجزات أجراها الله تعالى على يديه، وهذا شأن الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وهذه الخطبة يسمعها بقية حواريي المسيح الأحد عشر كما ورد في رسالة الأعمال[3].

وفي رسالة بولس إلى رومية: (الذين استبدلوا حق الله بالكذب واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق الذي هو مبارك إلى الأبد آمين)[4].

---

(١) الأجوبة الفاخرة، القرافي: ص ٩٧. مطبعة الموسوعات بمصر ١٣٢٢هـ (على هامش الفارق بين المخلوق والخالق).

(٢) الأعمال: ٢/ ٢٢.

(٣) انظر: الأعمال: ٢/ ١٤.

(٤) رومية: ١/ ٢٥.

وهذا النص ينطبق تماماً على النصارى الذين ادعوا أن المسيح هو الخالق وبذلك عبدوا المخلوق وتركوا خالقه سبحانه وتعالى.

وفي رسالة بولس الثانية إلى أهل (كورنثوس) (لكنه وإن كان قد صلب من ضعف فإنه حيّ بقوة الله)(1) وهذا إثبات لضعفه، وأنه إنما يحيا بقوة الله شأنه في ذلك شأن غيره من البشر.

وفي رسالة بولس الأولى إلى (تيموثاوس) يقول: (لأنه يوجد إلّه واحد، ووسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح)(2).

وهذا نص على أنه إنسان وأنه غير الله، وأنه واسطة بين الله وبين الناس يبلغهم تعاليم الله وأحكامه كسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام.

هذه بعض النصوص الإنجيلية التي تشهد بأن عيسى عليه السلام عبد الله، وأحد أنبيائه وأنه بشر كغيره من الأنبياء والمرسلين.

وإنك لتجد هذه النصوص منثورة في ثنايا الأناجيل المتداولة عند النصارى اليوم، رغم التحريف والتبديل الذي لقيته هذه الأناجيل.

ولا شك أن الإنجيل الذي جاء به عيسى عليه السلام أو الكتب التي وضعها تلامذته في سيرته قبل أن تمسّها أيدي التحريف كانت تحوي نصوصاً أوضح تدل على هذه الحقائق، فالنصارى يحرفون ما لا يروق لهم ما بين الفينة والأخرى، وإن المطلع على الكتاب المقدس بعدة لغات ليجد فرقاً بين كل لغة وأخرى، ويكون هذا الفرق جوهرياً في بعض الأحيان، وأود أن أقدم أنموذجاً واحداً على التزوير في الترجمة وعليه يكون القياس.

ورد في الإصحاح السابع من إنجيل (متى): (ليس كل من يقول لي: يا رب، يا رب يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات)(3).

---

(1) كورنثوس الثانية: ١٣/ ٤.

(2) ثيموتاوس الأولى: ٢/ ٥.

(3) متى: ٧/ ٢١.

ولدى مراجعة النسخة الإنجليزية تجد كلمة (الـرب) ترجمـة لكلمة (LORD) وكلمة (LORD) الإنجليزية تطلق على (الرب) كما يمكن أن تترجم بـ (السيد) فمن الممكن إذن أن نترجم النص بقولنا: (ليس كل من يقـول لي سيدي سيـدي يدخـل في ملكـوت الله) لا سيما وأن بقيـة النص يشهد لله تعـالى بـالـوحـدانيـة وبـوجـوب طاعة الله تعالى وحده)[1].

ومن المعلوم في أسس التـرجمة أنـه لا بد من مـراعاة سيـاق النص المتـرجم والمعنى العام له، والترجمة الحرفية لا تصلح في كثير من الأحيان.

***

(١) انظر: البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية، د. تقي الدين الهلالي: ص ٧. مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة ١٣٩٣هـ.

المبحث الثاني

إنجيل برنابا وأدلته على بشرية المسيح ورسالته

قسمت هذا المبحث إلى قسمين:

القسم الأول: قدمت به ترجمة مختصرة لحياة (برنابا) الرسول وأثبت صحة نسبة إنجيله إليه.

القسم الثاني: ذكرت الأدلة النصيَّة التي جاء بها هذا الإنجيل ليثبت بشرية عيسى عليه السلام ونبوَّته.

حياة برنابا:

(وُلد (برنابا) في قبرس من أبوين يهوديين، وكان اسمه الأصلي جوسي، أو جوزيف (يوسف) ثم لقب (برنابا) وهي كلمة سريانية معناه ابن النبوَّة أو ابن الإنذار أو ابن التعزية)[1].

(سماه الرسل بهذا الاسم، وتأويله ابن التعزية لرقة طبعه وحلمه وبشاشته)[2].

و (برنابا) أحد تلاميذ المسيح عليه السلام ويعتبره النصارى رسولاً قديساً، ورد ذكره في رسالة أعمال الرسل في أكثر من موضع، بل إن هذه الرسالة قد تحدثت عن شيء من حياته وطريقة تبشيره ومرافقته لبولس في رحلاته التبشيرية ثم افتراقه عنه.

---

(١) دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٥/٣٦٢.

(٢) الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة، إغناطيوس أفرام الأول برهوم: ١/٧٧، مطبعة السلامة ــ حمص ١٩٤٠م.

و (برنابا) أحد الرسل السبعين، الذين أوكل المسيح إليهم مهمة التبشير بدعوته، ولقد كان (برنابا) نشيطاً في دعوته، وتذكر رسالة الأعمال أنه أرسل إلى (أنطاكية)، ولما أتى ورأى نعمة الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب)[1].

وتتابع رسالة الأعمال حديثها عن رحلته التبشيرية فتقول: (ثم خرج (برنابا) إلى طرسوس ليطلب (شاول) ولما وجده جاء به إلى أنطاكية، فحدث أنهما اجتمعا في الكنيسة سنة كاملة، وعلَّما جمعاً غفيراً، ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولاً)[2].

وتشهد رسالة الأعمال لبرنابا بالصلاح والإيمان (لأنه كان رجلاً صالحاً وممتلئاً من الروح القدس بالإيمان)[3].

والنصارى يزعمون أن روح القدس خاطب (برنابا)، كما خاطب (بولس) (وبينما هم يخدمون الرب ويصومون، قال الروح القدس: (افرزوا لي (برنابا) و (شاول) للعمل الذي دعوتهما إليه)[4].

برنابا وبولس:

(بولس) كما أشرنا من قبل ليس من تلاميذ المسيح، وعند تحوله إلى النصرانية كان المسيح عليه السلام قد فارق الدنيا، وفي ذلك الوقت كان (برنابا) أحد الرسل السبعين الذين استخلفهم المسيح عليه السلام للتبشير بدعوته.

وبرنابا هو الذي شهد لبولس بالإيمان، لأن الناس لم يكونوا واثقين به، (ولما جاء (شاول) إلى أورشليم، حاول أن يلتصق بالتلاميذ، وكان الجميع يخافونه غير

---

(١) الأعمال: ٤/٢٦.
(٢) الأعمال: ١١/٢٥ ـ ٢٦.
(٣) الأعمال: ١١/٢٤.
(٤) الأعمال: ١٣/٢.

مصدقين أنه تلميذ، فأخذه (برنابا) وأحضره إلى الرسل، وحدثهم كيف أبصر الرب في الطريق، وأنه كلمه وكيف جاهر في دمشق باسم يسوع)[1].

قام (برنابا) بمرافقة (بولس) يطوفان في البلاد برحلات تبشيرية، وقد أشرنا إلى رحلتهما معاً إلى (طرسوس) و(أنطاكية) وبعد ذلك طافا بلاداً كثيرة (فهذان إذ أرسلا من الروح القدس، انحدرا إلى (سلوكية)، ومن هناك سافرا في البحر إلى قبرس.. واجتازا الجزيرة إلى بافوس)[2].

ويظهر من رسالة الأعمال أن جموعاً غفيرة من الأمم قبلت الإيمان على يدي (برنابا) و(بولس)، فيقص علينا الإصحاح الخامس عشر أنهما عادا إلى القدس، واجتمعا مع الرسل والمشايخ وجموع الناس، وأخبرا عن نتائج رحلتهما (فسكت الجمهور كله وكانوا يسمعون (برنابا) و(بولس) يحدثان بجميع ما صنع الله من الآيات والعجائب في الأمم بواسطتهم)[3].

وقرر الرسل والمشايخ أن يعود (برنابا) و(بولس) إلى أنطاكية لاستكمال مهمتهما، ويبعثوا معهما رجلين منهم، (حينئذٍ رأى الرسل والمشايخ أن يختاروا رجلين منهم فيرسلوهما إلى أنطاكية مع بولس وبرنابا)[4].

وبعثوا معهم كتاباً إلى الأمم جاء فيه: (رأينا وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم مع حبيبِنا (برنابا) و(بولس)، رجلين قد بذلا لأنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح)[5].

وتشير رسالة الأعمال إلى قصة النزاع والمفارقة التي حصلت بين (برنابا) و(بولس) والسبب فيها يدور حول (مرقص) صاحب الإنجيل، وهو ابن أخت

(١) الأعمال: ٩/٢٦ ـ ٢٧.
(٢) الأعمال: ١٣/٤، ٦.
(٣) الأعمال: ١٥/١٢.
(٤) الأعمال: ١٥/٢٢.
(٥) الأعمال: ١٥/٢٥ ـ ٢٦.

(برنابا) كما جاء في رسالة (بولس) إلى أهل كولوسي (يسلم عليكم (ارسترخس) المأسور معي و (مرقص) ابن أخت برنابا)[1].

وقصة النزاع بينهما ترويه رسالة الأعمال كما يلي: (ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا: لنرجع ونتفقد إخوتنا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب كيف هم، فأشار (برنابا) أن يأخذا معهما أيضاً (يوحنا) الذي يدعى (مرقص) وأما (بولس) فكان يستحسن أن الذي فارقهما من (بمفيلية) ولم يذهب معهما للعمل، لا يأخذانه معهما، فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر، و (برنابا) أخذ (مرقس) وسافر في البحر إلى قبرس، وأما بولس فاختار (سيلا) وخرج مستودعاً من الإخوة إلى نعمة الله)[2].

هذا ما يرويه سفر الأعمال عن قصة الخلاف بين (برنابا) و (بولس) والواقع أن قصة الخلاف تهمنا في هذا الموضع، لأن (برنابا) يبدأ إنجيله بمقدمة يظهر من خلالها خلافه الشديد مع (بولس) فيقول: (أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح، برحمة عظيمة للتعليم، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً، مجوِّزين كل لحم نجس، والذين ضل في عدادهم أيضاً (بولس) الذي لا أتكلم عنه إلَّا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر هذا الحق الذي رأيته، وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع، لكي تخلصوا، ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله)[3].

فالخلاف بين (برنابا) و (بولس) وارد في أسفار العهد الجديد، (التي يعترف بها النصارى اليوم) ووارد في إنجيل برنابا (الذي لا تعترف به الكنيسة)، ونحن هنا أمام سببين ذكرا للخلاف:

---

(١) كولوسي: ٤/ ١٠.

(٢) الأعمال: ١٥/ ٣٦ ــ ٤٠.

(٣) برنابا، المقدمة: ص ٢ ــ ٨.

السبب الأول: ذكر في رسالة أعمال الرسل، وملخصه أن الخلاف الذي أدى إلى الافتراق، كان حول مصاحبة (مرقس) لهما في ترحالهما، فبرنابا يشير بمرافقة (مرقس) لهما، وبولس يرفض ذلك.

والسبب الآخر: ذكره (برنابا) في مقدمة إنجيله وملخَّصه: أن الخلاف كان حول مسائل أساسية في العقيدة، وهي أن بولس دعا إلى انحراف في العقيدة عما أخبر به السيد المسيح، فقال بأن المسيح ابن الله، وأبطل أحكاماً من الشريعة التي أقرَّها المسيح عليه السلام وهي شريعة التوراة، فأبطل الختان وأحل كل لحم نجس.

ولو أن أي عاقل اطلع على هذين السببين، لأدرك أن السبب الذي ذكرته رسالة الأعمال (الذي يؤمن به النصارى اليوم) لا يمكن أن يعتبر سبباً إذا ما قيس بالسبب الذي ذكره (برنابا) في إنجيله، فقضية مرافقة (مرقس) لا تشكل أمراً يستحق المفارقة والنزاع، أما قضايا العقيدة والشريعة فهي بلا شك تستحق النزاع والمفارقة.

ثم لنا أن نتساءل حول السبب الذي تذكره رسالة الأعمال، ما سبب إصرار (برنابا) على اصطحاب (مرقس) وإصرار (بولس) على رفض ذلك، ولعل ما أورده (بطرس فرماج) في كتابه (عيون الأخيار في تراجم الأبرار) من أن (مرقس) صاحب الإنجيل أنكر ألوهية المسيح (كما أشرنا من قبل) يوضح لنا هذا الاستفهام، ويؤكد أن (برنابا) اصطحب (مرقس) وترك (بولس) الذي يقول بأن المسيح ابن الله، ويقول بلاهوته خلافاً لتعاليم المسيح الصحيحة.

إنجيل برنابا:

الأناجيل التي روت قصة حياة المسيح عليه السلام كثيرة جداً، تقرب من مائة إنجيل، كما قال بعض الباحثين، وكانت هذه الأناجيل منتشرة بين الناس في العهود الأولى للمسيحية، وبقي الأمر كذلك حتى مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ الذي خرج على المسيحيين بعقيدة خاصة فرضت عليهم بقوة سلطان الدولة، وحكم على كل الأفكار أو الكتب المخالفة بالحرق والإعدام.

وكان من هذه الكتب التي منعت (إنجيل برنابا) (ويذكر المؤرخون المسيحيون أن البابا (جلاسيوس الأول) الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢م قد أصدر أمراً بابوياً يعدد فيه أسماء الكتب المنهي عنها ومنها إنجيل برنابا)[١].

ظهوره:

(بقي إنجيل (برنابا) سراً مكتوباً حتى سنة ١٧٠٩م عندما عثر عليه (كريمر) أحد مستشاري ملك بروسيا، حيث أقرضه إياه أحد وجهاء مدينة أمستردام، وبعد ذلك بأربع سنوات أهداها إلى البرنس (الأمير) (أيوجين سافوي) الذي انتقلت مكتبته كلها سنة ١٧٣٨م إلى مكتبة البلاط الملكي في (فيينا) ومعها هذه النسخة الإيطالية ولا زالت هناك حتى الآن)[٢].

(ووجدت نسخة أخرى من هذا الإنجيل باللغة الإسبانية في أوائل القرن الثامن عشر تقع في مائتين واثنين وعشرين فصلاً، جرَّ عليها الدهر ذيل العفاء وكان قد أقرضها الدكتور (هلم) من هدلي (بلدة في أعمال همبشير) للمستشرق (سايل) ثم تناولها من بعده الدكتور (منكهوس) أحد أعضاء كلية الملكة في أكسفورد، فنقلها إلى الإنجليزية ثم دفع الترجمة من الأصل سنة ١٧٨٤م إلى الدكتور (هويت) أحد مشاهير الأساتذة)[٣].

ثم فقدت هذه النسخة ولم يعثر عليها كما يقول الدكتور سعادة.

ويذكر الدكتور (خليل سعادة) أن الدكتور (هويت) أشار إلى هذه النسخة في بعض خطبه التي كان يلقيها على الطلبة، حيث استشهد ببعض شذرات منها. وقام الدكتور (سعادة) بمطالعة هذه الشذرات، ومقابلتها بالترجمة الإنجليزية للنسخة الإيطالية الموجودة في (فينّا) فوجد الإسبانية ترجمة حرفية عن تلك، ولم يجد بينهما فرقاً إلّا في أمرين بسيطين)[٤].

---

(١) مقدمة مترجم إنجيل برنابا (خليل سعادة): ص ٢٧. تحقيق سيف الله أحمد فاضل.

(٢) مقدمة مترجم إنجيل برنابا (خليل سعادة): ص ١٨.

(٣) نفس المرجع: ص ١٨.

(٤) نفس المرجع: ص ١٩.

(ويؤخذ مما علقه (سايل) على النسخة الإسبانية أنه مسطور في صدرها أنها مترجمة عن الإيطالية بقلم مسلم أورغاني يسمى (مصطفى العرندي) ومصدَّرة بمقدمة يقص فيها مكتشف النسخة الإيطالية، وهو راهب لاتيني يسمى (فرامرينو)، كيفية عثوره عليها، ومن جملة ما قاله إنه عثر على رسائل لـ (إيرينابوس) وفي عدادها رسالة يندد فيها بالقديس بولس الرسول، وأسند تنديده إلى إنجيل القديس برنابا، فأصبح هذا الراهب شديد الشغف لهذا الإنجيل، واتفق أنه أصبح مقرَّباً من البابا (سكتس الخامس) فدخل مكتبة البابا فوجد هذا الكتاب، فخبَّأه في أحد ردنيه، فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتنق على إثر ذلك الدين الإسلامي)[1].

وهذه الرواية ينقلها الدكتور (سعادة) عن المستشرق (سايل) في مقدمة له لترجمة القرآن، وهي مدوَّنة كما يقول (سايل) في مقدمة النسخة الإسبانية.

ترجمته:

وعلى هذا فالنسخة الموجودة بين يدي الباحثين اليوم هي النسخة الإيطالية الموجودة في مكتبة البلاط الملكي بـ (فينّا)، ولقد قام بترجمتها إلى الإنجليزية المحقق (لونسدال راغ) نائب مطران الكنيسة الإنجليزية في (فنيس) وعقيلته (لورا راغ) وطبعته مطبعة كلارندن بأوكسفورد.

وفي سنة ١٩٠٨م قام الدكتور خليل سعادة ـ وهو نصراني لبناني عاش في مصر ـ بترجمة هذا الإنجيل إلى العربية عن النسخة الإيطالية، وترجمتها الإنجليزية وقام بنشره الشيخ (محمد رشيد رضا) في دار المنار.

وفي سنة ١٩٧٠م قام الأستاذ (سيف الله أحمد فاضل) بتحقيق هذا الكتاب، مقارناً ما ورد فيه بآي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، موضحاً أوجه الشبه والخلاف، وقام كذلك بمراجعة الإشارات إلى النصوص التي دوَّنها (لونسدال) من الكتاب المقدس، بتلك النصوص المشابهة لما ورد في إنجيل (برنابا) وبذلك قدَّم المحقق (سيف الله أحمد فاضل) خدمة مشكورة لهذا الكتاب.

---

(١) مقدمة المترجم (خليل سعادة): ص ١٩.

ثبـوتـه:

بحث علماء أوروبا في النسخة الإيطاليـة لهذا الإنجيـل، وكتبوا فيهـا فصولاً طـويلة وتضاربت آراؤهم حـول مؤلفها وتـاريخ تـأليفها. وقـد لخَّص لنا هـذه الآراء الدكتور (خليل سعادة) في مقـدمته التي وضعهـا لترجمـة هذا الإنجيـل. وسنعرض لهـذه الآراء لنؤكد صلة هـذا الإنجيـل بتلميـذ المسيـح (بـرنـابـا) ونـرد على الآراء المخالفة.

ومن المعلوم لدينا أن الكنائس الحالية ترفض أي إنجيل عدا الأناجيل الأربعة المتـداولة، لـذا فإن الكنيسـة عاملت هـذا الإنجيل عنـد اكتشـافـه هـذه المعـاملة، فلم تعتبـره إطـلاقـاً، وقـالت بـأنـه من وضـع المسلمين، وطبيعي أن يـأخـذ عـامـة المسيحيين قول الكنيسة هذا، فيؤمنوا به على علاتـه، كما يؤمنـون بأسس عقيـدتهم وأركانها على علاتها، ولكن الباحثين في الغرب لم يقفوا عند هذا الحد، بـل راحوا يبحثـون وينقبون ليصلوا إلى مصـدر هذا الإنجيـل، لكن بعضهم بحث المـوضـوع بروح غير علمية، فقد وضع فرضاً وراح يبحث عن مؤيدات لهذا الفرض. افتـرضوا أنه من وضع المسلمين، ثم لم يستطيعوا البرهنة على ذلـك، وراحوا يتخبـطون في جنسيته، فقالوا بأنه تركي وقالوا بأنه عربـي، ثم قالوا بأنه أندلسي إلى غيـر ذلك من أقوال، وكل قول لهم تجد من الباحثين من يفنده.

لقد تناول الباحثون النسخة الإيطالية، ولم يسلموا بالطبع أنها لتلميـذ المسيح (بـرنابـا)، وإنما راحـوا يبحثون عن مصـدرها، وطبَّقـوا عليها نـظرية علمـاء الآثار، فبحثوا في تجليدهـا ونسخها وطبيعـة ورقها، ودرسـوا الهوامش العـربية التي عليهـا أسلوباً وخطّاً، كما بحثوا مـوضوعـات هذا الإنجيـل ومدى مـطابقتها للقـرآن الكريم والكتاب المقدس، ليعرفوا عمن تأثر وأخذ.

أمـا عن التجليـد فهي (مجلدة بصحيفتين رقيقتين متينتين من الـورق المقـوّى يغـطيهما جلدان لـونهما أدكن ضـارب إلى الصفـرة النحـاسيـة، ويحيط بهـمـا على الحوافي الأربع خطان مذهبان، وفي مركز الجلد نقش بارز، تحيط به حافة مزدوجة من نقوش ذهبية متباينة الأشكال، يسميها الغربيون بالطراز الغربـي، ويستدلـون من

مجمل التجليد المنوَّه عنه أنه طراز شرقي)[1].

وبعد أن نقل الدكتور (سعادة) قول هؤلاء الباحثين الذين أرادوا أن يتوصلوا إلى الأصل العربي لهذا الإنجيل من خلال طراز تجليده، ردَّ بأن هذا غير ثابت فقال: (إلاَّ أن البعض يذهب إلى أن التجليد المذكور برمته قد يكون من صنع المجلدين الباريسيِّين، اللذين استقدمهما الدوق (دي سافوي) لتجليد النسخة المذكورة، فقد يكونا جلَّداها تقليداً للطراز العربي، ومما حملهم على هذا الظن أن المحفظة الخارجية هي صنع المجلدين الباريسيين بلا مراء)[2].

والواقع أنه حتى لو ثبت أن التجليد من طراز عربي شرقي، فإن ذلك لا يعتبر دليلاً على أنها من أصل عربي، لأن طراز التجليد هذا قد يكون هو المعروف في ذلك العصر أو هو أفضل طراز معروف، وكان كل المجلدين يقلدون هذا الطراز فجلدت هذه النسخة وفقه.

أما عن ورق هذه النسخة فقد ذهب بعضهم إلى أن هذه النسخة من الورق المسمى بالتركي، ولكن الدكتور (سعادة) يرد على مزاعم القائلين بالأصل التركي فيقول: (إن الآثار المائية في الورق، وهي التي تبدو لك متى استشففته ولم تشاهد في نوع من أنواع الورق الشرقي قط، وهي الصحائف المنوَّه عنها على شكل مرساة سفينة تحيط بها دائرة وهي علامة مميزة لنوع من الورق الإيطالي على ما قال به بعض مشاهير الأخصّائيين)[3].

أما خط هذه النسخة الإيطالية وكتابتها فقد بحثوا به أيضاً، فقال بعضهم: (إنا ناسخها من أهالي البندقية، نسخها في القرن السادس عشر أو أوائل السابع عشر، ويرجح أنه أخذها عن نسخة طسكانية، أو عن نسخة بلغة البندقية تطرقت إليها اصطلاحات طسكانية، وهي أقوال (لونسدال) وعقيلته (لورا) بعد أن أخذا في ذلك

---

(١) مقدمة المترجم (خليل سعادة)، النسخة المحققة: ص ١٧.

(٢) مقدمة المترجم (خليل سعادة)، النسخة المحققة: ص ١٧.

(٣) نفس المرجع: ص ١٨.

آراء أعظم الثقات الإيطاليين، الذين يؤخذ قولهم حجّة في هذه المباحث الأخصائية)[1].

وهناك قضية اتخذها كثير من الباحثين ذريعة للحكم على هذا الإنجيل، أنه من وضع أحد المسلمين، تلك هي قضية الهوامش العربية التي وجدت على النسخة الإيطالية.

هذه الهوامش كانت محيرة لهم، فلم يستطيعوا إطلاق حكم من خلالها، فقد كثرت أغلاطها، وحوت عبارات سقيمة، وعبارات صحيحة محكمة، يقول الدكتور (سعادة): (إن ما كان منها ركيك العبارة سقيم التركيب، جرى فيه الكاتب على الترجمة الحرفية في أضيق معانيها وأسخفها، فوضع المضاف إليه قبل المضاف وهو ما لا يفعله كاتب عربي تحت الشمس، وليس ذلك فقط في الهوامش التي هي ترجمة بعض الفقرات إلى العربية، بل أيضاً في الهوامش التي هي من أوضاعه التي لا مقابل لها بالإيطالية)[2].

رد مزاعم القائلين بأن أصله عربي:

تشكيكاً في إرجاع هذا الإنجيل إلى أصله الصحيح، فقد قال بعض الباحثين من المسيحيين إن أصله عربي مستندين إلى أدلة ظنية منها تجليده بالطراز العربي، والهوامش العربية التي عليه، وكونه مخالفاً في بعض مواضيعه لأصول المسيحية الحاضرة، وموافقاً فيها لما عليه المسلمون.

يقول الدكتور (خليل سعادة): (وكان أول من أشار إلى ذلك (كريمر) الذي عثر عليه سنة ١٧٠٩م ـ حيث صدَّر النسخة الإيطالية التي أهداها إلى الدوق (سافوي) ببضعة أسطر من عنده، يذكر فيها أن هذا الإنجيل المحمدي مترجم عن العربية أو سواها، ثم تابعه في ذلك (لاموني) حيث يقول: (أراني البارون (هو

(١) نفس المرجع: ص ٢٢.

(٢) مقدمة المترجم (خليل سعادة): ص ٢٠.

هندرف) كتاباً يزعم الأتراك أنه للقديس برنابا، والظاهر أنـه منقول إلى الإيـطالية من العربية)[1].

ويريد بالأتراك جمهور المسلمين والعرب.

لكن هـذين الباحثين لم يقـدما دليـلاً واحداً على صحـة ما ذهبـا إليه، فكـان كلامهما مبنياً على فرضيـة دفعهما إليهـا التعصب الأعمى، لا قول الحق، وتـابعهما بذلك الـدكتور (هـويت)، وادعى أن الأصل العـربـي لا يزال مـوجوداً في الشـرق، لكن الـدكتـور (سعـادة) يفنـد ادِّعـاءَه هـذا وقـال: (إن كـلامـه مبني على كتـابـات المستشرق (سايل) التي نشرها قبل ذلـك بنحو نصف قـرن من الزمن، حيث يقـول (سايل): (إن عند المسلمين إنجيلاً عربياً ينسبونه إلى القـديس (برنـابا) وفيـه يروي تاريخ المسيـح على أسلوب يباين كـل المباينـة الأناجيـل الصحيحة، وينـطبق على التقاليد التي جرى عليها محمـد في قرآنـه)، ولكن المستشرق (سـايل) يعتـرف في مقدمة ترجمة القرآن أنه لم يرَ إنجيل برنابا، فيقول: (إني لـم أرَ إنجيل برنـابا عنـدما ألمحت إليـه في المباحث التمهيـدية)، (فقـوله السـابق إذن مبني على السماع لأنـه لم يعثر على نسخة عربية للإنجيل المذكور قط)[2].

مناقشة مترجم إنجيل برنابا (الدكتور خليل سعادة):

رغم أن الدكتور (خليل سعادة) حاول في مقدمته أن يبدو باحثاً نزيهاً، فجمـع الآراء التي دارت حول إنجيل (برنابا) وفنَّد كثيراً منها بأسلوب جيد، رغم ذلـك فإن النتيجـة التي تـوصـل إليهـا ليست علميـة بـل تـظهـر فيهـا نـظرة التعصب لـرأيـه كنصراني . . .

ولم يجد الدكتور (سعادة) عنـد القائلين بـالأصل العـربـي لهذا الإنجيـل أدلة تؤيـد نظرتهم، فـراح يبحث عن بـديـل دون أن يخـرج عن الفـرضيـة التي وضعهـا مسبقاً، وهي أن كاتب هذا الإنجيل مسلم فكان رأيه في قـوله: (غيـر أن القول بـأن

(١) نفس المرجع: ص ٢٣.
(٢) مقدمة المترجم: ص ٢٣.

هذا الإنجيل عربـي الأصل، لا يترتب عليه أن يكون كاتبه عربـي الأصل، بل الذي أذهب إليه أن الكاتب يهـودي أندلسي اعتنق الـدين الإسلامي بعـد تنصره واطـلاعه على أناجيل النصارى، وعندي أن هذا الحل هو أقرب إلى الصـواب من غيره، لأن لكاتبه إلماماً عجيباً بأسفار العهد القديم، لا تكاد تجد له مثيلاً بين طوائف النصارى إلاّ في أفـراد قليلين من الأخصـائيين، الـذين جعلوا حيـاتهم وقفـاً على الـدين كالمفسرين. . . والمعـروف أن كثيرين من يهـود الأندلس كـانوا يتضلعـون بالعـربية فيكون مثلهم ـ في الاطلاع على القرآن والأحاديث النبوية ـ مثـل العرب أنفسهم، ومما يؤيد هذا المذهب ما ورد في هذا الإنجيل من وجوب الختان)[1].

هذا ما ذهب إليه الدكتور (خليل سعادة) بعد عرضه الجيد لما ذكره الباحثـون حول إنجيل (برنابا).

وإذا حاولنا مناقشة الدكتور (سعـادة) في رأيه هـذا، فإننـا نجد أن الأدلـة التي استند إليها لا تصلح حجة بينة.

لقـد حاول منـذ البدايـة أن يصرف هـذا الإنجيل عن (بـرنابـا) أحـد تـلاميـذ المسيح، ولكنه لم يستطع أن يقول بأن كاتبه عربـي، لمـا وجده من عبـارات سقيمة على هـامش النسخة الإيـطالية لا يمكن أن ينـطق بها عـربـي، ولعـدم العثـور على نسخة عربية أصلية كما زعم (هويت)، ولما رأى من اطلاع كاتب هذا الإنجيل على أسفـار العهدين القـديم والجديـد، عندئـذ راح الدكتـور (سعادة) يقـول: إن كـاتبـه أندلسي يهودي تنصر ثم أسلم.

(ولو أن الدكتور (سعادة) قال الحقيقة، ونسب هـذا إلى الإنجيل إلى صـاحبه (بـرنـابـا) تلميـذ المسيـح، وأحـد رسله السبعين، لاختصـر على نفسـه الـطريق. فـ(برنابا) ما دام من تلاميذ المسيح الذين رافقوه مدة من الـزمن، لا شك أنـه سمع منـه من أخبار العهـد القديم، وسمـع منه البشـارة بنبـي الإسلام محمـد ﷺ. وهـو كمبشر نصراني نشيط كما ذكرنا ـ تعتبر التـوراة عنده أسـاس شريعتـه، جاء مـوسى عليه السلام ليكملهـا لا لينقضها ـ ، لا شـك أنه مـطلع على التوراة اطـلاعاً جيـداً

(١) نفس المرجع: ص ٢٤.

جعل الدكتور (سعادة) يشهد بأن لكاتب هذا الإنجيل إلماماً عجيباً بأسفار العهد الجديد، لا تكاد تجد له مثيلاً بين طوائف النصارى إلّا في أفراد قليلين من الأخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين)[1].

أما ما استدل به الدكتور (سعادة) واعتبره مؤيداً لمذهبه، وهو ما ورد في إنجيل (برنابا) عن وجوب الختان مما لا يصدر عن نصراني كما يقول، فإنه لا يعتبر دليلاً مطلقاً، لأن الختان كان معروفاً عند النصارى زمن المسيح عليه السلام، وتركه النصارى بعد دخول الأمم الوثنية إلى النصرانية حيث ألغاه (بولس). ولقد كان المبشرون من تلاميذ المسيح عليه السلام يأمرون الناس بالختان كما في شريعة التوراة، وأشارت رسالة الأعمال إلى أن تلاميذ المسيح كانوا يأمرون الأمم بوجوب الاختتان، فرفضت الأمم ذلك، فاتفق مجمع الشيوخ في أورشليم على إلغاء الختان، وبعثوا رسالة إلى الأمم مع (برنابا) و (بولس) ومعهما رجلان اختارهما المجمع، ومما جاء في هذا الكتاب: (الرسل والمشايخ والأخوة يهدون سلاماً إلى الأخوة الذين من الأمم في أنطاكية وسورية وكليكية، إذ قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس)[2].

(كما أشار (برنابا) في مقدمة إنجيله إلى ذلك حيث حذر الناس من المبتدعين الذين ألغوا شريعة الختان)[3].

فورود مسألة الختان في هذا الإنجيل التي استدل بها الدكتور (سعادة) على أن كاتب هذا الأنجيل ليس نصرانياً يعتبر في الحقيقة دليلاً عليه لا معه، وهي مما يؤكد نسبة هذا الإنجيل إلى (برنابا) الذي اختلف مع (بولس) أصلاً حول هذه القضية وما شابهها.

ويعترف الدكتور (سعادة) من خلال اطلاعه على موضوعات هذا الإنجيل،

---

(١) مقدمة المترجم: ص ٢٤.

(٢) الأعمال: ١٥/٢٣ ـ ٢٤.

(٣) راجع مقدمة إنجيل برنابا.

أن على كثير منها صبغة الأقدمية، ويذكر مرسوم البابا (جلاسيوس الأول) سنة ٤٩٢م الذي ذكر الكتب المنهي عن قراءتها، ومن بينها إنجيل (برنابا)، لكنه يعود ليقول: (إذا صح ذلك كان هذا الإنجيل موجوداً قبل ظهور المسلمين بزمن طويل... فمن المستبعد أن لا يتصل خبره ولو سماعاً بنبي المسلمين، وفيه العبارات الصريحة المتكررة بل الفصول الضافية الذيول التي يذكر اسمه في عرضها ذكراً صريحاً)[1].

لقد استدل الدكتور (سعادة) على عدم أسبقية هذا الإنجيل للإسلام بأن النبي ﷺ لم يطلع عليه، ولو اطلع عليه لاحتج به وأخذ عنه، لأن فيه العبارات الصريحة المتكررة التي يذكر فيها اسم النبي محمد ﷺ.

وهذا دليل باطل، فمن المعلوم أن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يكن مقيماً في البلاد التي سادتها المسيحية فترة طويلة حتى يتمكن من الاطلاع على كتبهم التي تخفى على الكثيرين منهم، هذا وقد مضى على مرسوم (جلاسيوس) ٤٩٢م عند البعثة النبوية سنة ٦١٠م مائة وثمانية عشر عاماً وهذه المدة كفيلة لأن تخفي ما كان معلوماً، سيما وأنه حرم على الناس قراءته ونشره. وبناء على ذلك فإننا أمام هذا كله نستطيع أن نؤكد أن (برنابا) اختلف مع (بولس) الذي يعتبر المصدر الأساسي من مصادر انحراف النصرانية عن توحيدها والذي كان يتخلى عن العقيدة النصرانية الصحيحة لتلائم دعوته الأمم الوثنية، فنادى بألوهية عيسى عليه السلام، وكانت فكرة جديدة على النصرانية، وشكل من تعاليم المسيحية السمحة عقائد لاهوتية معقدة، لا تمت إلى دعوة المسيح عليه السلام بصلة، كل هذه الانحرافات لم يرض بها (برنابا) التلميذ الوفي لتعاليم المسيح عليه السلام، فاعتزل (بولس) وفارقه، وأخذ معه ابن أخته (مرقس) الذي تشير بعض المصادر إلى أنه كان ينكر ألوهية المسيح، ومن هذه المصادر كتاب (مروج الأخيار في تراجم الأبرار) للأب (بطرس فرماج) حيث يقول في ترجمته لمرقس نقلاً عن المؤرخ (أوسابيوس): (إن هذا الإنجيلي لم يذكر ما قاله السيد المسيح في مدح

(١) مقدمة المترجم، خليل سعادة: ص ٢٧.

(بطرس) الرسول بعد أن اعترف بألوهيته، وأغفل أيضاً ذكر الآية التي صنعها عز وجل من أجل (بطرس) حينما مشى على وجه البحر، وبخلاف ذلك يسهب الكلام في زلات هذا الرسول كنكرانه السيد المسيح، وذلك لأن الرسول قد أخبره عن هذه، لا عن تلك فلما عاد القديس (بطرس) إلى رومية قرأ إنجيل تلميذه وأثبته)[1].

فهذا المؤرخ المسيحي القديم يقرّ بأن الإنجيلي (مرقس) لم يذكر في إنجيله اعتراف (بطرس) بألوهية المسيح، ومع ذلك فإن (بطرس) عندما قرأ إنجيله أثبته مما يدل على صحته.

لقد رفض (برنابا) كل الانحرافات التي جاء بها (بولس) وأخذته الغيرة الدينية، فكتب إنجيله هذا ليوضح للناس البدع التي جاء بها (بولس) وأدخلها على النصرانية، فكانت مقدمة إنجيله توضح للناس الغاية الأساسية من كتابته هذا الإنجيل، وهي الرد على افتراءات (بولس).

أدلة ثبوته:

وفي نهاية هذا الموضوع أود أن أذكر الأدلة التي تؤيد نسبة هذا الإنجيل إلى (برنابا) واستحالة أن يكون واضعه مسلماً أو أنه وضع بعد بعثة نبينا محمد ﷺ. ومن هذه الأدلة:

١ ــ قضية الخلاف التي ذكرناها بين (بولس) و (برنابا)، والتي كانت حول البدع والانحرافات التي أدخلها بولس للمسيحية، هذه القضية جعلت (برنابا) يقوم بهذا العمل، وهو كتابة إنجيل يضم حياة المسيح وأعماله وعقيدته وتعاليمه، حتى يحذروا من المبتدعين والمنحرفين.

٢ ــ (لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في كتابات مشاهير الكتاب المسلمين في القديم أو الحديث، حتى ولا في مؤلفات من انقطع منهم للأبحاث والمجادلات

---

(١) مروج الأخيار في تراجم الأبرار، بطرس فرماج اليسوعي: ص ٢٣٣. مطبعة الآباء اليسوعيين المرسلين ــ بيروت ١٨٧٧م.

الـدينيـة، ولا في فهـارس الكتب العـربيـة القـديمـة عنـد العـرب أو الأعـاجم أو المستشرقين، الذين وضعوا فهارس لأندر الكتب العربية من قديمة وحديثة)[1].

ومن قول الدكتور (خليل سعادة) هذا نستدل على أنه لـو كان كمـا يدعي هـو وغيره من النصارى أن هذا الإنجيل وضع بعد الإسلام، لوجـدت العلماء المسلمين قـد استشهدوا بـه في كتبهم في الرد على النصـارى، ولوجـدته في فهـارس الكتب العربية، ولو وجد في بيئة إسلامية لاهتم به العلماء كثيراً، ولما ضاع واندثر ذكره.

٣ ـ وجود هذا الإنجيل في بيئة نصرانية خالصة، والتتبـع التاريخي لـه يؤكد ذلـك فقد عثـر عليه (كـريمر) أحـد مستشاري ملك بـروسيا، حيث أخـذه من أحـد مشاهير مدينة (أمستـردام)، ثم انتقلت هذه النسخـة إلى البرنس (أيـوجين سافـوي) الذي انتقلت مكتبته إلى مكتبـة البلاط الملكي في (فينـا)، ومن قبل (كـريمر) عثـر عليه الراهب (فرامرينو) حيث وجدها في مكتبة البابا (سكتس الخـامس)، وهذا كله يؤكد أن النسخة قد بقيت في بيئة مسيحية بعيدة عن العالم الإسلامي.

ثم كيف لإنجيل كاذب أن يعيش في مكتبة البابا ثم إلى البرنس (أيـوجين) ثم إلى مكتبة البلاط الملكي في (فينّا) وينال هذه العناية من تجليد، وتذهيب وكل هذه أوساط مسيحية.

٤ ـ مرسوم (جـلاسيوس) سنـة ٤٩٢م الذي يـذكره المؤرخـون، والمتضمن قائمة الكتب الممنوعة ومنها (إنجيل برنابا) ولم نجد أدلة على نفي هذا المرسوم.

٥ ـ موافقة بعض موضوعـات هذا الإنجيـل للقرآن الكـريم لا تدل على أنـه من وضع مسلم، فـ (برنابا) عاش مع السيد المسيح عليـه السلام، وسمـع منه هـذه الموافقة، ولا غرابة أن تكون هذه معروفة عند نبـي الله عيسى عليه السلام.

٦ ـ قضية الهوامش العربية التي استدل منها البعض على نسبة هذا الإنجيل لأصـل عربـي، لا تـدل بحالٍ على أن واضـع هذا الإنجيـل مسلم، لأننا مـع هـذه الهوامش أمام عدة احتمالات:

---

(١) مقدمة المترجم: ص ٢٣.

منها: أن يكون الراهب (فرامرينو) هو الذي وضع هذه الهوامش، سيما وأن الرواية تقول إن هذا الراهب اعتنق الإسلام بعد قراءته لهذا الإنجيل، فوضع هذه الهوامش بعد ذلك، ومن هنا كان بعض العبارات سقيماً وبعضها صحيحاً، فهو ليس بعربي، والأعاجم يكتبون أحياناً عبارات صحيحة بليغة وأحياناً تأتي عبارتهم سقيمة.

(ويحتمل أن يكون بعض القسس قد تعلم العربية ليتبين هل فيها مصادر لهذا الإنجيل يمكن إرجاعه إليها، ويرجع هذا الاحتمال لتسمية الفصول سوراً تشبيهاً له بالقرآن، ولا يوجد مسلم عربي، ولا أعجمي، يطلق لفظ السور على غير سور القرآن، أو يقول (الله سبحان) لأن كلمة (سبحان الله) مما يحفظه كل مسلم من أذكار دينه)[١].

٧ ـ هذا الإنجيل لا يمكن أن يكون واضعه مسلماً لأن فيه مخالفات للقرآن الكريم في بعض فصوله، ذكرها الأستاذ (سيف الله أحمد فاضل) منها: (قوله إن الله لم يرسل رسولاً للجن)[٢].

وهذا يصدق قبل رسالة نبينا ﷺ الذي بعث للثقلين. ومنها: أن الذين يحرسون النار شياطين، وأثبت القرآن خطأ ذلك.

(وإنجيل (برنابا) يخطىء فيما أورده القرآن الكريم صراحة من أن المسيح عليه السلام كلم الناس في المهد، فيعتبر أن ذلك كان من قبل الوحي، تماماً كما جاء في إنجيل متى)[٣].

ويظن أن الله كلم الحواريين[٤].

يقول (سيف الله أحمد فاضل): (وتعبيرات وألفاظ إنجيل (برنابا) تشابه من

---

(١) مقدمة ناشر إنجيل برنابا، محمد رشيد رضا: ص ٣٤.

(٢) انظر: برنابا: ٣٦/٥.

(٣) انظر: متى: ٢/١٢.

(٤) مقدمة محقق إنجيل برنابا، سيف الله أحمد فاضل: ص ١٥.

كل وجه التعبيرات والألفاظ الكتابية، فلا يمكن لمسلم أن يقبل أن يقال: إن الله روح، فالروح عبد من عباد الله)[1].

٨ ـ أما التصريح بذكر اسم نبينا محمد ﷺ، فهو أمر ليس بمستغرب مطلقاً، فإن الرسل جميعهم بشروا بنبوته ﷺ، والأناجيل كلها بشرت به.

وقد نقل الشيخ (محمد بيرم) عن رحالة إنجليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميدي، قبل بعثة النبي ﷺ، وفيها يقول المسيح عليه السلام: (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد)[2].

وذلك موافق لنص القرآن بالحرف)[3].

٩ ـ إذا كانت الكنيسة ترفض هذا الإنجيل لانقطاع سنده، فإن الأناجيل الأربعة التي يعترفون بها منقطعة السند أيضاً، والباحثون لم يتوصلوا إلى معلومات ثابتة عن زمن كتابتها، أو عن اللغة التي كتبت بها، فإنجيل (برنابا) من هذه الناحية لا يختلف عن الأناجيل الأخرى.

إنجيل برنابا والأناجيل الأخرى:

هذا الإنجيل يشبه الأناجيل الأربعة في أنه يتحدث عن حياة السيد المسيح، وكل الأناجيل سرد لقصة حياة المسيح عليه السلام. ولكن هذا الإنجيل يختلف عن الأناجيل الأربعة في نقاط جوهرية تشكل أسس العقيدة النصرانية، وهو في هذه النقاط يلتقي مع القرآن الكريم، وهذه النقاط ذكرها الدكتور (خليل سعادة) في مقدمته وهي[4]:

١ ـ إنكار ألوهية المسيح أو بنوَّته لله، وإثبات أن المسيح أنكر ذلك على

---

(١) مقدمة الناشر، محمد رشيد رضا: ص ٣٥.

(٢) مقدمة الناشر: ص ٣٥.

(٣) كما في الآية ٦ من سورة الصف التي ذكرناها.

(٤) مقدمة المترجم، خليل سعادة: ص ٢٨.

مرآى ومسمع من ستمائة ألف جندي، وسكان اليهودية من رجال وأطفال ونساء.

٢ ــ إن الابن الذي عزم إبراهيم على ذبحه لله إنما هو إسماعيل لا إسحاق، وإنما الموعد إنما كان بإسماعيل.

٣ ــ إن (مسيا) ليس (يسوع)، بل (محمد) ﷺ، وقد ذكر اسم النبي (محمد) ﷺ باللفظ الصريح في عدة فصول وقال إنه رسول الله وإن آدم لما طرد من الجنة رآى مكتوباً فوق بابها (لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله).

٤ ــ إن يسوع لم يصلب بل حمل إلى السماء وإن الذي صلب هو يهوذا الإسخريوطي الخائن الذي شبه به.

بشرية المسيح ورسالته في إنجيل برنابا:

لقد أورد هذا الإنجيل نصوصاً كثيرة تدل بصريح اللفظ على أن المسيح ــ عليه السلام ــ عبد من عباد الله، أوحى الله إليه ليكون أحد رسله.

ونحن لن نستقصي هذه النصوص، وسنقتصر على بعضها إن شاء الله. هذا الإنجيل يشير إلى هذه الحقيقة في مقدمته التي بيَّن فيها الدافع الذي دفعه لكتابة هذا الإنجيل مبيناً أنه كتب إنجيله هذا، ليبين للناس ضلالات من يقولون بأن المسيح ابن الله، وذكر في مقدمتهم (بولس) كما أسلفنا.

وفي الفصل الأول من هذا الإنجيل حيث الحديث عن المسيح عليه السلام قبل مولده، وظهور الملك لأمه مريم يبشرها بنعمة من الله الذي اختارها لتكون أم نبي يبعثه إلى شعب إسرائيل[1].

ويصف المسيح في الفصل الثاني بأنه (قدوس الله من رحم أمه فإنه نبي من الله أرسل إلى شعب إسرائيل)[2].

ويصف الفصل العاشر ابتداء نبوته عليه السلام، حيث بدأ الوحي يتنزل عليه

---

(١) برنابا: ١/٤.

(٢) برنابا: ٢/١٠.

فيقول: (ولما بلغ (يسوع) ثلاثين سنة من العمر كما أخبرني بذلك بنفسه، صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتوناً، وبينما كان يصلي في الظهيرة وبلغ هذه الكلمات: (يا رب برحمه. .) وإذا بنور باهر قد أحاط به، وجوق لا يحصى من الملائكة، كانوا يقولون (ليتمجد الله) فقدم له الملاك (جبريل) كتاباً كأنه مرآة براقة، فنزل إلى قلب يسوع الذي كان قد عرف به ما فعل الله، وما قال الله وما يريد الله، حتى أن كل شيء كان عرياناً ومكشوفاً له. . ولما تجلت هذه الرؤيا ليسوع، وعلم أنه نبي مرسل إلى بيت إسرائيل كاشف مريم أمه كل ذلك. . .

ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته النبوية)[1].

وفي الفصل الثاني والخمسين يخاطب المسيح عليه السلام أتباعه مبيناً لهم عظم مسألة تأليهه، وأنه يقشعر لأن العالم سيدعوه بذلك، فهو يعلم أن النصرانية ستنحرف، وينتشر تأليهه ليكون أساس اعتقادهم فيقول ما نصه: (الحق أقول لكم متكلماً من القلب، أني أقشعر لأن العالم سيدعوني إلهاً، وعلي أن أقدم لأجل هذا حساباً، لعمر الله الذي نفسي واقفة بحضرته إني رجل فانٍ كسائر الناس، على أني وإن أقامني الله نبياً على بيت إسرائيل)[2].

وقد أشار القرآن الكريم إلى الحساب الذي سيقدمه المسيح ـ عليه السلام ـ على هذه الفرية التي افتراها عليه المبطلون، كان هذا الحساب في الاستجواب الذي سيقدم له يوم القيامة ﴿وإذ قال الله: يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله، قال: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إنْ كنت قلتُه فقد علمتَه تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾[3].

ويؤكد عليه السلام بهذا الفصل أنه فانٍ كسائر الناس، وإن كان نبياً.

---

(١) برنابا: ١٠/١ ـ ٤، ٦، ٨.

(٢) برنابا: ٥٢/١٠ ـ ١٣.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١٦.

وفي الفصل الحادي والتسعين يبين هذا الإنجيل أن فكرة ألوهية المسيح عليه السلام ظهرت أيام حياته، وقد أشاعها جنود الرومان، ووصل هذا الكلام إلى أسماع المسيح عليه السلام وخاطب الشعب قائلاً: (لقد ضللتم ضلالاً عظيماً أيها الإسرائيليون، لأنكم دعوتموني إلهكم، وأنا إنسان. . . أشهد أمام السماء، وأشهد أمام كل شيء على الأرض أني بريء من كل ما قلتم، لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية، وعرضة لحكم الله مكابد شقاء الأكل والمنام وشقاء البرد والحر كسائر البشر)[1].

والفصل السادس بعد المائتين من هذا الإنجيل يجري حواراً بين رئيس الكهنة وبين المسيح عليه السلام، (كان هذا الحوار في الهيكل، حيث كان المسيح مع جمع غفير من الشعب يعظهم ويعلمهم، فاقترب منه رئيس الكهنة قائلاً: قل لي يا (يسوع)، أنسيت كل ما كنت قد اعترفت به من أنك لست الله ولا ابن الله ولا (مسيا)؟ أجاب يسوع: لا البتة لم أنس، لأن هذا هو الاعتراف الذي أشهد به أمام كرسي دينونة الله في يوم الدينونة، لأن كل ما كتب في كتاب موسى صحيح كل الصحة، فإن الله خالقنا أحد وأنا عبد الله، وأرغب في خدمة رسول الله الذي تسمونه (مسيا))[2].

ويضرع المسيح إلى الله تعالى بقلب يتألم مما وصف به، فيدعو باللعنة على الذين يفسدون إنجيله، ويقول بأنه ابن الله معترفاً بعجزه وبشريته فيقول: (أيها الرب الإلّه القدير الغيور. . . العن إلى الأبد كل من يفسد إنجيلي الذي أعطيتني عند ما يكتبون أني ابنك، لأني أنا الطين والتراب خادم خدمك، ولم أحسب نفسي قط خادماً صالحاً لك)[3].

وفي الفصل العشرين بعد المائتين نجد حواراً بين المسيح وأمه يشترك فيه (برنابا) نفسه، يدور هذا الحوار حول مسألة الصلب الذي وقع على (يهوذا) بدلاً

---

(١) برنابا: ٩٣/٢، ٩، ١٠.

(٢) برنابا: ٢٠٦/٢ ـ ٥.

(٣) برنابا: ٢١٢/٥ ـ ٦.

منه، فيسألا المسيح عليه السلام: (لماذا سمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص؟ وإذا كان الله رحيماً، فلماذا عذَّبنا بهذا المقدار، بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتاً، وقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت؟ أجاب يسوع: صدقني يا (برنابا) إن الله يعاقب على كل خطيئة، مهما كانت طفيفة عقاباً عظيماً، لأن الله يغضب من الخطيئة، فلذلك لما كانت أمي وتلاميذي الأمناء الذين كانوا معي أحبوني قليلاً حباً عالياً، أراد الله البر أن يعاقب على هذا الحب بالحزن في الوقت الحاضر حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم، فلما كان الناس قد دعوني: الله، وابن الله، على أني كنت بريئاً في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أني أنا الذي مت على الصليب، لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله)(١).

وفعلاً، بقيت مسألة الصلب موضع اختلاف كبير، فلم يختلف النصارى في شيء قدر اختلافهم في هذه المسألة، وبقي الناس في حيرة من أمرهم حتى بزغ نور الإسلام، وبعث محمد ﷺ، ونزل عليه القرآن يبين المسألة على حقيقتها، ويقول بأن المسيح عليه السلام لم يصلب وإنما ألقي الشبه على غيره، ورفعه الله تعالى إليه: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسولَ الله، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شُبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍ منه، ما لهم من علم إلاَّ اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً﴾(٢).

بعد هذه المرحلة الطويلة مع النصرانية منذ نشأتها لا بدَّ من استراحة نسجل فيها مشاهداتنا، حيث سنستخلص أهم هذه المشاهدات التي تعتبر نتيجة الرحلة في هذا البحث.

لقد كان الهدف الأساسي من البحث في الأصل أن نتعرف على حقيقة الانحراف الذي تعاني منه النصرانية، موضعه ونشأته ومصادره، وخرجنا بنتيجة أكيدة هي أن هذا الانحراف طارىء على النصرانية، فقد مضى عصر المسيح عليه

---

(١) برنابا: ٢٢٠/١٤ ـ ٢٠.

(٢) سورة النساء: الآيتان ١٥٧، ١٥٨.

السلام، وعصر حوارييه دون أن تتخلى النصرانية عن عقيدتها الصحيحة. وتداعت عوامل مختلفة الاتجاهات ساعدت على الانحراف بالنصرانية عن مسارها الصحيح.

إن من أهم ما يشاهده الباحث في هذا الموضوع أن النصرانية الحاضرة لا تمت إلى المسيح بصلة، وذلك يظهر جلياً إذا حاولنا المقارنة بين التعاليم التي جاء بها المسيح عليه السلام، وبين المسيحية الحالية، التي نشأت منفصلة عن السيد المسيح، تلك المسيحية التي تعتبر بحق مدينة لـ (بولس)، الذي كان يهودياً متعصباً ليهوديته، يصارع خصومها في عنف ويستعمل كل نشاطه وحيويته في تثبيت دعائمها، ثم كان وثنياً شديد التعصب للوثنية، وفجأة يعتنق النصرانية.. وأخذ يخترع وينظم إلى أن أقام مسيحية خاصة لا تمت للمسيح بصلة، إنه لا مجال للشبه بين مسيحية المسيح، وبين المسيحية التي أقام قواعدها ووضع لاهوتها (بولس)، إن المسيح عليه السلام نبي أرسله الله إلى المجتمع اليهودي ليبشِّر فيه بقواعد أخلاقية تحتاجها بيئة ذلك المجتمع.

أما التثليث، وأما فكرة الألوهية التي تمشي على الأرض متمثلة في المسيح أو البنوَّة لله، أما هذه العقائد المعقدة التي لا يستسيغها عقل، فقد كانت بعيدة كل البعد عن رسالة المسيح عليه السلام.

إن هذه العقائد الغريبة التي يؤمن بها النصارى اليوم لا أصل لها حتى في نصوصهم المقدَّسة، ولقد شاهدنا في رحلتنا مع هذا البحث نصوص الكتاب المقدس التي تثبت عكس ما يقولون، فقد رأينا الأدلة على بشرية المسيح وعلى نبوته، ورأينا نصوصاً يقتضي معها القول بألوهية المسيح أو أزليته أو أنه ابن الله كما يدعون، والنتيجة التي ندركها عند ذلك أن النصارى لا يعرفون شيئاً عن دينهم إلَّا ما يلقنه لهم رجال الكنيسة.

وإن مما يزيد القضية تأكيداً، أن هذه النتيجة التي أثبتها بعد رحلتي مع هذا الموضوع لا أنفرد بها وحدي، وإنما يشاركني فيها بعض الباحثين النصارى، الذين تناولوا الموضوع من وجهة علمية صرفة، فقد استُشهد كثيراً بما كتبه الأستاذ (شارل جيني بير) في كتابه المسيحية نشأتها وتطورها.

ولقد كان الأستاذ (جيني بير) أستاذاً لتاريخ الأديان، بجامعة السوربون إلى عهد قريب، ولأبحاثه شهرة عالمية، وقد كتب كتاباً ضخماً عن العصر الذي نشأ فيه المسيح، وكتاباً آخر قيماً يقرب من خمسمائة صفحة عن المسيح نفسه، وكتاباً ثالثاً عن تطور العقائد، ورابعاً في جزأين عن المسيحية القديمة، ومسيحية العصور الوسطى، والمسيحية الحديثة، وقد أثبت في كل هذه الكتب بما لا يدع مجالاً للشك، أن المسيحية الحالية ليست هي مسيحية المسيح(١).

لقد ظهر مفكرون رأوا أن عيسى بشر ليس إلّهاً، ولا ابن إلّه، ومن هؤلاء من اهتدى إلى الحق وأعلن إسلامه، وقد حاول الأستاذ عرفات كامل العشي أن يجمع قصص إسلام بعضهم في كتابه (رجال ونساء أسلموا).

ومنهم من بقي على مسيحيته، لكن لا يعتبر عقائدها صحيحة.

وقد كتب المهندس أحمد عبد الوهاب كتاباً سماه: (المسيح في مصادر العقائد المسيحية) جمع فيه خلاصة أبحاث علماء المسيحية في الغرب ـ وكان من مراجعه كتاب بعنوان (اعتراضات على العقيدة المسيحية) ويشمل هذا الكتاب أربعة محاضرات، ألقاها بكلية اللاهوت بجامعة كمبردج، أربعة من أعضاء تلك الكلية هم: (ماكينون، فيدلر، ويليامز، بيزنت)، وما أن ظهرت طبعته الأولى في أبريل سنة ١٩٦٣م حتى تلقته الأيدي، وتقول مقدمته: (إن هذا العصر أصبحت فيه أساسيات العقيدة المسيحية موضع ارتياب، وإن الدعاوى التي تقوم ضد المسيحية لم يعد من الممكن مواجهتها بتكرار الحجج القديمة أو تلك التبريرات الواهية)(٢).

ولقد عقد الأستاذ (أحمد شلبي) في كتابه: المسيحية، فصلاً بعنوان (المسيح والمسيحية في نظر المفكرين الغربيين)، حيث قال: يمكن القول دون تردد أن أغلب المفكرين الغربيين لا يدينون بالمسيحية، كما يدين بها عامة

---

(١) أوروبا والإسلام، د. عبد الحليم محمود: ص ٣٤، مطابع الأهرام التجارية ـ مصر سنة ١٩٧١م.

(٢) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، مهندس أحمد عبد الوهاب: ص ٩، مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

المسيحيين، وكما تعلمها الكنيسة، واستشهد على ذلك بترجمة حرفية لما كتبه باحثان غربيان، شهدا بأن المسيحية الحاضرة اقتباسات من الوثنية واليهودية والحياة الشرقية والرومانية[1].

ونحن نسمع عن كثير من القساوسة ورجال الدين من النصارى الذين خرجوا عن كنائسهم وأعلنوا الثورة على كامل العقائد التي تنادي بها المسيحية اليوم، معلنين أن المسيح عليه السلام بشر كغيره من الأنبياء.

ولا مجال هنا للتفصيل عن هؤلاء، وإنما نكتفي بالقول بأن كل ذلك يعتبر حجة قاطعة على أصالة التوحيد من جهة، وخرافة معتقدات النصرانية الحالية، ومخالفتها للحقيقة من جهة أخرى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) انظر: المسيحية، أحمد شلبي: ص ٧٧.



قائمة المراجع

١ ــ ابن الإنسان، أميل لود فيغ. ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، سنة ١٩٤٧م.

٢ ــ الأجوبة الفاخرة، القرافي. مطبعة الموسوعات ــ مصر، سنة ١٣٢٢هـ، (على هامش الفارق بين المخلوق والخالق).

٣ ــ إسرائيل حرفت الأناجيل والكتب المقدسة، أحمد عبد الوهاب. مكتبة وهبة ــ القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٢م.

٤ ــ الإسلام أمام افتراءات المفترين، توفيق علي وهبة. من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، سنة ١٣٩٨هـ.

٥ ــ الإسلام والفلسفات القديمة، أنور الجندي. دار الاعتصام ــ القاهرة، ١٩٧٨م.

٦ ــ أضواء على المسيحية، متولي يوسف شلبي. الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٣هـ.

٧ ــ إظهار الحق، الشيخ رحمت الله الهندي. تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي للطباعة والنشر ــ مصر، سنة ١٣٩٨هـ.

٨ ــ إغاثة اللهفان، ابن القيِّم. تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة ــ بيروت (لم تُذكر سنة الطبع).

٩ ــ أقانيم النصارى، الدكتور أحمد حجازي السقا. دار الأنصار ــ مصر، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٧هـ.

١٠ ــ الله، عباس محمود العقاد. دار المعارف ــ مصر، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٧٦م.

١١ ــ ألقاب المسيح، القس منيس عبد النور. دار الثقافة المسيحية بمصر، (لم تُذكر سنة الطبع).

١٢ ــ الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان. دار النهضة العربية ــ القاهرة، (لم تُذكر سنة الطبع).

١٣ ــ الله واحد في الثالوث القدوس، القمص زكريا إبراهيم. الطبعة الرابعة، مركز الشبيبة ــ السويس، مصر، (لم تُذكر سنة الطبع).

١٤ ــ إنجيل برنابا، ترجمة الدكتور خليل سعادة. تحقيق سيف الله أحمد فاضل، دار القلم ــ الكويت، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٣هـ.

١٥ ــ الإنجيل والصليب، الأب عبد الأحد داود. ترجمة سليم عراقي، طُبع في القاهرة سنة ١٣٥١هـ.

١٦ ــ أوروبا والإسلام، د. عبد الحليم محمود. مطابع الأهرام التجارية، سنة ١٩٧٣م.

١٧ ــ البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية، د. تقي الدين الهلالي. مطابع دار الثقافة ــ مكة المكرمة، سنة ١٣٩٣هـ.

١٨ ــ تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار الهمذاني. تحقيق د. عبد الكريم عثمان، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت، سنة ١٣٨٦هـ.

١٩ ــ تفسير القرآن الحكيم (المنار)، السيد محمد رشيد رضا. مطبعة المنار بمصر، الطبعة الثانية، سنة ١٣٥٠هـ.

٢٠ ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير. دار الأندلس ــ بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨٥هـ.

٢١ ــ التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، د. موريس بوكاي. ترجمة نخبة من الدعاة بإشراف مجلة «الفكر الإسلامي» الصادرة عن دار الفتوى اللبنانية، دار الكندي للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت، سنة ١٣٩٨هـ.

٢٢ ــ جامع البيان عن تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري. تحقيق محمود شاكر، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٤م.

٢٣ ــ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ــ القاهرة، سنة ١٣٨٧هـ.

٢٤ ــ الجانب الإلّهي من التفكير الإسلامي، د. محمد البهي. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ــ القاهرة، سنة ١٩٦٧م

٢٥ ــ الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح، تقي الدين بن تيمية. مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، سنة ١٣٨٣هـ.

٢٦ ــ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب. الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ــ الكويت، سنة ١٣٩٨هـ، طباعة دار القرآن الكريم ــ بيروت ــ دمشق.

٢٧ ــ دائرة المعارف، المعلم بطرس البستاني. مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان طهران ــ ناصر خسرو، سنة ١٨٨٢م.

٢٨ ــ دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي. مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثانية، سنة ١٣٤٣هـ.

٢٩ ــ دعوة التوحيد، محمد خليل الهراس. مطبعة الإمام ــ مصر، (لم تُذكر سنة الطبع).

٣٠ ــ دعوة الرسل إلى الله تعالى، محمد أحمد العدوي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ــ مصر، سنة ١٣٥٤هـ.

٣١ ــ دراسات قرآنية، د. عدنان زرزور. مكتبة دار الفتح بدمشق، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٥هـ.

٣٢ ــ الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة، أغناطيوس أفرام الأول برهوم، مطبعة السلامة ــ حمص، سنة ١٩٤٠م.

٣٣ ــ دروس في تاريخ الفلسفة، إبراهيم مدكور ويوسف كرم. طبع وزارة المعارف العمومية بمصر، سنة ١٩٥٤م.

٣٤ ــ الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبد الله دراز، مطبعة السعادة ــ مصر، سنة ١٣٨٩هـ.

٣٥ ــ الدين والفلسفة والعلم، السيد محمود أبو الفيض المنوفي. دار الكتب الحديثة، توفيق عفيفي ــ مصر، (لم تُذكر سنة الطبع).

٣٦ ــ الروم، د. أسد رستم. الطبعة الأولى، سنة ١٩٥٥م، نشر دار المكشوف ــ بيروت.

٣٧ ــ سلاسل المناظرة الإسلامية النصرانية، عبد الله العلمي. الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٠هـ.

٣٨ ــ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية ــ مصر، سنة ١٣٧٢هـ.

٣٩ ــ السيد المسيح يلوح بالأفق، محمد سعيد الزعبي. الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٣م ــ بيروت.

٤٠ ــ صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. دار الفكر للطباعة والنشر (عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول)، (لم تُذكر سنة الطبع).

٤١ ــ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٢م.

٤٢ ــ الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي. ترجمة عبد الصبور شاهين، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ــ الكويت، سنة ١٣٩٨هـ.

٤٣ ــ العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر تنير ــ بيروت، سنة ١٣٣٠هـ.

٤٤ ــ العقيدة الإسلامية وأُسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني. دار القلم ــ دمشق ــ بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٩هـ.

٤٥ ــ العقيدة في الله، عمر سليمان الأشقر. دار الفلاح ــ الكويت، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٩هـ.

٤٦ ــ الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن بك أفندي باجة زادة. مطبعة الموسوعات، شارع باب الخلق، سنة ١٣٢٢هـ.

٤٧ ــ فتح الباري، ابن حجر العسقلاني. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ مصر، سنة ١٣٧٨هـ.

٤٨ ــ الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد بن حزم الظاهري. دار المعرفة للطباعة والنشر ــ بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

٤٩ ـ الفهرست، ابن النديم. المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر، (لم تُذكر سنة الطبع).

٥٠ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب. دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة، الطبعة السادسة، سنة ١٣٩٨هـ.

٥١ ـ القرآن والمبشرون، محمد عزت دروزة. المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٧هـ.

٥٢ ـ قصة الحضارة، ول ديورانت. ترجمة د. زكي نجيب محفوظ ومحمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٥٦م.

٥٣ ـ قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، (لم تُذكر سنة الطبع).

٥٤ ـ قطر المحيط، المعلم بطرس البستاني. مكتبة لبنان ـ بيروت (نسخة طبق الأصل عن طبعة سنة ١٨٦٩م).

٥٥ ـ لسان العرب، ابن منظور. الطبعة الأولى، المطبعة الميرية ببولاق ـ مصر، سنة ١٣٠٣هـ.

٥٦ ـ الكتاب المقدس، طُبع في بيروت على نفقة الجمعية البريطانية، سنة ١٨٧٢م، (تُرجم من اللغات الأصلية).

٥٧ ـ كتاب الإنجيل، الخوري يوسف عون. بيروت، سنة ١٩٧٨م.

٥٨ ـ كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، د. أسد رستم. دار النور ـ بيروت، (لم تُذكر سنة الطبع).

٥٩ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي. طباعة دار القرآن ـ بيروت ـ دمشق، من منشورات الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ـ الكويت، سنة ١٣٩٨هـ.

٦٠ ـ محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة. مطبعة المدني ـ مصر، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٨٥هـ.

٦١ ـ محمد الرسالة والرسول، د. نظمي لوقا. الشركة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٥٦م.

٦٢ ــ مروج الأخيار في تراجم الأبرار، بطرس فرماج. مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين.

٦٣ ــ المستدرك، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري. مكتبة المطبوعات الإسلامية ــ حلب، (لم يُذكر تاريخ الطبع).

٦٤ ــ مقارنة الأديان (المسيحية)، د. أحمد شلبي. الطبعة الرابعة، سنة ١٩٧٣م، نشر مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة.

٦٥ ــ مقارنة الأديان (اليهودية)، د. أحمد شلبي. مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٧٨م.

٦٦ ــ مقامع الصلبان، الخزرجي.

٦٧ ــ المسيحية: نشأتها وتطورها، شارل جيني بير. ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت.

٦٨ ــ المصطلحات الأربعة في القرآن، أبو الأعلى المودودي. تعريب محمد كاظم سباق، الطبعة السادسة، سنة ١٣٩٧هـ، دار القلم ــ الكويت.

٦٩ ــ مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، أبو الأعلى المودودي. دار القلم ــ الكويت، سنة ١٣٩٤هـ.

٧٠ ــ المسيح في مصادر العقائد المسيحية، مهندس أحمد عبد الوهاب. مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٨هـ.

٧١ ــ معاول الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير، إبراهيم سليمان الجبهان. الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٨هـ، مطابل الريل ــ الرياض.

٧٢ ــ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس. تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٠هـ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ــ مصر.

٧٣ ــ الملل والنحل، أبو الفتح الشهرستاني. مطبوع على هامش الفصل، دار المعرفة ــ بيروت، سنة ١٣٩٠هـ.

٧٤ ــ موسوعة تاريخ الأقباط، زكي شنودة. الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٨م، مطابع البلاغ ــ القاهرة.

٧٥ ـ النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز. دار القلم ـ الكويت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٠هـ.

٧٦ ـ نشأة الدين: النظريات التطورية والمؤلهة، علي سامي النشار. دار نشر الثقافة بالإسكندرية، سنة ١٩٤٩م.

٧٧ ـ النصرانية والإسلام، محمد عزت إسماعيل الطهطاوي. دار الأنصار ـ القاهرة، مطبعة التقدم، سنة ١٩٧٧م.

٧٨ ـ نظرات في القرآن، محمد الغزالي. دار الكتب الحديثة ـ القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٨٢هـ.

٧٩ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير. تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ـ مصر، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨٣هـ.

٨٠ ـ هل الله في ثلاثة أقانيم، إسكندر جديد. من منشورات مركز الشبيبة المسيحية ـ بيروت، (لم تُذكر سنة الطبع).

٨١ ـ هل الله موجود، رمسيس ونيس. الطبعة الثانية، لجنة خلاص النفوس للنشر ـ مصر، (لم تُذكر سنة الطبع).

٨٢ ـ اليهود، زهدي الفاتح. الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٢هـ.

٨٣ ـ اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية، إيليا أبو الروس. منشورات دار الاتحاد، الطبعة الأولى ـ بيروت، سنة ١٩٦٤م.

المراجع الأجنبية:

1 — O. Sudney Baer, from the apostlist' father to the apostles' creed – New York. Oxford, Univercity Press 1964.

2 — Encyclopaedia of religion and Ethics / James Hasting.

المجـلات:

١ ـ الأزهر: مجلد ٦.

٢ ـ مجلة الإصلاح، صادرة عن جمعية الإصلاح الاجتماعي بدولة الإمارات، عدد ١١، السنة الأولى.

٣ ـ هذه سبيلي، عدد ١، السنة الأولى سنة ١٣٩٨هـ صادرة عن المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

